محاضرات في
علوم القرآن وتفسيره

لسماحة
الشيخ محمد علي التسخيري

المركز العالي للدراسات التقريبية
التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

شابک : ۹ـ۲۵۷ـ۱۶۷ـ۹۶۴ـ۹۷۸
شماره کتابشناسی ملی : ۴۵۷۴۷۱۴
عنوان و نام پدیدآور : محاضرات فی علوم القرآن وتفسیره / لسماحة محمدعلی التسخیری؛ اعداد تحسین البدری.
مشخصات نشر : تهران: المجمع العالمی للتقریب بین المذاهب الإسلامیه، المرکز العالی للدراسات التقریبیه، ۱۴۳۸ ق، = ۱۳۹۵.
مشخصات ظاهری : ۴۲۰ ص.
یادداشت : عربی.
یادداشت : کتابنامه: ص. [۴۰۱] ـ ۴۱۱؛ همچنین به صورت زیرنویس.
موضوع : قرآن ـ ـ بررسی و شناخت
موضوع : Qur'an -- Surveys
موضوع : قرآن ـ ـ تحقیق
موضوع : Qur'an -- Research
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۵
رده بندی کنگره : ۱۳۹۵ ۳م۵ت/۶۵/۳ BP
سرشناسه : تسخیری، محمدعلی، ۱۳۲۳ ـ
شناسه افزوده : بدری، تحسین، ۱۳۴۷ ـ ، گردآورنده
شناسه افزوده : مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی، مرکز مطالعات و تحقیقات علمی
وضعیت فهرست نویسی : فیپا

اسم الكتاب: محاضرات في علوم القرآن و تفسيره
تأليف: الشيخ محمدعلي التسخيري
إعداد: تحسين البدري
تنضيد الحروف: عصام البدري
الإخراج الفني: عبدالله البراتي
تصميم الصفحات: السيد مهدي الحسيني
الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية
المركز العالي للدراسات التقريبية
الطبعة: الأولى ـ ١٤٣٨ هـ. ق / ٢٠١٧ م
الكمية: ١٠٠٠ نسخة
السعر: ٢٢٠٠٠٠ ريال
المطبعة: نگارش
شباك: ٩ـ٢٥٧ـ١٦٧ـ٩٦٤ـ٩٧٨
العنوان: الجمهورية الإسلامية في إيران ـ طهران ـ ص . ب: ١٥٨٧٥ـ٦٩٩٥
تلفكس: ١٤ـ٢١ـ٨٨٣٦٢١٤١١ـ٠٠٩٨
قم المقدسة ـ ص . ب: ٣٧١٣٦ـ٦٣٦٥٧
تلفكس: ٠٠٩٨ـ٢٥ـ٣٧٧٥٥٤٤٨ـ٣٧٧٥٤٩٦٦
البريد الالكتروني: Qom.taghrib@yahoo.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

مقدمة المركز

كان القرآن وما زال موضع اهتمام المسلمين وبمختلف مستوياتهم، وفي هذا المضمار اهتمّ علماء الدين به في دراساتهم المتواصلة على طول قرون، واعتبروه منهجاً دراسياً يصاحب الطالب منذ البداية وحتى مراحل متأخرة من دراساته العليا، كما هو منهج حياة للبشرية، ينبغي أن يصاحب أتباع الدين حتّى آخر العمر، وهو في الوقت ذاته منهل خصب لكثير من العلوم والفنون، ومعلم مهم من معالم تطوّر البشرية، لا في برهة خاصّة من الزمن بل على طول التاريخ وما دام الانسان حيّاً.

ومن أجل هذا نجد تنوّع الدراسات القرآنية واختلافها في المستويات وزوايا البحث، فبعض تناول الأدب منه، وبعض آخر تناول الفقه منه، وآخر تناول العلوم الطبيعية منه، وهكذا...

لم تقتصر الدراسات على مستوى خاص من المخاطبين بل سعى علماؤنا لتدوين تعاليم وعلوم وفنون هذا الكتاب لمختلف المستويات، فمنهم من تناول عمق القرآن وتأويلاته وزواياه التي تصلح كمادة دراسية لأهل العلم، ومنهم من تناول شريحة طلاب العلوم الدينية في مستويات خاصة، ومنهم من تناول شريحة الشباب المثقّف بل وحتّى الأطفال.

وهذا أمر منسجم وطبيعة كتاب يعدُّ منهجاً سماوياً كسب خلال حياته الزاهرة أتباعاً تقدّر بمليارات من البشر من مختلف القوميات والأعراق والشرائح، وما عرفوه كتاباً مؤطّراً بزمان، ولا بقومية ولا أيّ شيء آخر تحجمه وتحسره عن الاتّساع.

برغم كثرة البحوث التي تناولت هذا الكتاب إلاّ أنّها لا تعدُّ كافية ولا وافية لما تضمّن من خزائن، فإنّ الحاجة إلى البحث فيه ودراسته متجدّدة بتجدّد الأزمان والأجيال وتحوّل الظروف وتطوّر العلوم.

أقلّ حاجتنا إلى الجديد من بحوثه هو تطوّر اللغة التي اعتمدها، وتحوّلها بمفرداتها وتراكيبها، وأقلّ حاجتنا إلى الجديد من بحوثه هو تطوّر العلوم وضرورة انسجام معطياته مع آخر الاكتشافات والمعارف التي اكتسبتها البشرية وما زالت في ازدياد مستمر، وهناك الكثير من المجالات والشؤون التي تستدعينا للبحث في هذا الكتاب بشكل متواصل، وعدم التوقّف في ما أثرناه من السلف، وبات الأسلوب الذي ألّف به السلف غير كاف، وعنصر التجدّد أخذ يلقي بظلاله على كلّ بحث ودراسة.

ومن جانب آخر، فإنّ القرآن بطبيعة شأنه ومقامه ودوره الذي لعبه خلال

أكثر من أربعة عشر قرناً يثير كلّ من هو غريب عنه، فجعل البعض يبحث في معرفة سرّ خلود وتأثير هذا الكتاب سعياً منه لمعرفة الحقيقة واتّباعاً لما هو الحقّ، وجعل بعضاً آخر يسعى لمعرفة أجزاء منه يمكنه من خلالها النيل من الدين الذى دعى إليه، لأجل زعزعة عقيدة أتباعه فيه. من هنا تنوّعت الشبهات والاتهامات في هذا المجال، وبخاصة تلك التي صدرت من بعض الغربيين ذوي الاتجاهات السياسية أو العقائدية الخاصة.

لم يكن القرآن حديث عهد بمحاولات النيل منه، فإنّه كان مثار جدل وعرضة لهجمات عنيفة منذ أن ظهر وصار منطلق دعوة ربّانية لمنهج ينهل منه النبل والشرف والأخلاق العالية. واستمرّت الهجمات حتّى يومنا هذا، وقد بلغ بالبعض درجة من الحقد واللاموضوعية إذ دعى إلى إحراقه، لا عن علم بمحتواه الرفيع بل للحقد والجهل الذي أقرّ به. مهما كثرت هذه الهجمات فإنّ القرآن يزداد شموخاً ويزداد أتباعاً، ويزداد تعلّق أتباعه وعشاقه به. وهذا واحد من معالم إعجازه وجلاله.

وأهم ما يهدف إليه هذا الكتاب هو توفير ثقافة جامعية لطلاب الدراسات العلمية والحوزات الدينية تدفعهم للتشبع بروح القرآن والتتبع والتعمق في دراسة جوانبه الحياتية.

وسيجد القارئ الكريم والطالب الدراسي أن هدف الكتاب دفع المؤلف ـ إن صحت هذه التسمية هنا ـ إلى عدم الاقتصار على تحقيقاته هو وإنما التطرف إلى البحوث الأخرى التي يقبلها ويرى ضرورة التعرف عليها. كما دفعته في بعض البحوث إلى الإكثار من ذكر النماذج لها.

وهي بالاضافة إلى أهميتها تعمل على ادراك أهمية الموضوع نفسه، واستحضار نماذج مماثلة لها.

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات ومقالات ألقاها سماحة آية الله الشيخ محمد علي التسخيري على طلابه في لحوزة العلمية وفي مؤتمرات دولية. تتّحد في موضوع القرآن، ويمكن أن يذكر لها المميزات التالية:

أولاً: تضمُّ صنفين من البحوث، أحدهما: علوم القرآن، والآخر: رؤى مستوحاة من الكتاب العزيز، يمكن تصنيفها ضمن التفسير الموضوعي للقرآن. لأجل ذلك انقسم الكتاب إلى قسمين.

ثانياً: النظرة المقارنة للبحوث المطروحة هنا، وهذا أمر مشهود في مجمل بحوث سماحته، وذلك نتيجة طبيعية لعمل متواصل دام سنوات في مجال التقريب بين المذاهب والحضور في مؤتمرات تعالج قضايا اختلفت فيها المذاهب الاسلامية، ومجالسة علماء من أقطار اسلامية كثيرة.

ثالثاً: تغطّي هذه البحوث طلبات مرحلة من مراحل الدراسات القرآنية، كما أنّها في الوقت ذاته تصلح أن تكون مصدراً للمطالعة لطبقة المثقفين من المجتمع العربي، وذلك لما تحلّت به من سلاسة التعابير وبساطة البحوث وتنوّعها وشموليتها لكثير من الأمور التي ينبغي على المسلم معرفتها.

فهو كتاب يصلح كمنهج دراسي لطلاب العلوم الدينية في مراحلها الأولى، كما يصلح للمطالعة للمستويات العالية من المثقين المسلمين.

رابعاً: كونه يعبّر عن آراء شخصية علمية أمضت أكثر من نصف قرن من التجارب العلمية والاعلامية ذات النطاق الواسع والتواصل مع الآخرين على

مستويات مختلفة من الشعوب العربية والطبقات المتنوّعة. ونذكّر القارىء هنا بأنّ المقالات والمحاضرات التي ألّفت هذا الكتاب كانت قد كتبت وألقيت لأغراض خاصة و في ظروف معيّنة، لذلك قد نجد تفاوتاً بينها و بخاصة أنّ بعضها نقلها صاحب الكتاب عن أستاذه الشهيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر أو رفيق دربه آية السيد محمد باقر الحكيم ما يزيد صعوبة في التأليف بينها كما قد يشهده القارىء.

وفي النهاية نعرب عن شكرنا الجزيل لجهود سماحة الشيخ الدكتور تحسين البدري الذي همّ بجمع وإعداد المحاضرات والمقالات وقام بتهذيبها وإخراجها بالحلة التي يشهدها القارىء الكريم.

المركز العالي للدراسات التقريبيّة
التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

القسم الأول:

بحوث في علوم القرآن

الفصل الأول: تمهيد في علوم القرآن

الفصل الثاني: تاريخ القرآن

الفصل الثالث: المكي والمدني

الفصل الرابع: المحكم والمتشابه

الفصل الخامس: القرآن مصون من التحريف

الفصل السادس: القرآن كما تصوّره روايات الكافي

الفصل السابع: النسخ في القرآن

الفصل الثامن: حجية الظهور القرآني

الفصل الأول:
تمهيد في علوم القرآن

تعريف علوم القرآن

لابدّ من الإشارة إلى تعريف يشمل بحوثه ويميّزها من غيرها.

نقل الدكتور الصالح في (مباحثه) تعريفاً مشهوراً هو عبارة عن: «مجموعة من المسائل يبحث فيها عن أحوال القرآن الكريم من حيث نزوله وأدائه وكتابته وجمعه وترتيبه في المصاحف وتفسير ألفاظه وبيان خصائصه وأغراضه»[1].

ومن الواضح أنه جَمَع العناوين الرئيسة لمسائله وصاغ منها هذه العبارة التي ذكرت كتعريف لهذا العلم، ومع ذلك فإنّه غير مانع؛ لدخول بحوث التفسير فيه وهي خارجة.

ولكن لو تساء لنا عن سرّ تميّز هذا العلم عن علم التفسير ـ خصوصاً وأنه نشأ في أحضانه ـ لم نجد لذلك تفسيراً، إلاّ أنّه لمّا لم تكن بعض بحوثه تتعلق بالجنبة

---

١ ـ مباحث في علوم القرآن: ١٠.

التفسيريّة فقد خرجت عن ذلك الإطار واتّخذت لها صفة المقدّمية لعلوم التفسير تارة أو صفة الاستقلال عنه تارة أخرى، وإن اشتركت في تيسير التفسير مباشرة. مثلها في ذلك مثل العلوم القرآنية الأُخرى كعلم إعراب القرآن إن صح أن نسمّيه علماً، وعلم تجويده وغريبه وغير ذلك.

وقد قلت: «بعض بحوثه» وأنا أعني ذلك كمسألة نزول القرآن ومسألة التفسير وأساليبه والقراءات وغير ذلك. ولكنا نلاحظ أن الكثير من مسائله هي من صميم التفسير القرآني كـ«المحكم والمتشابه» و «الناسخ والمنسوخ» و «الحروف المقطعة»، فلماذا أُلحقت بعلم علوم القرآن يا تُرى؟

توجد هنا احتمالات منها:

١ ـ إنّها لما كانت تشكّل لوحدها موضوعاً متكاملاً نسبياً فقد قام العلماء بادئ الأمر بتأليف مصنّفات فيها بصورة مستقلّة عن التفسير، وأطالوا الكلام فيها، وذلك مثل:

ما ألّفه أبان بن تغلب في «علم القراءة»[١] وعليّ بن المديني من شيوخ البخاري في «أسباب النزول» والقاسم بن سلام في «الناسخ والمنسوخ»[٢] وغير ذلك.

ولما كانت طريقتهم استقصاء جزئيّات القرآن، لذلك وجب اختصار تلك العلوم في علم جديد موحّد سمّوه «علوم القرآن».

٢ ـ إنّها بحوث عامّة يمكن أن تطرح نفسها في موارد متعددة فلذا كان لابدّ أن تكون معلومة مسبقاً للمفسّر كمسألة (الناسخ والمنسوخ) و (المكّي والمدنيّ) وغير ذلك.

---

١ ـ تأسيس الشيعة الكرام لعلوم الإسلام: ٣٤٣.

٢ ـ مباحث في علوم القرآن: ١٢١.

والخلاصة: أنّنا لا نستطيع ـ إن أردنا أن نعرّف هذا العلم كما هو مدوّن ـ أن نعطي إطاراً عاماً، جامعاً مانعاً ـ كما يقال ـ فيجب إذن أن نرجع إلى ذلك التعريف السابق رغم عدم فنيّته فهو الشارح لبحوثه ـ طبعاً ـ بعد أن نهذّبه ليصبح هكذا: «**العلم الذي يبحث عن أحوال القرآن من حيث نزوله وأدائه وكتابته وجمعه وترتيبه في المصاحف وبيان خصائصه العامة الأخرى مع إدخال بعض البحوث على أساس الإلحاق**».

كل هذا إذا التزمنا بانفصاله عن علم التفسير. بقي أن نشير إلى نقطة لا بأس بمعرفتها هنا، وهي: أنّ أغلب البحوث في هذا العلم تمتلك صفة تاريخية، وإن كانت تعتمد أَحياناً على الذوق والاستنباط، وخصوصاً في البحوث الملحقة.

لمحة تاريخية عن سير هذا العلم

يرى الدكتورالصالح أنّ أول من كتب في هذه العلوم هو عليّ بن المديني والقاسم بن سلام، فقد ألّف الأول في (أسباب النزول)، والثاني في (الناسخ والمنسوخ) ومحمّد بن أيوب الضريس (ت٢٩٤) في (ما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة) ومحمّد بن خلف المرزبان (ت٣٠٩) إذ ألّف (الحاوي في علوم القرآن)[١].

في حين ينقل النجاشي أنّ أبان بن تغلب كان مقدّماً في كل فن من العلم في القرآن[٢]، وذكر ابن النديم تصنيف أبان في (القراءة)، قال: وله من الكتب (معاني القرآن)[٣].

١ ـ مباحث في علوم القرآن: ١٢١ ـ ١٢٢.
٢ ـ رجال النجاشي: ١١.
٣ ـ فهرست ابن النديم: ٢٧٦.

قال صاحب (تأسيس الشيعة): «ولم يعهد لأحد قبل أبان وحمزة[١] تصنيف في القراءات؛ فإنّ الذهبي وغيره ممن كتب في طبقات القرّاء، نصّوا على أنّ أول من صنّف في القراءات هو أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة (٢٢٤)، ولا ريب في تقدّم أبان؛ لأنّ الذهبي في «الميزان» والسيوطي في «الطبقات» نصّا على أنّه توفّي سنة (١٤١) وكذلك حمزة إذ توفّي سنة (١٥٤)، وعقّب على تقديم الحافظ الذهبي له بأنّه يقصد أول من ألّف من السنّة»[٢].

وعلى أيّ حال، فيبدو أنّ التأليف فيه بدأ في أوائل أو أواسط المئة الثانية للهجرة.

وقد ألّف فيه في المئة الرابعة كلّ من: الأنباري (عجائب في علوم القرآن)، والأشعري (المختزن في علوم القرآن)، والسجستاني (في غريب القرآن)، والكرخي (نكت القرآن الدالّة على البيان)، والأدفوي (الاستغناء في علوم القرآن)، وغيرهم.

في المئة الخامسة جماعة منهم: الحوفي (البرهان في علوم القرآن) و (إعراب القرآن).

وفي المئة السادسة جماعة منهم: السهيلي (مبهمات القرآن)، ابن الجوزي (فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن)، والمجتبى (علوم تتعلق بالقرآن)، وابن شهر آشوب المازندراني (متشابه القرآن).

وفي المئة السابعة: ابن عبد السلام (مجاز القرآن)، والسخّاوي (جمال القرّاء وكمال الإقراء)، وأبو شامه (المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز).

---

١ ـ هو حمزة بن حبيب أحد السبعة من أصحاب الإمام الصادق(عليه السلام) كما ذكر ابن النديم.
٢ ـ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ٣١٩.

وفي المئة الثامنة: الزركشي (البرهان).

وفي المئة التاسعة: السيوطي (الإتقان)، وهكذا.

وقد ظهرت أخيراً كتب تبحث في هذا العلم، منها: (البيان) للسيد أبي القاسم الخوئي، و(مباحث في علوم القرآن) للدكتور الصالح، و(البيان) للشيخ طاهر الجزائري، و(محاسن التأويل) للشيخ القاسمي، و(مناهل العرفان) للشيخ الزرقاني، و(منهج الفرقان) للشيخ سلامة، و(إعجاز القرآن) للرافعي، و(الظاهرة القرآنية) لابن نبي.

على أنّنا يجب أن نشير إلى أنّ أغلب هذه المسائل قد تناولتها التفاسير، ولربّما على نفس المستوى الذي تناولها به هذا العلم، وهذا ما نلاحظه في تفسير (الميزان) القيّم.

أسماء القرآن

عددها: نقل عن القاضي شيذلة الفقيه الشافعي أنّها خمسة وخمسون، وعن الحرالي أنها نيّف وتسعون اسماً، ونقله الشيخ طاهر الجزائري في كتابه (التبيان) عن بعض العلماء وكذلك ذكره الزرقاني أيضاً[١].

ونقل عن الجاحظ أنّ الله تعالى اختار لكتابه اسماً مخالفاً لما سمّى العرب كلامهم على الجملة والتفصيل، سمّى جملته كتاباً كما سمّوا ديواناً، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت وآخرها فاصلة كقافية[٢].

ونقل السيوطي عن المظفري أنه لمّا جمع أبو بكر القرآن قال: سمّوه، قال

١ ـ البرهان في علوم القرآن ١: ٣٤٣.

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن ١: ١٤١.

بعضهم: سمّوه إنجيلاً فكرهوه، وقال بعضهم: سمّوه السفر، فكرهوه من يهود، فقال ابن مسعود: رأيت بالحبشة كتاباً يدعونه المصحف، فسمّوه به، ونقل مثلها عن ابن اشتة في كتاب المصاحف[١].

ويحسن هنا أن نلتفت إلى بعض النكات

النكتة الأولى: الهدفيّة في القول والعمل، هي الروح السارية في كل خطوة وكل حركة تنتسب إلى الإسلام، ولذا فإنّا نجد أنّ هناك تناسباً رائعاً بين مركز القرآن الرئيسي في الدعوة الإسلامية ووظائفه الأساسية، وبين التسميات التي سُمّي بها أو ادّعيت تسميته بها.

وقد التفت الدارسون القدامى والمحدثون إلى ذلك، فراحوا يحاولون استكشاف السّر حسبما يتصوّرون اعتماداً على ذلك العلم الإجمالي بالتلاؤم الحتمي بين الاسم والعنوان ومركز المسمّى والمعنون؛ كما نجد فيما يلي:

١ ـ قال السيوطي: وأما الكلام فمشتق من الكلم بمعنى التأثير؛ لأنه يؤثر في ذهن السامع فائدة لم تكن عنده، وأمّا النور فلأنّه يدرك به غوامض الحلال والحرام، وأمّا الهُدى فلأنّ فيه الدلالة على الحق، وهو باب إطلاق المصدر على الفاعل، وأمّا الفرقان فلأنّه فرّق بين الحق والباطل، وجّهه بذلك مجاهد، كما أخرجه ابن أبي حاتم، وأما الشفاء فلأنّه يشفي من الأمراض القلبية ـ كالكفر والجهل والغل ـ والبدنية أيضاً، وأمّا الذّكر فلما فيه من المواعظ وأخبار الأُمم الماضية... إلى آخر ما قال[٢].

٢ ـ قد فسّر بعض المفسّرين المحدثين (**الفرقان**) فقال: وسمّاه الفرقان لما تضمّنه من فارق بين الحقّ والباطل والهدى والضلال، بل بما فيه من تفرقة بين نهج في

١ ـ الإتقان في علوم القرآن ١: ١٤٦.
٢ ـ الإتقان في علوم القرآن ١: ٥١.

الحياة ونهج، وبين عهد للبشرية وعهد، فالقرآن يرسم منهجاً واضحاً... ويمثّل عهداً جديداً... فرقان ينتهي به عهد الطفولة ويبدأ به عهد الرشد، وينتهي به عهد الخوارق المادية ويبدأ به عهد المعجزات العقلية، وينتهي به عهد الرسالات المحلّية الموقوتة ويبدأ به عهد الرسالة العامة الشاملة[1].

هذا على أن البعض لم يلتفتوا إلى السر تماماً، وإنّما حاولوا أن يجدوا مجرد مأخذ التسمية، فقالوا بأنه سمي قرآناً مثلاً؛ لأنّ القارئَ يظهره ويبيّنه من فيه؛ أخذاً من قول العرب: «ما قرأتْ الناقة سلاقط أي مارمت لولد أي ما أسقطت ولداً أي ما حملت قط»، والقرآن يخرجه القارئُ من فيه ويلقيه، فسمّي قرآناً.

وأدّعى الشافعي أنه لم يؤخذ من قراءة وإنّما هو اسم مخترع لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل.

وقال قوم منهم الأشعري: هو مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، وسمي به القرآن لاقتران السور والآيات والحروف فيه.

ولن نطيل في ذكر هذه الأقوال، إلاّ أنّنا نشير إلى أنّها لم تدرك النكتة الكبرى، والتي تنطبق أكثر فأكثر في حق القرآن؛ إذ أريد به ـ بالإضافة إلى إيصال الوحي إلى البشرية ـ أن تكون كل كلمة فيه مشيرة إلى أقصى حدّ ممكن إلى المعنى المراد، ومؤثّرة في عمليّة التربية الكبرى، فكيف يكون اختيار اللفظ مثلاً لأنّه مقروء أو لأنّه تقترن مقاطعه فيه، وهل هناك كتاب لا تقترن مقاطعه؟! وعذر هؤلاء أنهم بحثوا عن أصل الاشتقاق اللغوي غافلين عن هذا التناسب المحتّم.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الدكتور عبدالله دراز، وكذلك الدكتور الصالح

١ ـ في ظلال القرآن ٥: ٢٥٤٧.

لاحظا أن أكثر الأسماء الشائعة هي لفظتا (القرآن والكتاب)، وفسّرا هذا المعنى بأن (تسميته بالكتاب إشارة إلى جمعه في السطور؛ لأنّ الكتابة جمع الحروف ورسم للألفاظ، كما أن تسميته بالقرآن إيماءة إلى حفظه في الصدور؛ لأنّ القرآن مصدر القراءة وفي القراءة استذكار فهذا الوحي العربي المبين قد كفل له من العناية به ما كفل صيانته في حرز حريز...إذ لم ينقل كجميع الكتب بالكتابة وحدها ولا الحفظ وحده بل وافقت كتابته تواتر إسناده، ووافق إسناده المتواتر نقله الأمين الدقيق)[١].

ونحن لا نستطيع أن نقف عند هذا الحد بل قد نرفضه؛ باعتبار أن هاتين التسميتين جاء بهما القرآن نفسه ولقّنهما الإسلام أتباعه لا أنّهما جائتا بعد ذلك لتشيرا إلى صفتين متأخّرتين حدثتا أو تُوقّع لهما أن تحدثا فيه، وهما قراءته وكتابته وصيانته بهما من التحريف.

والبحث المفصل عن مداليل هذه الأسماء إنّما يكون في علم التفسير إلاّ أنّنا نشير إلى أنّ (قرأ) يأتي بمعنى جمع، ولذا نقل الراغب الإصبهاني في مفرداته[٢] تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله، لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿**وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿**تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾[٤].

كما ان «تقرأ الشيء» يعني تفهمه وتطلع على أسراره.

كما أنّنا نشير إلى أنّ الكتاب لا يطلق على مفهوم الكتابة الحرفي، وإنّما له

١ ـ راجع النبأ العظيم: ١٣ ، ومباحث في علوم القرآن: ١٧.
٢ ـ مفردات غريب القرآن: ٤٠٢.
٣ ـ سورة يوسف: ١١١.
٤ ـ سورة النحل: ٨٩

مدلولات تبعيّة مقترنة به تماماً، كالإلزام كما في﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾[١] ومدلول (التقدير) كما في ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي**﴾[٢]، وقد ذكر ابن شيذلة أن تسميته الكتاب لأنّه جمع بين العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه، وهذا يعني أن اختيار هذين الإسمين كان يتلاءم مع وظيفة القرآن العامّة التي جعلته الفيصل والجامع والآمر الإلهي الذي يجب أن يكون قوام كل شيء في حياة المسلمين.

النكتة الثانية: الملاحظ أنّ الكثيرين خلطوا بين أسماء القرآن وصفاته، فالكثير من الأسماء التي ذكرت له لم تكن أسماء بقدر ما هي صفات، وذلك من قبيل الصفات التالية: (**العلي، العزيز، المجيد، العربي، المبارك، المصدّق لما بين يديه، وعجباً، وتذكرة، القصص الحق، وبصائر، الزبور، البشير، النذير، البلاغ**).

وما يمكن أن يعدّ من أسماء القرآن هو مايلي

١ ـ **لفظ «القرآن»**: وهو أشهر الأسماء وقد ذكره الله تعالى في كتابة الكريم ٥٨ مرة، وجاء ذكره في الأحاديث النبوية الشريفة كثيراً حتى غطّى على كل اسم آخر، وأصبح علماً له ضرورة.

وقد اختلفوا في هذا اللفظ. فهو عند الشافعي ليس مشتقاً ولا مهموزاً بل هو مرتجل ووضع علماً على الكلام المنزل على النبي ﷺ وهو أمر بعيد لا معنى له، فلابدّ أن تكون هناك مناسبة لوضوح القصد من هذه التسمية الخطيرة وعند البعض: أنّه مشتقّ من القرائن؛ لأنّ آياته يشبه بعضها بعضاً، ولم نعرف سرّ ذلك

١ ـ سورة البقرة: ١٨٣.

٢ ـ المجادلة: ٢١.

ودخله في الغرض إلاّ بتحوير وتفسير. ويقول الأشعري: إنّه مشتق من قرن الشيء بالشيء وهو أخفى من سابقه.

والذي يبعد هذه الأقوال ـ كما يقوله الدكتور الصالح ـ هو قولها بعدم الهمز، وهو بعيد عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة، بالإضافة لما أشرنا إليه من إغفالها تلك النكتة الأساسية.

هذا، في حين رأى الآخرون أنّه مهموز، فيرى الزّجاج أنّه مهموز على وزن (فعلان) مشتق من القرء بمعنى الجمع، ويرى اللحياني أنه مصدر مهموز بوزن الغفران، مشتق من قرأ بمعنى «تلا». سمّي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر[1].

ويمكن أن نعتبر من يقول بأن القرآن اكتسب اسمه من أول كلمة نزلت منه وهي «إقرأ» مؤيداً لهذا القول، كما أنه يمكن الاستدلال له بأن القرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾[2]، وإن المفسّرين يعتبرون منه قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾[3]. مشيراً إلى القراءة.

و ربما أُيّد ذلك بالعبارة التي تبعته و هي ﴿**خَلَقَ الإنسان ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[4] إذا جعلت مفسّرة لأُسلوب تعليم القرآن، وهذا يأتي في محل تحقيقه في التفسير.

ويرى صاحب المباحث أنّ قرأ مأخوذة من اللغة الآرامية كتعبير عن تأثير

١ ـ مباحث في علوم القرآن: ١٨ –١٩، وراجع الإتقان، الباب السابع عشر، في معرفة أسمائه.
٢ ـ سورة القيامة: ١٧ ـ ١٨.
٣ ـ سورة الرحمن ١ ـ ٢.
٤ ـ سورة الرحمن ٣ ـ ٤.

هذه اللغات في العربية كما يقول برجشتراسر وأشار إليه المستشرق كرنكو ونقله المستشرق بلاشير[١].

٢ـ **الفرقان**: وقد ذكر في سبعة مواضع من الكتاب العزيز:

﴿**وإذ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[٢].

أو شبهها الآية ٤٨ من سورة الأنبياء، وواضح أنّ اللفظين لا يشيران إلى الكتاب الكريم (القرآن)، ويستعمل اللفظ بمعناه: ﴿**أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾[٣].

والظاهر أنّ المستعمل فيه هو المعنى العام ﴿**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ**﴾[٤].

والاستعمال هنا لا مخصص له بالقرآن الكريم.

وأمّا قوله: ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ**﴾[٥]. و﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً**﴾[٦]. فلا دلالة فيهما على شيء من ذلك.

تبقى هذه الآية المباركة وهي: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً**﴾[٧].

---

١ ـ مباحث في علوم القرآن: ١٩ ـ ٢٠.

٢ ـ سورة البقرة: ٥٢

٣ ـ سورة البقرة: ١٨٥

٤ ـ سورة آل عمران: ٣ ـ ٤.

٥ ـ سورة الأنفال: ٤١.

٦ ـ سورة الأنفال: ٢٩.

٧ ـ سورة الفرقان: ١.

ويمكننا هنا أن ندعي أنه أشار إلى القرآن بصفته لا باسمه، خصوصاً مع ملاحظة الآيات السابقة.

٣ـ **الذكر**: وقد ذكر في عشرين مورداً. وأهمّ ما يمكن أن يستدلّ به ـ على أنّه اسم للقرآن ـ هو مايلي:

﴿ذَلكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ منَ الآيَات وَالذِّكْر الْحَكيم﴾[١].

﴿أَوَعَجبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ مرتين[٢].

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْه منْ أَجْر إنْ هُوَ إلاَّ ذكْرٌ لِّلْعَالَمين﴾[٣].

﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذي نُزِّلَ عَلَيْه الذِّكْرُ إنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[٤].

﴿إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإنَّا لَهُ لَحَافظُونَ﴾[٥].

﴿... وَأَنزَلْنَا إلَيْكَ الذِّكْرَ...﴾[٦].

﴿وَهَذَا ذكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾[٧].

﴿إنْ هُوَ إلاّ ذكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبينٌ﴾[٨].

﴿وَالْقُرْآن ذي الذِّكْر﴾[٩].

﴿إنْ هُوَ إلاَّ ذكْرٌ لِّلْعَالَمين﴾[١].

---

١ ـ سورة آل عمران: ٥٨.

٢ ـ سورة الأعراف: ٦٣ -٦٩.

٣ ـ سورة يوسف: ١٠٤.

٤ ـ سورة الحجر: ٦.

٥ ـ سورة الحجر: ٩.

٦ ـ سورة النحل: ٤٤.

٧ ـ سورة الأنبياء: ٥٠.

٨ ـ سورة يس: ٦٩.

٩ ـ سورة ص: ١.

ولكن يمكن القول بأنّ المعنى الصفتي هو المقصود، بدليل وصف القرآن به في عبارة ﴿**وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**﴾ وكذلك في قوله ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**﴾.

وكذلك بدليل استعمال الذكر، وذكر الله كثيراً في موارد غير القرآن في الآيات والأحاديث.

٤ـ **التنزيل**: ﴿**تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٢].

ولا يدل هذا على أنّه اسم بل هو إلى الصفتيّة أقرب.

٥ـ **الكتاب**: ورغم أن هذه الكلمة قد وردت في ١١٨ مورداً ـ كما قيل ـ معبرة عن القرآن الكريم إلاّ أنه يمكن القول بأنها لم تكن من الأسماء وان (أل) فيها عهدية تشير إلى القرآن الكريم، وذلك لاستعمالها كثيراً في كتب الأنبياء، بينما لم يستعمل لفظ القرآن في أي منها، ولمجيئها وصفاً للقرآن في بعض الموارد.

ثمّ إنّها معنى عام يبعد أن يكون اسماً لكتاب سماويّ خاص، فالإنجيل والتوراة تسمى بالكتاب ولكن يبقى لها اسمها الخاص.

هذه هي الأسماء التي يمكن أن تدّعى للقرآن الكريم في حين أن الباقي صفاته.

وقد استنتجنا أن الاسم الذي يعتبر علماً له إنّما هو لفظ (القرآن) لا غير.

بقي أن نشير إلى رواية الجاحظ المتقدمة فنقول: إنّ العرب لم يسمّوا كلامهم ديواناً وإنّما سُمّيت لمجموعة من الشعر، وهي مأخوذة من الفارسية كما ينص المنجد[٣]، وهكذا القصيدة والبيت والقافية فإنّها من مختصّات الشعر لا النثر، وكلمات القرآن والآية والسورة والفاصلة مستعملة عندهم ـ قطعاً ـ مع استعمال

١ ـ سورة ص: ٨٧.

٢ ـ سورة الحاقة: ٤٣، والواقعة: ٨.

٣ ـ المنجد: ٢٣٠، مادة (دان).

المشتق منها. نعم، يمكن أن نتردّد في أنّهم سمّوا مجموعة المقالات أو النثر، بهذا أم لا؟

ومع هذا، لا يبقى أثر لكلامه هذا، مع أنّ عبارة الفاصلة لم تأت في القرآن حتى يقال سمّى الله جزءاً من كتابه بها.

اما الروايتان اللّتان مرّتا عن تسميته بالمصحف عند جمعه على يد أبي بكر والتي أخذها البعض وأرسلها إرسال المسلّمات فيمكن أن نلاحظ فيها:

١. لا معنى مطلقاً للاختلاف على تسمية ما ذكره القرآن نفسه من التسمية، وهكذا أحاديث حفظ القرآن وتلاوته وغيرها.

٢. إنّه لم يثبت أنه جمع على عهد أبي بكر بل ثبت جمعه في عصر الرسول صلى الله عليه وآله.

٣. تبقى أيضاً فيه علامات استفهام أخرى مثل:

أ) لماذا رفضوا تلك التسميات وكرهوها ولم يكرهوا تسميته باسم كتاب ذكره ابن مسعود في الحبشة؟

ب) ما هو مقدار سند الرواية من الاعتبار؟ والذي يبدو أنّه مرسل.

فضل القرآن

١ ـ فضل التمسك به

قال تعالى في فضل القرآن: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾[١].

وقال أيضا: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾[٢].

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: لا خير في العيش إلاّ لمستمع واعٍ أو عالم ناطق. أيّها الناس، إنّكم في زمان هدنةٍ، وإنّ السير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار يبليان

١ ـ سورة الحجر: ٨٧

٢ ـ سورة القمر: ١٧.

كلّ جديد، ويقرّبان كلّ بعيد، ويأتيان بكلّ موعود، فأعدّوا الجهاد لبعد المضمار.

فقال المقداد: يا نبيّ الله! ما الهدنة؟

قال: بلاء وانقطاع، فإذا التبست الأُمور عليكم كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفّع، وماحِل مصدّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، وهو الدليل إلى خير سبيل، وهو الفصل ليس بالهزل، له ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم عميق، بحره لا تحصى عجائبه، ولا يشبع منه علماؤه، وهو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم... فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودالّ على الحجة[١].

وقال الحارث الأعور: دخلت على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقلت: يا أمير المؤمنين! إنّا إذا كنّا عندك سمعنا الذي نسدّ (نشدّ ـ خ ل) به ديننا، وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة مغموسة، لا ندري ما هي ؟ قال: أوقد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: أتاني جبرائيل فقال: يا محمّد؛ سيكون في أُمتك فتنة، قلت: فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله، فيه بيان ما قبلكم من خبر، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم[٢].

ولمّا قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله : أُمتك ستفتن، فسئل ما المخرج من ذلك؟ فقال: كتاب الله العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، من ابتغى العلم في غيره أضلّه الله[٣].

وعن الإمام عليّ عليه السلام في صفة القرآن: جعله الله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب

١ ـ كنز العمال: ح٤٠٢٧، راجع بحار الأنوار ٩٢: ١٧، و ٧٧: ١٣٤ ـ ١٣٥.
٢ ـ تفسير العياشي ١: ٢ ـ ٣.
٣ ـ تفسير العياشي ١: ٦، راجع تمام الحديث.

الفقهاء، ومحاجَّ لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة[١].

وعنه عليه السلام: اعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ، والهادي الذي لا يُضلّ، والمحدّث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلاّ قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدىً، أو نقصان من عمىً[٢].

وعنه عليه السلام: إنّ الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره[٣].

وعنه عليه السلام: فالقرآن آمرزاجر، وصامت ناطق، حُجّة الله على خلقه، أخذ عليه ميثاقهم، وارتهن عليهم أنفسهم[٤].

وعنه عليه السلام: أفضل الذكر القرآن، به تشرح الصدور، وتستنير السرائر[٥].

وعنه عليه السلام: فتجلّى لهم سبحانه في كتابه من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته[٦].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: لو مات مَن بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي[٧].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: من لم يعرف الحقّ من القرآن لم يتنكّب الفتن[٨].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: القرآن أفضل الهدايتين[٩].

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٩٨ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٩٩.
٢ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٨.
٣ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ٣١.
٤ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٨٣ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١١٥.
٥ ـ غرر الحكم: ٣٢٥٥.
٦ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ١٠٢.
٧ ـ الكافي٢: ٦٠٢ و ١٣.
٨ ـ المحاسن ١: ٣٤١ و ٧٠٢.
٩ ـ غرر الحكم: ١٦٦٤.

وعنه عليه السلام: الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم[١].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: كلامي لا ينسخ كلام الله، وكلام الله ينسخ كلامي، وكلام الله ينسخ بعضه بعضاً[٢].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله[٣].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ القرآن ليصدّق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض[٤].

٢ ـ هو إمام ورحمة

قال تعالى: ﴿**وَمِن قَبْلِه كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ**﴾[٥].

وقال: ﴿**أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً**﴾[٦].

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالقرآن، فاتّخذوه إماماً وقائداً[٧].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: إنّه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء أخفى من الحقّ، ولا أظهر من الباطل... فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم،

١ ـ نهج البلاغة: الكتاب ٤٧.
٢ ـ كنز العمال ح٢٩٦١.
٣ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٣٣.
٤ ـ كنز العمال: ح٢٨٦١.
٥ ـ سورة الأحقاف: ١٢.
٦ ـ سورة هود: ١٧.
٧ ـ كنز العمال: ح٤٠٢٩.

ومعهم وليسا معهم؛ لأنّ الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا، فاجتمع القوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلاّ اسمه، ولا يعرفون إلاّ خطّه وزبره[١].

٣ ـ هو أحسن الحديث

قال تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ**﴾[٢].

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمّد صلى الله عليه وآله، وشرّ الأُمور محدثاتها[٣].

وعن الإمام علي عليه السلام: تعلّموا كتاب الله تبارك وتعالى فإنّه أحسن الحديث وأبلغ الموعظة، وتفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنّه شفاء لما في الصدر، وأحسنوا تلاوته فإنّه أحسن القصص[٤].

٤ ـ هو جديد دائماً

وعن الإمام عليّ عليه السلام: لا تُخلقه كثرة الردّ وولوج السمع[٥].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: لمّا سئل مابال القرآن لايزداد على النشر والدرس إلاّ غضاضة؟ قال: لأنّ الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولالناس دون ناس، فهو في كلّ زمان جديد، وعند كلّ قوم غضّ إلى يوم القيامة[٦].

---

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧.

٢ ـ سورة الزمر: ٢٣.

٣ ـ بحار الأنوار ٧٧: ١٧٥ و ١٩٤.

٤ ـ تحف العقول: ١٥٠.

٥ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٥٦ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٢٠٣.

٦ ـ بحار الأنوار ٩٢: ١٥ ح٨ عن يعقوب بن السكّيت النحوي قال: سألت أبا الحسن الثالث(عليه السلام): ما بال القرآن ـ وذكر نحوه ـ البحار ٩٢: ١٥ ح٩.

وعن الإمام الرضا عليه السلام: في صفة القرآن: هو حبل الله المتين، وعروته الوثقى، طريقته المثلى، المؤدّي إلى الجنّة، والمنجي من النار، لايخلق على الأزمنة، ولايغثّ على الألسنة؛ لأنّه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان، والحجّة على كلّ إنسان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد[١].

٥ ـ هو شفاءٌ من أكبر الداء

قال تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا**﴾[٢].

وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾[٣].

وقال: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾[٤].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: القرآن هو الدواء[٥].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: إنّ فيه شفاءٌ من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق، والغيّ والضلال[٦].

---

١ ـ عيون أخبار الرضا(عليه السلام) ٢: ١٣٠ح ٩.
٢ ـ سورة الإسراء: ٨٢.
٣ ـ سورة يونس: ٥٧.
٤ ـ سورة فصّلت: ٤٤.
٥ ـ كنز العمال: ح ٢٣١٠.
٦ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٩.

وعن الإمام الحسن عليه السلام: إنّ هذا القرآن فيه مصابيح النور وشفاء الصدور، فليُجل جال بضوئه، وليلجم الصفة، فإنّ التلقين[١]. حياة القلب البصير كما يمشى المستنير في الظلمات بالنور[٢].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: عليكم بكتاب الله، فإنّه الحبل المتين، والنور المبين والشفاء النافع... من قال به صدق، ومن عمل به سبق[٣].

٦ ـ هو غنىً لا غنىً دونه

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: القرآن غنىً لا غنىً دونه، ولا فقر بعده[٤].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: اعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنىً، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم[٥].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: من أُعطي القرآن فظنَّ أنّ أحداً أُعطي أكثر ممّا أُعطي فقد عظّم صغيراً وصغّر كبيراً[٦].

٧ ـ ما فيه من العلوم والأخبار

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: من أراد علم الأوّلين والآخرين فليقرأ القرآن[٧].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: في القرآن نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم[٨].

---

١ ـ كذا، وفي المصدر: «وليلجم الصفة قلبه، فإن التفكير حياة القلب البصير» والصواب كما في الكافي ٢: ٥٩٩ «فليجل جال بصره، وليبلغ الصفة نظره، فإنّ التفكّر حياة قلب البصير». كما في هامش بحار الأنوار.

٢ ـ بحار الأنوار ٧٨: ١١٢ ح٦.

٣ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٥٦ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٢٠٣.

٤ ـ بحار الأنوار ٩٢: ١٩ ح١٧.

٥ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٠: ١٨.

٦ ـ معاني الأخبار: ٢٧٩.

٧ ـ كنز العمال: ح٢٤٥٤.

٨ ـ نهج البلاغة: الحكمة ٣١٣ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩: ٢٢٠.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: فيه خبركم وخبر من قبلكم وخبر من بعدكم وخبر السماء والأرض، ولو أتاكم من يخبركم عن ذلك لتعجّبتم[١].

وعنه عليه السلام: ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله عزّ وجلّ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال[٢].

١ ـ الكافي ٢: ٥٩٩ ح ٣ و ١: ٦٠ ح ٦.

٢ ـ الكافي ٢: ٥٩٩، ٣ و ١: ٦٠ ح ٦ راجع هذا البحث عن القرآن في ميزان الحكمة ٣: ٢٥١٥ ـ ٢٥٣٦.

الفصل الثاني:
تاريخ القرآن

نزوله على النبيّ صلى الله عليه وآله مرّتين

وفي رأي عدد من العلماء[1]، أنّ القرآن الكريم نزل على النبيّ مرّتين: إحداهما نزل فيها مرّة واحدة على سبيل الإجمال، والمرة الأُخرى نزل فيها تدريجاً على سبيل التفصيل، خلال المدة التي قضاها النبيّ في أُمته منذ بعثته إلى وفاته.

ومعنى نزوله على سبيل الإجمال هو نزول المعارف الإلهية التي يشتمل عليها القرآن وأسراره الكبرى على قلب النبيّ صلى الله عليه وآله لكي تمتلئ روح النبيّ بنور المعرفة القرآنية.

ومعنى نزوله على سبيل التفصيل، هو نزوله بألفاظه المحدودة وآياته المتعاقبة.

---

١ ـ هناك الكثير من الآراء في هذا المجال، وصل بها الشيخ هادي معرفة إلى خمسة، والرأي الذي اشرنا إليه هو مذهب الكثير من العلماء، وناقشه آخرون. انظر: تلخيص التمهيد ١: ٦٣ ـ ٧٥.

وكان إنزاله على سبيل الإجمال مرّة واحدة؛ لأن الهدف منه تنوير النبيّ وتثقيف الله له بالرسالة التي أعدّه لحملها. وكان إنزاله على سبيل التفصيل تدريجياً؛ لأنه يستهدف تربية الأُمّة وتنويرها وترويضها على الرسالة الجديدة، وهذا يحتاج إلى التدرج. وعلى ضوء هذه النظرية في تعدّد نزول القرآن، يمكننا أن نفهم الآيات الكريمة الدالّة على نزول القرآن في شهر رمضان أو إنزاله في ليلة القدر بصورة خاصّة، نحو قوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾[١].

وقوله: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾[٢]. وقوله: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**﴾[٣].

فإن الإنزال الذي تتحدّث عنه هذه الآيات ليس هو التنزيل التدريجي الذي طال أكثر من عقدين، وإنّما هو الإنزال مرّة واحدة على سبيل الإجمال.

كما أنّ فكرة تعدّد الإنزال بالصورة التي شرحناها، تفسّر لنا أيضاً المرحلتين اللتين أشار إليهما القرآن الكريم في قوله: ﴿**... كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[٤]؛ فإنّ هذا القول يشير إلى مرحلتين في وجود القرآن، أُولاهما إحكام الآيات، والمرحلة الثانية تفصيلها، وهو ينسجم مع فكرة تعدّد الإنزال، فيكون الإنزال مرّة واحدة على سبيل الإجمال هي مرحلة الإحكام، والإنزال على سبيل التدريج هي المرحلة الثانية، أي مرحلة التفصيل.

---

١ ـ سورة البقرة: ١٨٥.

٢ ـ سورة القدر: ١.

٣ ـ سورة الدخان: ٣.

٤ ـ سورة هود: ١.

التدرّج في التنزيل

استمرّ التنزيل التدريجي للقرآن الكريم طيلة ثلاث وعشرين سنة، وهي المدّة التي قضاها النبيّ ﷺ في أُمّته منذ بعثته إلى وفاته، فقد بُعث ﷺ لأربعين سنة، ومكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحى إليه، ثمّ هاجر إلى المدينة وظلّ فيها عشر سنين، والقرآن يتعاقب ويتواتر عليه، حتى مات وهو في الثالثة والستين من عمره الشريف.

وقد امتاز القرآن عن الكتب السماويّة السابقة عليه بإنزاله تدريجاً، وكان لهذا التدرّج في إنزاله أثر كبير في تحقيق أهدافه، وإنجاح الدعوة وبناء الأُمّة، كما أنّه كان آية من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، ويتضح كلّ ذلك في النقاط التالية:

١ ـ مرّت على النبيّ ﷺ والدعوة حالات مختلفة جدّاً خلال ثلاث وعشرين سنة، تبعاً لما مرّت به الدعوة من محن ومن شدائد وما أحرزته من انتصار وسجّلته من تقدّم، وهي حالات يتفاعل معها الإنسان الاعتيادي، وتنعكس على روحه وأقواله وأفعاله، ويتأثّر بأسبابها وظروفها والعوامل المؤثرة فيها. ولكنّ القرآن الذي واكب تلك السنين بمختلف حالاتها في الضعف والقوّة، في العسر واليسر، في لحظات الهزيمة ولحظات الانتصار، والتنزيل تدريجاً خلال تلك الأعوام كان يسير دائماً على خطّه الرفيع، لم ينعكس عليه أيّ لون من ألوان الانفعال البشري الذي تثيره تلك الحالات. وهذا من مظاهر الإعجاز في القرآن، التي تبرهن على تنزيله من لدن عليّ حكيم. ولم يكن القرآن ليحصل على هذا البرهان، لولا إنزاله تدريجاً في ظروف مختلفة وأحوال متعدّدة.

٢ ـ إنّ القرآن بتنزيله تدريجاً، كان إمداداً معنويّاً مستمراً للنبيّ ﷺ، كما قال

الله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْه الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحدَةً كَذَلكَ لنُثَبِّتَ به فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتيلاً**﴾[١]، فإنّ الوحي إذا كان يتجدّد في كلّ حادثة كان أقوى للقلب وأشدّ عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك نزول الملك إليه وتجدّد العهد به وتقوية أمله في النصر، واستهانته بما يستجدّ ويتعاقب من محن ومشاكل.

ولهذا نجد أنّ القرآن ينزل مسلّياً للنبيّ مرّةً بعد مرّة مهوّناً عليه الشدائد، كلما وقع في محنة، يأمره تارةً بالصبر أمراً صريحاً، فيقول: ﴿**وَاصْبرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَميلاً**﴾[٢]، وينهاه تارةً أُخرى عن الحزن، كما في قوله: ﴿**وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إنَّ الْعزَّةَ للّه جَميعًا**﴾ ويذكّره بسيرة الأنبياء الذين تقدّموه من أُولي العزم، فيقول: ﴿**فَاصْبرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ منَ الرُّسُلِ**﴾[٣]، ويخفّف عنه أحياناً ويُعلمه أنّ الكافرين لا يجرحون شخصه ولا يتّهمونه بالكذب لذاته، وإنّما يعاندون الحق بغياً كما هو شأن الجاحدين في كلّ عصر، كما في قوله: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إنَّهُ ليَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُونَ فَإنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكنَّ الظَّالمينَ بآيَات اللّه يَجْحَدُونَ**﴾[٤].

٣ ـ إنّ القرآن الكريم ليس كتاباً كسائر الكتب التي تؤلّف للتعليم والبحث العلمي، وإنّما هو عملية تغيير الإنسان تغييراً شاملاً كاملاً في عقله وروحه وإرادته، وصنع أُمّة وبناء حضارة. وهذا الأمل لا يمكن أن يوجد مرة واحدة،

١ ـ سورة الفرقان: ٣٢.
٢ ـ سورة المزمل: ١٠.
٣ ـ سورة الاحقاف: ٣٥.
٤ ـ سورة الأنعام: ٣٣.

وإنّما هو عمل تدريجي بطبيعته. ولهذا كان من الضروري أن ينزل القرآن الكريم تدريجاً ليُحكم عليه البناء، وينشئ أساساً بعد أساس، ويجتثّ جذور الجاهلية ورواسبها بأناة وحكمة.

وعلى أساس هذه الأناة والحكمة في عملية التغيير والبناء، نجد الإسلام تدرّج في علاج القضايا العميقة بجذورها في نفس الفرد أو نفس المجتمع، وقاوم بعضها على مراحل، حتّى استطاع أنّ يستأصلها ويجتذّ جذورها. وقصّة تحريم الخمر وتدرّج القرآن في الإعلان عنها من أمثلة ذلك[1]. فلو أنّ القرآن نزل جملة واحدة بكلّ أحكامه ومعطياته الجديدة لنفر الناس منه، ولما استطاع أنّ يحقق الانقلاب العظيم الذي أنجزه في التاريخ.

أسباب النزول

معنى سبب النزول

نزل القرآن الكريم لهداية الناس وتنوير أفكارهم وتربية أرواحهم وعقولهم، وكان في نفس الوقت يحدّد الحلول الصحيحة للمشاكل التي تتعاقب على الدعوة في مختلف مراحلها، ويجيب على ما هو جدير بالجواب من الأسئلة التي يتلقّاها النبيّ من المؤمنين أو غيرهم، ويعلّق على جملة من الأحداث والوقائع التي كانت تقع في حياة الناس تعليقاً يوضح فيه موقف الرسالة من تلك الأحداث والوقائع.

وعلى هذا الأساس، كانت آيات القرآن الكريم تنقسم قسمين: أحدهما الآيات التي نزلت لأجل الهداية والتربية والتنوير دون وقوع سبب معين ـ في

١ ـ انظر: الميزان في تفسير القرآن ٦: ١١٦ ـ ١٢٥.

عصر الوحي ـ أثار نزولها، كالآيات التي تصوّر قيام الساعة ومشاهد القيامة وأحوال النعيم والعذاب.

فإنّ الله تعالى أنزل هذه الآيات لهداية الناس من غير أن تكون إجابة عن سؤال أو حلاً لمشكلة أو تعليقاً على حادثة معاصرة.

والقسم الآخر، الآيات التي نزلت بسبب مثير وقع في عصر الوحي واقتضى نزول القرآن فيه، كمشكلة تعرض لها النبيّ والدعوة وتطلّبت حلاً أو سؤالاً استدعى الجواب عنه أو واقعة كان لابدّ من التعليق عليها، وتسمّى هذه الأسباب التي استدعت نزول القرآن بـ«أسباب النزول».

فأسباب النزول هي أُمور وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول الوحي بشأنها. وذلك من قبيل ما وقع من بناء المنافقين لمسجد ضرار بقصد الفتنة، فقد كانت هذه المحاولة من المنافقين مشكلة تعرّضت لها الدعوة وأثارت نزول الوحي بشأنها، إذ جاء قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[١]. إلى آخـر الآية[٢].

وكذلك سؤال بعض أهل الكتاب ـ مثلاً ـ عن الروح من النبيّ، قد اقتضت الحكمة الإلهية أن يجاب عنه في القرآن فنزل قوله تعالى: ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[٣]، وبهذا أصبح ذلك السؤال من أسباب النزول[٤].

---

١ ـ سورة التوبة: ١٠٧.

٢ ـ انظر: تفسير القمي ١: ٣٠٥.

٣ ـ سورة الإسراء: ٨٥

٤ ـ انظر: التبيان (الطوسي) ٦: ٥١٥ ـ ٥١٦.

وكذلك أيضاً ما وقع من بعض علماء اليهود، إذ سألهم مشركو مكّة: من أهدى سبيلاً محمّد وأصحابه أم نحن؟

فتملّقوا عواطفهم وقالوا لهم: أنتم أهدى سبيلاً من محمّد وأصحابه، مع علمهم بما في كتابهم من نعت النبيّ المنطبق عليه، وأخذ المواثيق عليهم أن لا يكتموه. فكانت هذه واقعة مثيرة أدّت ـ على ما جاء في بعض الروايات ـ إلى نزول قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً**﴾[1][2].

فهذه قضايا وقعت في عصر الوحي، وكانت داعية إلى نزول الوحي بشأنها، فكانت لأجل ذلك من أسباب النزول.

ويلاحظ ـ في ضوء ما قدّمناه من تعريف لأسباب النزول ـ أنّ أحداث الأُمم الماضية التي يستعرضها القرآن الكريم ليست من أسباب النزول؛ لأنّها قضايا تاريخيّة سابقة على عصر الوحي، لا أُمور وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول القرآن بشأنها، فلا يمكن أنّ نعتبر حياة يوسف وتآمر إخوته عليه ونجاته وتمكّنه منهم سبباً لنزول سورة يوسف، وهكذا سائر المقاطع القرآنية التي تتحدّث عن الأنبياء الماضين وأُممهم، فإنّها في الغالب تندرج في القسم الأول من القرآن الذي نزل بصورة ابتدائية، ولم يرتبط بأسباب نزول معيّنة[3].

---

١ ـ سورة النساء: ٥١.

٢ ـ الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٦٣ ـ ٣٦٧.

٣ ـ أطلق البعض على هذا الصنف من علل لنزول الآيات (شأن النزول) ويلخص الشيخ هادي معرفة الفرق بين شأن النزول وسبب النزول بقوله: "وعليه، فالفارق بين السبب والشأن ـ اصطلاحاً ـ أنّ الأول يعني مشكلة حاضرة لحادثة عارضة. والثاني مشكلة أمر واقع، سواء كانت حاضرة أم غابرة. وهذا اصطلاح ولا مشاحّة فيه" تلخيص التمهيد ١: ١١٣، أي أنه يرى الشأن أعم من السبب، على أن عدداً غير قليل من علماء القرآن يساوي بين معناهما دون تفريق في الاطلاق بينهما.

الفائدة في معرفته

ولمعرفة أسباب النزول أثر كبير في فهم الآية، والتعرّف على أسرار التعبير فيها؛ لأنّ النص القرآني المرتبط بسبب معيّن للنزول تجيء صياغته وطريقة التعبير فيه وفقاً لما يقتضيه ذلك السبب، فما لم يعرف ويحدّد قد تبقى أسرار الصياغة والتعبير غامضة.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَآئِرِ اللّه فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أو اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾[1] فإنّ الآية ركّزت على نفي الإثم والحرمة عن السعي بين الصفا والمروة دون أن تصرّح بوجوب ذلك، فلماذا اكتفت بنفي الحرمة دون أنّ تعلن وجوب السعي؟

إنّ الجواب على هذا السؤال، يمكن معرفته عن طريق ما ورد في سبب نزول الآية، من أنّ بعض الصحابة تأثّموا من السعي بين الصفا والمروة؛ لأنّه من عمل الجاهليّة، فنزلت الآية الكريمة، فهي إذن بصدد نفي هذه الفكرة من أذهان الصحابة والإعلان عن أنّ الصفا والمروة من شعائر الله، وليس السعي بينهما من مخلّفات الجاهليّة ومفترياتها. وقد أدّى الجهل بمعرفة سبب النزول في هذه الآية عند البعض إلى فهم خاطئ في تفسيرها؛ إذ اعتبر اتّجاه الآية نحو نفي الإثم بدلاً عن التصريح بالوجوب دليلاً على أنّ السعي ليس واجباً وإنّما هو أمر سائغ؛ إذ لو كان واجباً لكان الأجدر بالآية أن تعلن وجوبه بدلاً عن مجرّد نفي الإثم، ولو كان يعلم سبب النزول والهدف المباشر الذي نزلت الآية لتحقيقه ـ وهو إزالة فكرة التأثّم من أذهان الصحابة ـ لعرف السرّ في طريقة التعبير والسبب[2].

---

١ ـ سورة البقرة: ١٥٨.

٢ ـ انظر: فقه القرآن (القطب الراوندي) ١: ٢٧٤ ـ ٢٧٧.

تعدّد الأسباب والمنزل واحد وبالعكس

قد يتّفق وقوع عدة أشياء في عصر الوحي، كلّها تتّفق في إشارة واحدة وتستدعي نزول القرآن بشأنها، كما إذا تكرّر السؤال ـ من النبيّ مثلاً ـ عن مشكلة واحدة فإنّ كلّ سؤال يقتضي نزول الوحي بجوابه، ويقال في هذه الحالة: إنّ الأسباب متعدّدة والمنزل واحد.

ومن هذا القبيل، ما يروى من أنّ النبيّ سئل مرّتين عمّن وجد مع زوجته رجلاً، كيف يصنع؟ سأله عاصم بن عدي مرة، وسأله عويمر مرة أُخرى، واتّفق في مرة ثالثة أنّ هلال بن أُميه قذف امرأته عند النبيّ بشريك بن سمحاء[1]، فكانت هذه أسباباً متعدّدة تستدعي نزول الوحي لتوضيح موقف الزوج من زوجته إذا اطّلع على خيانتها، وما إذا كان من الجائز له أنّ يقذفها ويتّهمها بدون بيّنة أو لا يجوز له ذلك إلاّ ببيّنة، فإن اتّهم بدون بيّنة استحق حدّ القذف، كما هو شأن غير الزوج إذا قذف امرأة أُخرى، ولأجل ذلك نزل قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لهمْ شُهَدَاء إلاّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾[2]، فكان السبب متعدّداً والمنزل واحد. وفي حالة تعدّد السبب، قد يوجد فاصل زمني كبير بين أحد السببين والآخر، فيؤدّي السبب الأول إلى نزول الآية فعلاً، ثم يتجدّد نزولها حينما يوجد السبب الثاني بعد ذلك بمدّة، فيكون السبب متعدّداً والنزول متعدّداً وإن كانت الآية النازلة في المرتين واحدة، ويقال إنّ سورة الإخلاص من هذا القبيل؛ إذ نزلت مرّتين، إحداهما بمكّة جواباً للمشركين من أهلها ، والأُخرى بالمدينة جواباً لأهل

١ ـ انظر: بحار الأنوار ٢٢: ٦٨ ـ ٦٩ ح١٦.
٢ ـ سورة النور: ٦.

الكتاب الذين جاورهم النبيّ ﷺ بعد الهجرة[١]. وكما يتعدّد السبب والنزول واحد، كذلك قد يتّفق كون السبب واحداً لآيات متفرّقة. فقد روي[٢]:

أنّ أُمّ سلمة قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله! لا أسمع الله ذكرالنساء في الهجرة بشيء، فنزل قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أوأُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ**﴾[٣].

ونزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ...**﴾[٤]. إلى آخر الآية، فهاتان آيتان متفرّقتان نزلتا بسبب واحد أُدرجت إحداهما في سورة آل عمران، والأُخرى في سورة الأحزاب، وبذلك كان السبب في النزول واحداً وهو حديث أمّ سلمة مع النبيّ، والمنزل متعدد.

وعلى هذا الأساس، يجب أن لا نسارع إلى الحكم بالتعارض بين روايتين تتحدّثان عن أسباب النزول، إذا ذكرت كلٌّ منهما سبباً لنزول آية يغاير السبب الذي ذكرته الرواية الأُخرى لنزول نفس تلك الآية أو إذا تحدّثت الروايتان عن سبب واحد، فذكرت كلّ منها نزول آية بذلك السبب غير الآية التي ربطتها الرواية الأُخرى به؛ لأنّ من الممكن فهم الاختلاف بين الروايتين والتوفيق بينهما

١ ـ انظر: لباب النقول (السيوطي): ٢٣٨.
٢ ـ الاتقان في علوم القرآن ١: ٩٩.
٣ ـ سورة آل عمران: ١٩٥.
٤ ـ سورة الأحزاب: ٣٥.

على أساس إمكان تعدّد سبب النزول لآية واحدة أو تعدّد الآيات النازلة بسبب واحد، فلا يوجد بين الروايتين تعارض على هذا الأساس.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

إذا نزلت الآية بسبب خاص وكان اللفظ فيها عاماً ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يتقيد بالمدلول القرآني في نطاق السبب الخاص للنزول أو الواقعة التي نزلت الآية بشأنها، بل يؤخذ به على عمومه؛ لأنّ سبب النزول يقوم بدور الإشارة لا التخصيص.وقد جرت عادة القرآن، أن ينزل أحكامه وتعليماته وإرشاداته على أثر وقائع وأحداث تقع في حياة الناس وتتطلّب حكماً وتعليماً من الله، لكي يجيء البيان القرآني أبلغ تأثيراً وأشدّ أهمية في نظر المسلمين، وإن كان مضمونه عامّاً شاملاً. فآية اللّعان ـ مثلاً ـ تشرح حكماً شرعياً عامّاً لكل زوج يتّهم زوجته بالخيانة و إن نزلت في شأن هلال بن أُميّة[1]، و آية الظهار عامّة و إن كان نزولها بسبب أوس بن الصامت[2].

وعلى هذا الأساس، اتّفق علماء الأُصول على أنّ المتّبع هو مدى عموم النص القرآني وشمول اللفظ فيه، وأنّ سبب النزول مجرّد سبب مثير لنزول الحكم العام وليس تحديداً له في نطاقه الخاص؛ لأنّ مجرّد نزول حكم اللعان عقيب قصّة هلال بن أُمية ـ مثلاً ـ لا يدل إطلاقاً على أنّ الحكم يختص به، ولا يبطل عموم اللفظ وشمول النص لسائر الأزواج[3].

---

١ ـ مسند أحمد ١: ٢٣٨، عوالي اللآلي ٣: ٤١١.

٢ ـ انظر: سنن أبي داود ١: ٤٩٤ ح ٢٢١٤.

٣ ـ اشتهر استدلال الأصوليين بهذه القاعدة، انظر: هداية المسترشدين ٣: ٣٣٨ و٤٤٩، درر الفوائد ١: ٢٣٤، افاضة العوائد ١: ٣٧٠.

وقد جاءت نصوص عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، تعزّز هذا المعنى وتؤيّده، ففي تفسير العيّاشي عن الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ القرآن حيّ لا يموت والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين»[١].

وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ القرآن حيّ لم يمت وأنّه يجري كما يجري الليل والنهار وكما يجري الشمس والقمر ويجري على آخرنا كما يجري على أوّلنا، فلا تكوننّ ممّن يقول للشيء إنّه في شيء واحد»[٢].

ومما جاء في القرآن عن الإمام علي[٣] قوله عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه» ولعله يريد منا التفاعل الوجداني مع القرآن إلى الحد الذي يتحدث فيه مع قارئه أو يريد أن نتأمل فيه حتى نستفيد في كل آن وزمان ما يتناسب مع زماننا ومشاكلنا ويمنحنا الحل المناسب من تجريد النص من ظروفه الخاصة، لكي يتحول إلى رؤية تاريخية تتناسب مع خلوده وجريانه كما تجري الشمس والقمر: وقد جاء بعد ذلك قوله عليه السلام: «ألا إن فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم ونظم ما بينكم» وقد عبر الشهيد الصدر بانه التفسير الموضوعي[٤].

١ ـ بحار الأنوار ٣٥: ٤٠٣ ـ ٤٠٤.
٢ ـ راجع: بحار الأنوار ٢: ٢٧٩ و ٧٤: ١٣٠.
٣ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨ ص ٢٢٣.
٤ ـ المدرسة القرآنية: ٣٠.

الفصل الثالث:
في المكّيّ والمدنيّ[1]

معنى المكّيّ والمدنّي:

يُقسَّم القرآن في عرف علماء التفسير إلى مكّيّ ومدنيّ، فبعض آياته مكّيّة وبعض آياته مدنيّة.

الاتجاهات في تفسير المكّيّ والمدنيّ

توجد اتّجاهات عديدة لتفسير هذا المصطلح[2].

أحدها: الاتجاه السائد وهو تفسيره على أساس الترتيب الزماني للآيات،

---

١ ـ هذا البحث كتبه الإمام الشهيد الصدر ونقله آية الله السيد محمّد باقر الحكيم في كتابه (علوم القرآن): ٧٣ ـ ٩٧، ويرى مؤلف هذا الكتاب كفاية ما كتبه استاذه للعرض في هذا الكتاب مع بعض الملاحظات التكميلية.

٢ ـ انظر: تلخيص التمهيد ١: ٨٥ ـ ٨٧.

واعتبار الهجرة حدّاً زمينياً فاصلاً بين مرحلتين، فكلّ آية نزلت قبل الهجرة تعتبر مكّيّة، وكلّ آية نزلت بعدالهجرة فهي مدنيّة وإن كان مكان نزولها مكّة، كالآيات التي نزلت على النبيّ ﷺ حين كان في مكّة وقت الفتح. فالمقياس هو الناحية الزمنيّة لا المكانيّة.

والاتجاه الآخر: هو الأخذ بالناحية المكانيّة مقياساً للتمييز بين المكّيّ والمدنيّ، فكلّ آية يلاحظ مكان نزولها، فإن كان النبيّ ﷺ حين نزولها في مكّة سُمّيت مكّيّة، وإن كان حين ذلك في المدينة سُمّيت مدنيّة.

والاتّجاه الثالث: يقوم على أساس مراعاة الأشخاص المخاطبين، فهو يعتبر أنّ المكّيّ ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

ويمتاز الاتّجاه الأول عن الاتّجاهين الأخيرين بشمول المكّيّ والمدنيّ لجميع آيات القرآن؛ لأنّنا إذا أخذنا بالناحية الزمنيّة كانت كلّ آية في القرآن إمّا مكّيّة وإمّا مدنيّة؛ لأنّها إذا كانت نازلة قبل هجرة النبيّ إلى المدينة ودخوله إليها فهي مكّيّة، وإن نزلت على النبيّ في طريقه من مكّة إلى المدينة، وإذا كانت نازلة بعد دخول المدينة مهاجراً إلى المدينة فهي مدنيّة مهما كان مكان نزولها.

وأمّا على الاتّجاهين الأخيرين في تفسير المصطلح فقد تجد آية ليست مكّيّة ولا مدنيّة كما إذ كان موضع نزولها مكاناً ثالثاً لا مكّة ولا المدينة، ولم تكن خطاباً لأهل مكّة أو أهل المدينة، نظير الآيات التي نزلت على النبيّ ﷺ في معراجه أو إسرائه.

الترجيح بين الاتّجاهات الثلاثة

وإذا أردنا أن تقارن بين هذه الاتجاهات الثلاثة لنختار واحداً منها، فيجب أن نطرح منذ البدء الاتّجاه الثالث؛ لأنّه يقوم على أساس خاطئ وهو الاعتقاد بأنّ من الآيات ما يكون خطاباً لأهل مكّة خاصّة ومنها ما يكون خطاباً لأهل المدينة، وليس هذا بصحيح؛ فإنّ الخطابات القرآنية عامّة وانطباقها حين نزولها على أهل مكّة أو على أهل المدينة لا يعني كونها خطاباً لهم خاصّة أو اختصاص ما تشتمل عليه من توجيه أو نصح أو حكم شرعيّ بهم، بل هي عامّة ما دام اللفظ فيها عامّاً.

والواقع، أنّ لفظ المكّيّ والمدنيّ ليس شرعيّاً حدّد النبيّ مفهومه لكي نحاول اكتشاف ذلك المفهوم، وإنّما هو مجرّد اصطلاح تواضع عليه علماء التفسير، وما من ريب في أنّ كلّ أحد له الحق في أن يصطلح كما يشاء، فلسنا هنا نريد أن نخطّئ الاتّجاه الأول أو الاتّجاه الثاني ما دام لا يعبّر كلّ منهما إلاّ عن اصطلاح من حق أصحاب ذلك الاتّجاه أن يضعوه، ولكنّا نرى أنّ وضع مصطلح المكّيّ والمدنيّ على أساس الترتيب الزمني كما يقرّره الاتّجاه الأول أنفع للدراسات القرآنية؛ لأنّ التمييز من ناحية زمنيّة بين ما أُنزل من القرآن قبل الهجرة وما أنزل بعدها أكثر أهمّية للبحوث القرآنية من التمييز على أساس المكان بين ما أُنزل على النبيّ في مكّة وما أُنزل عليه في المدينة، فكان جعل الزمن أساساً للتمييز بين المكّيّ والمدنيّ واستخدام هذا المصطلح لتحديد الناحية الزمنية أوفق بالهدف.

وتتجلّى أهمّية التمييز الزمنيّ من التمييز المكاني في نقطتين:

إحداهما: فقهيّة، أي أنّها ترتبط بعلم الفقه ومعرفة الأحكام الشرعيّة، وهي أنّ تقسيم الآيات على أساس الزمن إلى مكّيّة ومدنية وتحديد ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعد الهجرة، يساعدنا على معرفة الناسخ والمنسوخ؛ لأنّ الناسخ متأخّر

بطبيعته عن المنسوخ زماناً، فإذا وجدنا حكمين ينسخ أحدهما الآخر استطعنا أن نعرف الناسخ عن طريق التوقيت الزمني فيكون المدني منهما ناسخاً للمكّيّ لأجل تأخّره عنه زماناً.

والأُخرى: هي أنّ التقسيم الزمنيّ للآيات إلى مكّيّة ومدنية، يجعلنا نتعرّف على مراحل الدعوة التي مرّ بها الإسلام على يد النبيّ ﷺ؛ فإنّ الهجرة المباركة ليست مجرّد حادث عابر في حياة الدعوة، وإنّما هي حدّ فاصل بين مرحلتين من عمر الدعوة، وهما مرحلة العمل الفردي ومرحلة العمل الاجتماعي ضمن دولة.

ولئن كان بالإمكان تقسيم كلّ من هاتين المرحلتين بدورهما أيضاً، فمن الواضح على أيّ حال أنّ التقسيم الرئيسي هو التقسيم على أساس الهجرة، فإذا ميّزنا بين الآيات النازلة قبل الهجرة وما أُنزل منها بعد الهجرة استطعنا أن نواكب تطوّرات الدعوة والخصائص العامّة التي تجلّت فيها خلال كلٍّ من المرحلتين.

وأمّا مجرّد أخذ مكان النزول بعين الاعتبار وإهمال عامل الزمن، فهو لا يمدّنا بفكرة عن هاتين المرحلتين ويجعلنا نخلط بينهما، كما يحرمنا من تمييز الناسخ عن المنسوخ من الناحية الفقهية.

فلهذا كلّه نؤثر الاتّجاه الأول في تفسير المكّيّ والمدنيّ، وعلى هذا الأساس سوف نستعمل هذين المصطلحين.

طريقة معرفته من خلال الخصائص

بدأ المفسّرون عند محاولة التمييز بين المكّيّ والمدنيّ بالاعتماد على الروايات والنصوص التاريخية التي تورّخ السورة أو الآية وتشير إلى نزولها قبل الهجرة أو بعدها، وعن طريق تلك الروايات والنصوص التي تتبعها المفسّرون

واستوعبوها، استطاعوا أن يعرفوا عدداً كبيراً من السور والآيات المكّيّة والمدنيّة ويميّزوا بينها.

وبعد أن توفّرت لهم المعرفة بذلك، اتّجه كثير من المفسّرين الذين عنوا بمعرفة المكّيّ والمدنيّ إلى دراسة مقارنة لتلك الآيات والسور المكية والمدنية التي اكتشفوا تاريخها عن طريق النصوص، وخرجوا من دراستهم المقارنة باكتشاف خصائص عامة في السور والآيات المكّية وخصائص عامّة أخرى في المدنيّ من الآيات والسور، فجعلوا من تلك الخصائص العامة مقاييس يقيسون بها سائر الآيات والسور التي لم يؤثر توقيتها الزمني في الروايات والنصوص، فما كان منها يتّفق مع الخصائص العامّة للآيات والسور المكّية حكموا بأنّه مكيّ، وما كان أقرب إلى الخصائص العامّة للمدنيّ وأكثر انسجاماً معها أدرجوه ضمن المدنيّ من الآيات بالسور.

وهذه الخصائص العامة التي حدّدت المكّي والمدنيّ، بعضها يرتبط بأُسلوب الآية والسورة كقولهم: إنّ قصر الآيات والسور وتجانسها الصوتي من خصائص القسم المكيّ، وبعضها يرتبط بموضوع النص القرآني كقولهم ـ مثلاً ـ : إن مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم من خصائص الآيات المكّية.

ويمكن تلخيص ما ذكروه من الخصائص الأُسلوبية والموضوعية للقسم المكّي فيما يأتي:

١ ـ قصر الآيات والسور وإيجازها وتجانسها الصوتي.

٢ ـ الدعوة إلى أُصول الايمان بالله واليوم الآخر وتصوير الجنّة والنار.

٣ ـ الدعوة للتمسك بالأخلاق الكريمة والاستقامة على الخير.

٤ ـ مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.

٥ ـ استعمال السورة لكلمة يا أيّها الناس، وعدم استعمالها لكلمة يا أيّها الذين آمنوا.

وقد لوحظ، أنّ سورة الحج تُستثنى من ذلك؛ لأنّها استعملت الكلمة الأولى بالرغم من أنّها مدنيّة، فهذه الخصائص الخمس يغلب وجودها في السور المكّية.

وأما ما يشيع في القسم المدنيّ من خصائص عامة فهي:

١ ـ طول السورة والآية وإطنابها.

٢ ـ تفصيل البراهين والأدلّة على الحقائق الدينية.

٣ ـ مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلوّ في دينهم.

٤ ـ التحدّث عن المنافقين ومشاكلهم.

٥ ـ التفصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين السياسية والاجتماعية والدولية[1].

موقفنا من هذه الخصائص

وما من ريب في أنّ هذه المقاييس المستمدّة من تلك الخصائص العامة تلقي ضوءاً على الموضوع، وقد تؤدّي إلى ترجيح لأحد الاحتمالين على الآخر في السور التي لم يرد نص بأنّها مكّية أو مدنيّة، فإذا كانت إحدى هذه السور تتفق ـ مثلاً ـ مع السور المكية في أُسلوبها وإيجازها وتجانسها الصوتي وتنديدها بالمشركين وتسفيه أحلامهم فالأرجح أن تكون سورة مكّية؛ لاشتمالها على هذه الخصائص العامة للسورة المكّية.

ولكن الاعتماد على تلك المقاييس إنّما يجوز إذا أدّت إلى العلم، ولا يجوز

١ ـ للمزيد انظر: البرهان (الزركشي) ١: ١٨٧ ـ ١٩١.

الأخذ بها لمجرّد الظن. ففي المثال المتقدّم حين تجد سورة تتّفق مع السور المكّية في أُسلوبها وإيجازها، لا نستطيع أن نقول بأنّها مكّية لأجل ذلك؛ إذ من الممكن أن تنزل سورة مدنيّة وهي تحمل بعض خصائص الأُسلوب الشائع في القسم المكّي. صحيح أنّه يغلب على الظن أنّ السورة مكّيّة لقصرها وإيجازها، ولكنّ الأخذ بالظن لا يجوز؛ لأنّه قول من دون علم.

وأمّا إذا أدّت تلك المقاييس إلى الاطمئنان والتأكّد من تاريخ السورة وأنّها مكّيّة أو مدنيّة؛ فلا بأس بالاعتماد عليها عند ذاك.

ومثاله النصوص القرآنية التي تشتمل على تشريعات للحرب والدولة مثلاً؛ فإنّ هذه الخصيصة الموضوعية تدل على أنّ النص مدنيّ؛ لأنّ طبيعة الدعوة في المرحلة الأولى التي عاشتها قبل الهجرة لا تنسجم إطلاقاً مع التشريعات الدولية، فنعرف من أجل هذا، أنّ النص مدنيّ نزل في المرحلة الثانية من الدعوة أي في عصر الدولة.

شبهة حول المكّي والمدنيّ

لقد كان موضوع المكّي والمدنيّ من جملة الموضوعات القرآنية التي أُثيرت حولها الشبهة والجدل.

وتنطلق الشبهة هنا من أساس هو أنّ الفروق والميزات التي تلاحظ بين القسم المكّي من القرآن الكريم والقسم المدنيّ منه، تدعو في نظر بعض المستشرقين إلى الاعتقاد بأنّ القرآن قد خضع لظروف بشريّة مختلفة اجتماعية وشخصيّة تركت آثارها على أُسلوب القرآن وطريقة عرضه وعلى مادته والموضوعات التي عُني بها.

ويجدر بنا قبل أن ندخل في الحديث عن الشبهات ومناقشتها، أن نلاحظ الأمرين التاليين؛ لما لهما من تأثير في فهم البحث ومعرفة نتائجه.

الأول: أنّه لابدّ لنا أن نفرّق منذ البدء بين فكرة تأثّر القرآن الكريم وانفعاله بالظروف الموضوعية من البيئة وغيرها، بمعنى انطباعه بها، وبين فكرة مراعاة القرآن لهذه الظروف بقصد تأثيره فيها وتطويرها لصالح الدعوة؛ فإنّ الفكرة الأولى تعني في الحقيقة بشريّة القرآن، حيث يفرض القرآن في مستوى الواقع المعاش وجزءً من البيئة الاجتماعية يتأثّر بها كما يؤثّر فيها، بخلاف الفكرة الثانية فإنّها لا تعني شيئاً من ذلك؛ لأنّ طبيعة الموقف القرآني الذي يستهدف التغيير وطبيعة الأهداف والغايات التي يرمي القرآن إلى تحقيقها قد تفرض هذه المراعاة حيث تحدّد الغاية والهدف طبيعة الأُسلوب الذي يجب سلوكه للوصول إليها.

فهناك فرق بين أن تفرض الظروف نفسها على الرسالة، وبين أن تفرض الأهداف والغايات ـ التي ترمي الرسالة إلى تحقيقها من خلال الواقع ـ أسلوبا ومنهجاً للرسالة؛ لأنّ الهدف والغاية ليسا شيئاً منفصلاً عن الرسالة ليكون تأثيرهما عليها تأثيراً مفروضاً من الخارج.

فنحن في الوقت الذي نرفض فيه الفكرة الأُولى بالنسبة إلى القرآن، نجد أنفسنا لا تأبى التمسّك بالفكرة الثانية في تفسير الظواهر القرآنية المختلفة، سواء ما يرتبط منها بالأُسلوب القرآني أو الموضوع والمادة المعروضة فيه.

الثاني: أنّ تفسير وجود الظاهرة القرآنية لابدّ أنّ يعتبر هو المصدر الأساس في جميع الأحكام التي تصدر على محتوى القرآن وأسلوب العرض فيه.

فقد تكون النقطة الواحدة في القرآن الكريم سبباً في إصدار حكمين

مختلفين نتيجة للاختلاف في تفسير أصل وجود القرآن، وسوف نتعرَّف على بعض الأمثال لهذا الاختلاف في الحكم عند البحث عن اشتراط أن ينطلق تفسير القرآن بذهنية إسلامية.

ومن أجل ذلك، فنحن لا نسوّغ لأنفسنا أن نقبل حكماً ما في تفسير نقطة حول القرآن الكريم؛ لمجرّد انسجام هذا الحكم مع تلك النقطة، بل لابدّ لنا أن ننظر أيضاً ـ بشكل مسبق ـ إلى مدى انسجام الحكم مع التفسير الصحيح لوجود الظاهرة القرآنية نفسها.

وقد عرفنا في بحثنا عن الوحي أنّ الظاهرة القرآنية ليست نتاجاً شخصيّاً لمحمّد وبالتالي ليست نتاجاً بشرياً مطلقاً، وإنّما هي نتاج إلهي مرتبط بالسماء. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نجزم بشكل مسبق ببطلان الشبهات التي تثار حول المكّي والمدنيّ؛ لأنّها في الحقيقة تفسيرات لظاهرة الفرق بين المكّي والمدنيّ على أساس أنّ القرآن الكريم نتاج بشري.

وبالأحرى يجب أن يقال: إنّ شبهات المكّيّ والمدنيّ ترتبط في الحقيقة بالشبهات التي أُثيرت حول الوحي ارتباطاً موضوعيّاً؛ لأنّها ترتبط بفكرة إنكار الوحي. ولذا فسوف نناقش هذه الشبهات بعد التحدّث عنها لإيضاح بطلانها من ناحية، وتقديم التفسير الصحيح للفرق بين المكّي المدنيّ بعد ذلك من ناحية ثانية.

الشبهات حولهما

للشبهة حول المكّي والمدنيّ جانبان: جانب يرتبط بالأُسلوب القرآنيّ فيها وجانب آخر يرتبط بالمادة والموضوعات التي عرض القرآن لها في هذين

القسمين. وفي كلٍّ من القسمين تصاغ الشبهة على عدّة أشكال، نذكر منها صياغتين لكلّ واحد من القسمين.

أ) أسلوب المكّيّ يمتاز بالشدّة والعنف والسباب

فقد قالوا: إنّ أسلوب القسم المكّي من القرآن يمتاز عن القسم المدنيّ بطابع الشدّة والعنف بل السباب أيضاً. وهذا يدلّ على تأثّر محمّد بالبيئة التي كان يعيش فيها؛ لأنّها مطبوعة بالغلظة والجهل؛ ولذا يزول هذا الطابع عن القرآن الكريم عندما ينتقل محمّد إلى مجتمع المدينة الذي تأثّر فيه ـ بشكل أو بآخر ـ بحضارة أهل الكتاب وأساليبهم.

وتستشهد الشبهة بعد ذلك لهذه الملاحظة بالسور والآيات المكّية المطبوعة بطابع الوعيد والتهديد والتعنيف، أمثال سورة «المسد» وسورة «العصر» وسورة «التكاثر» وسورة «الفجر» وغير ذلك. ويمكن أن تناقش هذه الشبهة.

أوّلاً: بعدم اختصاص القسم المكّي من القرآن الكريم بطابع الوعيد والإنذار دون القسم المدنيّ، بل يشترك المكّي والمدنيّ بذلك. كما أنّ القسم المدنيّ لا يختص أيضاً ـ كما قد يفهم من الشبهة ـ بالأُسلوب اللّين الهادئ الذي يفيض سماحة وعفواً، بل نجد ذلك في المكّي. والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة. فمن القسم المدنيّ الذي اتّسم بالشدّة والعنف قوله تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ**

١ ـ سورة البقرة: ٢٤.

الشَّيْطَانُ منَ الْمَسِّ﴾[١] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ منَ الرِّبَا إن كُنتُم مُّؤْمنينَ ۞ فَإن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بحَرْبٍ مِّنَ اللّه وَرَسُوله وَإن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالكُمْ لاَ تَظْلمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّه شَيْئًا وَأُولَئكَ هُمْ وَقُودُ النَّار۞ كَدَأْبِ آل فرْعَوْنَ وَالَّذينَ من قَبْلهمْ كَذَّبُواْ بآيَاتنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بذُنُوبهمْ وَاللّهُ شَديدُ الْعقَاب ۞ قُل لِّلَّذينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ وَبئْسَ الْمهَادُ﴾[٣].

كما نجد في القسم المكّي ليناً وسماحة كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دعَا إلى اللَّه وَعَملَ صَالحًا وَقَالَ إنَّني منَ الْمُسْلمينَ ۞ وَلا تَسْتَوي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بالَّتي هيَ أَحْسَنُ فَإذَا الَّذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَليٌّ حَميمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظٍّ عَظيمٍ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيَا وَمَا عندَ اللَّه خَيْرٌ وَأَبْقَى للَّذينَ آمَنُوا وَعَلَى ربِّهمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ وَالَّذينَ يَجْتَنبُونَ كَبَائرَ الإثْمِ وَالْفَوَاحشَ وإذا مَا غَضبُوا هُمْ يَغْفرُونَ ۞ وَالَّذينَ اسْتَجَابُوا لربِّهمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ ۞ وَالَّذينَ إذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصرُونَ ۞ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ

١ ـ سورة البقرة: ٢٧٥.

٢ ـ سورة البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

٣ ـ سورة آل عمران: ١٠ ـ ١٢.

٤ ـ سورة فصلت: ٣٣ ـ ٣٥.

عَلَى اللَّه إِنَّهُ لا يُحبُّ الظَّالمينَ ۞ ولَمَن انتصرَ بَعْدَ ظُلْمه فَأُوْلَئكَ مَا عَلَيْهم مِّن سَبيل ۞ إِنّما السَّبيلُ عَلَى الَّذينَ يَظْلمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ في الأَرْض بغَيْر الْحقِّ أُوْلَئكَ لَهُم عَذَابٌ أَليمٌ ۞ ولَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلكَ لَمنْ عَزْم الأُمُور﴾(١).

وقوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَاني وَالْقُرْآنَ الْعَظيمَ ۞ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى مَا مَتَّعْنَا بِه أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمنين﴾**(٢).

وقوله تعالى: **﴿قُلْ يَا عبَادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسهمْ لا تَقْنَطُوا من رَّحْمَة اللَّه إِنَّ اللَّهَ يَغْفرُ الذُّنُوبَ جَميعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ﴾**(٣).

وثانياً: أنّه ليس في القرآن الكريم سباب وشتم. كيف! وقد نهى القرآن نفسه عن السب والشتم حيث قال تعالى: **﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ من دُونِ اللّه فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ علْمٍ﴾**(٤).

وليس في سورة «المسد» أو «التكاثر» سبّ أو بذاءة ـ كما يحاول المستشرقون أن يقولوا ذلك ـ وإنّما فيهما تحذير ووعيد بالمصير الذي ينتهي إليه أبو لهب والكافرون بالله.

نعم، يوجد في القرآن الكريم تقريع وتأنيب عنيف، وهو موجود في المدنيّ كما هو في المكّي، وإن كان يكثر وجوده في المكّي بالنظر لمراعاة ظروف

١ ـ سورة الشورى: ٣٦ ـ ٤٣.
٢ ـ سورة الحجر: ٨٧ ـ ٨٨.
٣ ـ سورة الزمر: ٥٣.
٤ ـ سورة الأنعام: ١٠٨.

الاضطهاد والقسوة التي كانت تمرّ بها الدعوة، الأمر الذي اقتضى أن يواجه القرآن ذلك بالعنف والتقريع ـ أحياناً ـ لتقوية معنويّات المسلمين من جانب وتحطيم معنويّات المقاومة من جانب آخر، كما سوف نشير إليه قريباً. ومن هذا التقريع في السور المدنيّة قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ...**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ**﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ**﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ**

١ ـ سورة البقرة: ٦– ١٨.
٢ ـ سورة البقرة: ٦١.
٣ ـ سورة البقرة: ٩٠.
٤ ـ سورة البقرة: ١٥.

منَ الَّذينَ كَفَرُواْ وَجَاعلُ الَّذينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذينَ كَفَرُواْ إلى يَوْمِ الْقيَامَة ثُمَّ إلَيَّ مَرْجعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فيمَا كُنتُمْ فيه تَخْتَلفُونَ ۞ فَأَمَّا الَّذينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَديدًا في الدُّنْيَا وَالآخرَة وَمَا لَهُم مِّن نَّاصرينَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بشَرٍّ مِّن ذَلكَ مَثُوبَةً عندَ اللّه مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضبَ عَلَيْه وَجَعَلَ منْهُمُ الْقرَدَةَ وَالْخَنَازيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبيل**﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿**وَقَالَت الْيَهُودُ يَدُ اللّه مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْديهمْ وَلُعنُواْ بمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان**﴾[3].

ب) هذا الأسلوب يمتاز بقصر السور والآيات

وقالوا أيضاً: إنّ من الملاحظ قصر السور والآيات في القسم المكّي، على عكس القسم المدنيّ الذي جاء بشيء من التفصيل والإسهاب. فنحن نجد أنّ السور المكّية جاءت قصيرة ومعروضة بشكل موجز في الوقت الذي نجد في القسم المدنيّ سورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها من السور الطوال. وهذا يدلّ على انقطاع الصلة بين القسم المكّي والقسم المدنيّ وتأثّرهما بالبيئة التي يعيشها محمّد صلى الله عليه وآله، فإنّ مجتمع مكّة لمّا كان مجتمعاً أُميّاً لم يكن بقدرته التبسط في شرح المفاهيم وتفصيلها، وإنّما أتته القدرة على ذلك عندما أخذ يعيش مجتمع المثقّفين المتحضّر في يثرب.

وتناقش هذه الشبهة بالأمرين التاليين:

---

١ ـ سورة آل عمران: ٥٥ ـ ٥٦.

٢ ـ سورة المائدة: ٦٠.

٣ ـ سورة المائدة: ٦٤.

الأول: أنّ القصر والإيجاز ليس مختصّاً بالقسم المكّي، بل يوجد في القسم المدنيّ سور قصيرة أيضاً، كالنصر والزلزلة والبينة وغيرها. كما أنّ الطول والتفصيل ليس مختصاً بالقسم المدنيّ، بل يوجد في المكّي أيضاً سور طويلة، كالأنعام والأعراف. وقد يقصد من اختصاص المكّي بالقصر والإيجاز، أنّ هذا الشيء هو الغالب الشائع فيه. وقد يكون هذا صحيحاً ولكنه لا يدلّ بوجه من الوجوه على انقطاع الصلة بين القسمين المذكورين من القرآن الكريم؛ لأنّه يكفي في تحقيق هذه الصلة أن يأتي القرآن الكريم ببعض السور الطويلة المفصّلة في القسم المكّي كدليل على القدرة والتمكّن من الارتفاع إلى مستوى التفصيل في المفاهيم والموضوعات.

بالإضافة، إلى أنّ من الملاحظ وجود آيات مكّية قد أُثبتت في السور المدنيّة وبالعكس. وفي كلّ من الحالتين، نجد التلاحم والانسجام في السورة وكأنّها نزلت مرّة واحدة، الأمر الذي يدلّ بوضوح على وجود الصلة التامة بين القسمين.

الثاني: أنّ الدراسات اللغوية التي قام بها العلماء المسلمون وغيرهم، دلّت على أنّ الإيجاز يعتبر مظهراً من مظاهر القدرة الخارقة على التعبير، وهو بالتالي من مظاهر الإعجاز القرآني. خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار، أنّ القرآن قد تحدّى العرب بأن يأتوا بسورة من مثله، حيث يكون التحدّي بالسورة القصيرة أروع وأبلغ منه حين يكون بسورة مفصّلة.

ج) لم يتناول في مادّته التشريع والأحكام

وقالوا: إنّ القسم المكّي لم يتناول فيما تناول من موضوعات جانب التشريع من أحكام وأنظمة، بينما تناول القسم المدنيّ هذا الجانب من التفصيل. وهذا

يعبّر عن جانب آخر من التأثر بالبيئة والظروف الاجتماعية، حيث لم يكن مجتمع مكّة مجتمعاً متحضّراً، ولم يكن قد انفتح على معارف أهل الكتاب وتشريعاتهم، على خلاف مجتمع المدينة الذي تأثّر إلى حدٍّ بعيد بالثقافة والمعرفة للأديان السماويّة كاليهوديّة والنصرانيّة.

وتناقش هذه الشبهة بالأمرين التاليين أيضاً:

أوّلاً: أنّ القسم المكّي لم يهمل جانب التشريع، وإنّما تناول أصوله العامّة وجملة مقاصد الدين كما جاء في قوله تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ به شَيْئًا وبِالْوَالدَيْن إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ به لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ...**﴾[1].

بالإضافة إلى أنّنا نجد في القسم المكّي وفي سورة الأنعام بالخصوص مناقشة لكثير من تشريعات أهل الكتاب والتزاماتهم، وهذا يدلّ على معرفة القرآن الكريم بهذه التشريعات وغيرها مسبقاً.

وثانياً: أنّ هذه الظاهرة يمكن أن تطرح في تفسيرها نظرية أخرى تنسجم مع الأساس الموضوعي لوجود الظاهرة القرآنية نفسها. وهذه النظرية هي أن يقال: إنّ الحديث عن التشريع في مكّة كان شيئاً سابقاً لأوانه، حيث لم يتسلّم الإسلام حينذاك زمام الحكم بعد. بينما الأمر في المدينة على العكس. فلم يتناول القسم المكّي التشريع؛ لأنّ ذلك لا يتفق مع المرحلة التي تمرّ بها الدعوة. وإنّما تناول

١ ـ سورة الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٢.

الجوانب الأُخرى التي تنسجم مع الموقف العام، كما سوف نشرح ذلك قريباً.

د) لم يتناول الأدلّة والبراهين

وقالوا: إنّ القسم المكّي لم يتناول أيضاً الأدلّة والبراهين على العقيدة وأُصولها، على خلاف القسم المدنيّ، وهذا تعبير آخر أيضاً عن تأثّر القرآن بالظروف الاجتماعية والبيئة، إذ عجزت الظاهرة القرآنية بنظر هؤلاء عن تناول هذا الجانب الذي يدلّ على عمق النظر في الحقائق الكونية عندما كان يعيش محمّد ﷺ في مكّة مجتمع الأُميين، بينما ارتفع مستوى القرآن في هذا الجانب عندما أخذ محمّد ﷺ يعيش إلى جانب أهل الكتاب في المدينة، وذلك نتيجة لتأثّره بهم ولتطوّر الظاهرة القرآنية نفسها.

وتناقش هذه الشبهة من وجهين:

الأول: أنّ القسم المكّي لم يخل من الأدلة والبراهين، بل تناولها في كثير من سوره، والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة وفي مختلف المجالات. فمن موارد الاستدلال على التوحيد قوله تعالى: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ من وَلَد وَمَا كَانَ معَهُ منْ إلَه إذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إلَه بمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّه عَمَّا يَصفُونَ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فيهمَا آلهَةٌ إلاّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّه رَبِّ الْعَرْش عَمَّا يَصفُونَ ۞ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۞ أَم اتَّخَذُوا من دُونه آلهَةً قُلْ هَاتُوا برْهَانَكُمْ هَذَا ذكْرُ مَن مَّعيَ وَذكْرُ مَن قَبْلي بَلْ أَكْثَرُهُمْ**

١ ـ سورة المؤمنون: ٩١.

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[١]. وبصدد الاستدلال على نبوّة محمّد ﷺ وأنَّ ما جاء به من السماء: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو من قَبْله من كتَاب وَلَا تَخُطُّهُ بيَمينكَ إذا لارْتَابَ الْمُبْطلُونَ ۞ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُور الَّذينَ أُوتُوا الْعلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بآيَاتنَا إلاّ الظَّالمُونَ ۞ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزلَ عَلَيْه آيَاتٌ مِّن رَّبِّه قُلْ إنّما الآيَاتُ عندَ اللَّه وإنّما أَنَا نَذيرٌ مُّبينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفهمْ أَنَّا أَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكتَابَ يُتْلَى عَلَيْهمْ إنَّ فِي ذَلكَ لَرَحْمَةً وَذكْرَى لقَوْمٍ يُؤْمنُونَ﴾[٢].

وبصدد الاستدلال على البعث والجزاء قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا منَ السَّمَاء مَاء مُّبَاركًا فَأَنبَتْنَا به جَنَّات وَحَبَّ الْحَصيد ۞ وَالنَّخْلَ بَاسقَات لَّهَا طَلْعٌ نَّضيدٌ ۞ رزْقًا لِّلْعبَاد وَأَحْيَيْنَا به بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلكَ الْخُرُوجُ﴾[٣] ﴿أَفَعيينَا بالْخَلْق الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْس مِّنْ خَلْق جَديد﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسبْتُمْ إنّما خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسبَ الَّذينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَات أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالحَات سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ۞ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ بالْحَقِّ وَلتُجْزَى كُلُّ نَفْس بمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[٦].

وهكذا تتناول الأدلّة جوانب أُخرى من العقيدة الإسلامية والمفاهيم العامة.

---

١ ـ سورة الأنبياء: ٢٢ ـ ٢٤.
٢ ـ سورة العنكبوت: ٤٨ ـ ٥١.
٣ ـ سورة ق: ٩ـ ١١.
٤ ـ سورة ق: ١٥.
٥ ـ سورة المؤمنون: ١١٥.
٦ ـ سورة الجاثية: ٢١ ـ ٢٢.

الثاني: أنّه لو تنازلنا عن ذلك فمن الممكن تفسير هذا الفرق على أساس مراعاة طبيعة موقف المواجهة من الدعوة، حيث كانت تواجه الدعوة في مكّة مشركي العرب وعبدة الأصنام، والأدلّة التي كان يواجه القرآن بها هؤلاء أدلّة وجدانيّة من الممكن أن تستوعبها مداركهم ويقتضيها وضوح بطلان العقيدة الوثنية، وحين اختلفت طبيعة الموقف وأصبحت الأفكار المواجهة تمتاز بكثير من التعقيد والتزييف والانحراف ـ كما هو الحال في عقائد أهل الكتاب ـ اقتضى الموقف مواجهتها بأسلوب آخر من البرهان والدليل أكثر تعقيداً وتفصيلاً[1].

الفروق الحقيقية وتفسيرها

لم نجد في الشبهات التي تناولناها، ولا نجد في غيرها ما يمكنه أن يصمد أمام النقد العلمي أو الدرس الموضوعي. ومن كلّ ذلك يجدر بنا، أن تقدّم تفسيراً منطقياً لظاهرة الفرق بين القسم المكّي والقسم المدنيّ، وإن كنّا قد ألمحنا إلى جانب من هذا التفسير عندما تناولنا الشبهات بالنقد والمناقشة.

ويحسن بنا أن نذكر الفروق الحقيقية التي امتاز بها المكّي عن المدنيّ، سواء ما يتعلق بالأُسلوب أو بالموضوع الذي تناوله القرآن، ثم نفسّر هذه الفروق على أساس الفكرة التي أشرنا إليها في صدر البحث والتي تقول: إنّ هذه الفروق كانت نتيجة لمراعاة ظروف الدعوة والأهداف التي تسعى إلى تحقيقها؛ لأنّ الهدف والغاية يلقيان ـ في كثير من الأحيان ـ بظلّهما على طريقة العرض والمادة المعروضة. وتُلخّص هذه الفروق والخصائص التي يمتاز بها المكّي عن المدنيّ غالباً بالأمور التالية.

---

١ ـ اعتمدنا بصورة أساسية، في عرض الشبهات ومناقشتها على ما ذكره الزرقاني في مناهل العرفان ١: ١٩٩ ـ ٢٣٢.

١ ـ إنّ المكّي عالج بشكل أساسي مبادئ الشرك والوثنية وأُسسها النفسية والفكرية ومؤدّاها الأخلاقي والاجتماعي.

٢ ـ أكّد المكي على ما في الكون من بدائع الخلقة وعجائب التكوين، الأمر الذي يشهد بوجود الخالق المدبّر لها. كما أكّد على عالم الغيب والبعث والجزاء والوحي والنبوّات، وشرح ما يرتبط بذلك من أدلّة وبراهين، كما خاطب الوجدان الإنساني وما أودعه الله فيه من عقل وحكمة وشعور.

٣ ـ تحدّث المكي عن الأخلاق، بمفاهيمها العامّة مع ملاحظة الجانب التطبيقي منها، وحذّر من الانحراف فيها كالكفر والعصيان والجهل والعدوان وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل أموال اليتامى... إلى غير ذلك.

وعرض إلى جانب ذلك الوجه الصحيح للأخلاق كالإيمان بالله والطاعة له والعلم والمحبّة والرحمة والعفو والصبر والإخلاص واحترام الآخرين وبرّ الوالدين وإكرام الجار ونظافة اللسان والصدق في المعاملة والتوكّل على الله وغير ذلك.

٤ ـ تحدّث المكي عن قصص الأنبياء والرسل والمواقف المختلفة التي كانوا يواجهونها من قبل أقوامهم وأُممهم وما يستنبط من ذلك من العبر والمواعظ.

٥ ـ سلك المكي طريق الإيقاع الصوتي والإيجاز في الخطاب، سواء في الآيات أو السور.

ويكاد أن يكون المدنيّ بخلاف ذلك على الغالب وإن كان قد امتاز بالأمرين التاليين:

١ ـ دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، مع مناقشتهم وبيان انحرافهم عن العقيدة والمناهج الحقّة التي أُنزلت على أنبيائهم.

٢ ـ بيان التفصيلات في التشريع والنظام، ومعالجة مشاكل العلاقات المختلفة في المجتمع الإنساني.

٣ ـ تناول حركة النفاق في المجتمع الاسلامي وخلفياتها الأخلاقية والسياسية، وأهدافها وظواهرها والموقف السياسي منها.

التفسير يبقي الصحيح للفرق بين المكّي والمدنيّ

وحين نريد أن ندرس ظاهرة الفرق بين المكّي والمدنيّ من خلال هذه الخصائص والميزات، نجد: **أوّلاً**: أنّ الدعوة الإسلامية بدأت في مكّة وعاشت فيها ثلاث عشرة سنة. وهذه الفترة المنسوبة إلى زمن نزول القرآن تعتبر في الحقيقة فترة إرساء أُسس العقيدة الإسلامية بجوانبها المختلفة، سواء ما يتعلّق بالجانب الإلهي أو الغيبي أو الأخلاقي أو الاجتماعي، وسواء ما يتعلق بالجانب الإيجابي كعرض مفاهيمها عن الحياة والأخلاق والمجتمع أو ما يتعلق بالجانب السلبي كمناقشة الأفكار الكافرة التي كانت تسود المجتمع آنذاك.

وهذه الحقيقة تفرض ـ بطبيعة الحال ـ أن يكون القسم المكّي أكثر شمولاً واتّساعاً من جانب، وأن يكون مرتبطاً بمادّته وموضوعاته بالأُسس والركائز للرسالة الجديدة من جانب آخر.

وهذا هو الذي يفسّر لنا غلبة المكّي على المدنيّ من الناحية الكمّية، مع أنّ الفترة المدنيّة تبدو ـ تاريخياً ـ وكأنّها زاخرة بالأحداث الجسام والمجتمع المدنيّ أكثر تعقيداً ومشاكل.

كما أنّ هذا بنفسه ـ بالإضافة إلى الفكرة التي أشرنا إليها وهي مراعاة الظروف التي تسير بها الدعوة ـ يفسّر لنا هذه الخصائص والميزات التي غلبت على المكّي من جانب والمدنيّ من جانب آخر.

فأما بالنسبة إلى الخصيصة الأولى، تلاحظ أنّ المجتمع المكّي كان مجتمعاً يتّسم بطابع الوثنية في الجانب العقيدي، بالإضافة إلى أنّ إيضاح الموقف تجاهها يشكل نقطة أساسية في القاعدة للرسالة الجديدة، لأنّها تتبنى التوحيد الخالص كأساس لكلّ جوانبها وتفصيلاتها الأُخرى. فكان من الطبيعي التأكيد على فكرة رفض الشرك والوثنية والدخول في مناقشة طويلة معها بشتى الأساليب والطرق.

وبالنسبة إلى الخصيصة الثانية، نلاحظ أنّ المجتمع المكّي لم يكن يؤمن بفكرة الإله الواحد، كما لا يؤمن بعوالم الغيب والبعث والجزاء والوحي وغير ذلك. وهذه الأفكار من القواعد الأساسية للرسالة والعقيدة الإسلامية، بالإضافة إلى أنّ مجتمع أهل الكتاب كان يؤمن بهذه الأُصول جميعاً، فكان من الضروري أن يؤكّد القسم المكّي على ذلك انسجاماً مع طبيعة المرحلة المكّية التي تعتبر مرحلة متقدمة، كما أنّ بيانها في هذه المرحلة يجعل المرحلة الثانية في غنى عن بيانها مرة أخرى. وبالنسبة إلى الخصيصة الثالثة، فلعلّ التأكيد على الأخلاق في القسم المكّي دون المدنيّ كان بسبب العوامل الثلاثة التالية:

أ) إنّ الأخلاق تعتبر قاعدة النظام الاجتماعي، فالتأكيد عليها يعني في الحقيقة إرساء لقاعدة النظام الاجتماعي الذي يستهدفه القرآن.

ب) كما أنّ الدعوة كانت بحاجة ـ من أجل نجاحها ـ إلى استثارة العواطف الإنسانية الخيرة، ليكون نفوذها في المجتمع وتأثيرها في الافراد عن طريق مخاطبة هذه العواطف.

والأخلاق هي الأساس الحقيقي لكلّ هذه العواطف، وهي الرصيد الذي يمدّها بالحياة والنموّ.

ج) إنّ المجتمع المدنيّ كان يمارس الأخلاق من خلال التطبيق الذي كان يباشره الرسول محمّد ﷺ بنفسه، فلم يكن بحاجة كبيرة إلى التأكيد على المفاهيم الأخلاقية، على العكس من المجتمع المكّي الذي كان يعيش فيه المسلمون حياة الاضطهاد، وكان يمارس فيه تطبيق الأخلاق الجاهلية.

وبالنسبة إلى الخصيصة الرابعة، نجد القصص تتناول من حيث الموضوع أكثر النواحي التي عالجها القرآن الكريم من العقيدة بالإله الواحد وعالم الغيب والوحي والأخلاق والبعث والجزاء. بالإضافة إلى أنّها تصوّر المراحل المتعدّدة للدعوة والمواقف المختلفة منها، والقوانين الاجتماعية التي تتحكّم فيها وفي نتائجها والمصير الذي يواجهه أعداؤها وإلى جانب ذلك، تعتبر القصة في القرآن أحد أسباب الإعجاز فيه وأحد الأدلّة على ارتباطه بالسماء.

وكلّ هذه الأُمور لها صلة وثيقة بالظروف التي كانت تمرّ بها الدعوة في مكّة، ولها تأثير كبير في تطويرها لصالح الدعوة وأهدافها الرئيسية.

ومع كلّ هذا، لم يهمل القسم المدنيّ القصّة مطلقاً، بل تناولها بالشكل الذي ينسجم مع طبيعة المرحلة التي تمرّ بها.

وبالنسبة إلى الخصيصة الخامسة، فقد كان لها ارتباط وثيق بجوانب مرحليّة وإعجازية؛ لأنّ المرحلة كانت تفرض كسر طوق الأفكار الجاهليّة الذي كان مضروباً على المجتمع، فكان لهذا الأُسلوب الصاعق الحادّ تأثير فعّال في تذليل الصعوبات وتحطيم معنويّات المقاومة العنيفة.

وحين يتحدّى القرآن الكريم العرب في أن يأتوا بسورة منه، يكون الإيجاز

في السورة أبلغ في إيضاح الإعجاز القرآني وأعمق تأثيراً وأبعد مدى.

وقد كانت المعركة إلى ذلك كلّه في أوّلها معركة شعارات وتوطيد مفاهيم عامة عن الكون والحياة. والإيجاز والقصر ينسجم مع واقع المعركة وإطارها أكثر من الدخول في تفصيلات واسعة. ولهذا نشاهد السور القصيرة تمثّل المرحلة الأُولى تقريباً من مراحل القسم المكّي.

وهذه الملاحظات لم تكن تتوفّر في المدينة، بعد أن أصبح الإسلام هو الحاكم المسيطر على المجتمع، وبعد أن أصبحت مسألة الوحي والاتصال بالسماء مسألة واضحة، وبعد أن جاء دور آخر للمعركة يفرض أسلوباً آخر في العرض والبيان.

ومن هذا الدرس لخصائص ومميّزات القسم المكّي تتّضح مبرّرات خصائص القسم المدنيّ من الدخول في تفصيلات الأحكام الشرعية والأنظمة الاجتماعية أو مناقشة أهل الكتاب في عقائدهم وانحرافاتهم؛ حيث فرضت ظروف الحكم في المدينة، والحاجة إلى تنظيم العلاقات بين الناس بيان هذه التفصيلات في الأنظمة. كما أنّ المعركة في المدينة انتقلت من الأُصول والأُسس العامّة للعقيدة إلى جوانب تفصيلية منها ترتبط بحدودها وأشكالها، وبالعمل على تقويم الانحراف الذي وضعه أهل الكتاب فيها. وبهذا نفسّر الفرق بين المكّي والمدنيّ بالشكل الذي ينسجم مع فكرتنا عن الوحي وفكرتنا عن مراعاة القرآن للظروف من أجل تحقيق أهدافه وغاياته.

بعض الملاحظات التكميلية

إلى هنا عرضنا ما كتبه السيد الاستاذ الشهيد آية الله الصدر ولدينا بعض الملاحظات التكميلية.

الأولى: ذكر الاستاذ بعض الخصائص التي يتميز بها كل من القسمين: المكي والمدني، وأكّد أنها مقاييس لا يمكن اعتمادها إلاّ إذا اردت إلى العلم، وهو أمر صحيح تماماً ولكن بعض العلماء ذكروا ضوابط وعلامات يمكنها أن توجب التأكد من تحقق احدى الصفتين وهي من قبيل القواعد التالية:

١ـ كل سورة جاء فيها لفظ (كلا) فهي مكية.

٢ـ كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية.

٣ـ كل سورة في أولها حروف التهجي فهي مكية. سوى سورة البقرة وآل عمران فانهما مدنيتان بالإجماع. وفي الرعى خلاف.

٤ـ كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى البقرة.

٥ـ كل سورة فيها يا أيها الناس وليس فيها يا أيها الذين آمنوا فهي مكية، ولكن يشكل على هذه القاعدة بسورة الحج وببعض الآيات الأخرى التي ذكر أنها مدنية رغم ورود يا أيها ا لناس فيها.

٦ـ كل سورة من المفصّل فهي مكية وأورد على هذه القاعدة أن بعض المدني مفصل أيضاً كسورة النص فهي مدنية. والمفصل هو السور الأخيرة في القرآن الكريم بدءاً من سورة الحجرات، سميت بذلك لكثرة الفصل في سورها.

٧ـ كل سورة فيها حدود وفرائض فهي مدنية.

٨ـ كل سورة فيها اذن بالجهاد وبيان لاحكامه فهي مدنية.

٩ـ كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية[1].

والحق: أن هذه القواعد إما أن تكون مستمدة من الاستقراء أو مما تحقق عليه الإجماع أو دلت القرائن والروايات على نوعه فهي ضوابط مسبوقة بما دل الدليل عليه.

---

١ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني: ١٨٩ ـ ١٩١.

ومع ذلك فانها ضوابط ترجيحية مفيدة لكنها كما قال السيد الشهيد لا يمكن الاستناد إليها إلاّ إذا أوجدت العلم.

الثانية: اعترض بعض العلماء على اشتمال السور المكية على آيات مدنية وبالعكس وإن ذلك يستدعي تعليق صفة الآية لسنين حتى تنزل السورة المناسبة، بالإضافة إلى أن هذا الوصف اجتهادي لم يثبت بالعلم أو العلمي وذكروا مثالاً لذلك سورة الرعد لورود الآية الكريمة ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾[١] وقد نزلت في عبدالله بن سلام الذي أسلم بعد الهجرة. وقد اعترض على ذلك بانه قد يكون المقصود غيره[٢].

ونقل عن تفسير الدر المنثور أن سعيد بن جبير أنكر نزولها فيه[٣].

وقد روي في الكافي وغيره أنها نزلت في أهل البيت عليهم السلام أو الإمام علي عليه السلام[٤].

ونرى أنه رأي وجيه ولكن لا مانع من أن بأمر الرسول صلى الله عليه وآله أن توضع آية مكية في سورة مدنية وبالعكس ولكن كل هذا يعتمد على صحة الرواية وحجيتها.

الثالثة: إن أكثر المصاحف تعتمد على الرواية الواردة عن ابن عباس وقد

---

١ ـ الرعد: ٤٣.

٢ ـ بحوث في تاريخ القرآن وعلومه للسيد المحمدي الزرندي ص ٢٩٦ وكذلك الشيخ عبدالعالي الصعيدي في رسالة الإسلام السنة ١٢ الصفحة ٣٦١.

٣ ـ ج ٤، ص ٦٩.

٤ ـ الكافي ١: ٢٢٩، الأمالي للصدوق: ٦٥٩، جامع البيان للطبري ١٣: ٢٣١، تفسير البغوي ٣: ٢٥، شواهد التنزيل ١: ٤٠٠.

رواها السيوطي في (الاتقان) [١] ورواها غيره كالطبرسي في مجمع البيان[٢] وابن النديم في الفهرست[٣] وهي رواية جامعة ونصها كما يلي:

روى السيوطي في الإتقان عن فضائل القرآن لابن الضريس بسند ذكره عن ابن عبّاس قال: كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكّة كتبت بمكّة، ثمّ يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما أُنزل من القرآن «اقرأ باسم ربّك» ثمّ «ن» ثمّ «يا أيّها المزّمّل» ثمّ «يا أيّها المدّثّر» ثمّ «تبّت يدا أبي لهب» ثمّ «إذا الشمسُ كُوّرت» ثمّ «سبّح اسم ربّك الأعلى» ثمّ «والليل إذا يغشى» ثمّ «والفجر» ثمّ «والضحى» ثمّ «ألم نشرح» ثمّ «والعصر» ثمّ «والعاديات» ثمّ «إنّا أعطيناك» ثمّ «ألهاكمُ التكاثر» ثمّ «أرأيت الذي يكذّب» ثمّ «قل يا أيّها الكافرون» ثمّ «ألم ترَ كيف فعلَ ربّك» ثمّ «قل أعوذ بربّ الفلق» ثمّ «قل أعوذ بربّ الناس» ثمّ «قل هو الله أحد» ثمّ «والنجم» ثمّ «عبَس» ثمّ «إنّا أنزلناهُ في ليلة القدر» ثمّ «والشمس وضحاها» ثمّ «والسماء ذات البروج» ثمّ «والتين» ثمّ «لإيلاف قريش» ثمّ «القارعة» ثمّ «لا اُقسم بيوم القيامة» ثمّ «ويلٌ لكلّ هُمزة» ثمّ «والمرسلات» ثمّ «ق» ثمّ «لا اُقسم بهذا البلد» ثمّ «والسماء والطارق» ثمّ «اقتربت الساعة» ثمّ «ص» ثمّ «الأعراف» ثمّ «قل اُوحي» ثمّ «يس» ثمّ «الفرقان» ثمّ «الملائكة» ثمّ «كهيعص» ثمّ «طه» ثمّ «الواقعة» ثمّ «طسم الشعراء» ثمّ «طس» ثمّ «القصص» ثمّ «بني إسرائيل» ثمّ «يونس» ثمّ «هود» ثمّ «يوسف» ثمّ «الحِجر» ثمّ «الأنعام» ثمّ «الصافات» ثمّ «لقمان» ثمّ «سبأ» ثمّ «الزُمر» ثمّ «حم» ثمّ «المؤمن» ثمّ « حم السجدة» ثمّ «حم عسق» ثمّ «حم الزخرف» ثمّ «الدخان» ثمّ «الجاثية» ثمّ «الأحقاف» ثمّ «الذاريات» ثمّ « الغاشية»

١ـ ج ١ ص ١١.
٢ـ ج ١٠ ص ٤٠٥.
٣ـ ص ٤٥.

ثمّ «الكهف» ثمّ «النحل» ثمّ «إنّا أرسلنا نوحاً» ثمّ «سورة إبراهيم» ثمّ «الأنبياء» ثمّ «المؤمنون» ثمّ «تنزيل السجدة» ثمّ «الطور» ثمّ «تبارك الملك» ثمّ «الحاقة» ثمّ «سأل» ثمّ «عمّ يتساءلون» ثمّ «النازعات» ثمّ «إذا السماء انفطرت» ثمّ «إذا السماء انشقّت» ثمّ «الروم» ثمّ «العنكبوت» ثمّ «ويلٌ للمطفّفين». فهذا ما أزل الله بمكّة.

ثمّ أنزل بالمدينة «سورة البقرة» ثمّ «الأنفال» ثمّ «آل عمران» ثمّ «الأحزاب» ثمّ «الممتحنة» ثمّ «النساء» ثمّ «إذا زلزلت» ثمّ «الحديد» ثمّ «القتال» ثمّ «الرعد» ثمّ «الرحمن» ثمّ «الإنسان» ثمّ «الطلاق» ثمّ «لم يكن» ثمّ «الحشر» ثمّ «إذا جاء نصر الله» ثمّ «النور» ثمّ «الحجّ» ثمّ «المنافقون» ثمّ «المجادلة» ثمّ «الحُجرات» ثمّ «التحريم» ثمّ «الجمعة» ثمّ «التغابن» ثمّ «الصفّ» ثمّ «الفتح» ثمّ «المائدة» ثمّ « براءة»[1].

١ ـ الإتقان ج ١ ص ١١.

الفصل الرابع:
حكمة وجود المتشابه في القرآن الكريم

يصرح القرآن الكريم في الآية السابعة من سورة آل عمران بوجود آيات محكمات هنَّ أم الكتاب، وأخر متشابهات فيقول تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾.

وقد اختلف المفسرون في المراد من المحكم والمتشابه، وترددت نظرياتهم بين كون التشابه قائماً على أساس علاقة اللفظ بالمعنى ومدى دلالته وظهوره فيه، وكونه، أي التشابه، في مجال تطبيق المعنى المفهوم على مصاديقه وتجسيداته الخارجية.

فالمتشابه: هو ما حصل تردد في دلالته على المعنى المراد ـ على رأي ـ أو ما حصل معه التردد في افراد المعنى الذي يدل عليه ـ والمحكم ما يقابله[١].

ولسنا نريد هنا الدخول في مجال عرض الاتجاهات الرئيسة في هذا المجال وترجيح احدها على الآخر، وإنّما نقصد أن نعرض إلى مبررات احتواء القرآن الكريم على آيات وألفاظ متشابهة يحصل التردد في فهم دلالاتها أو تطبيقاتها، وهل يتنافى ذلك مع كونه كتاب الهداية العامة للبشرية؟

وسنحاول فيما يلي التعرض إلى ما قيل في هذا المجال وتوضيحه أولاً، ثم نحاول التعقيب على ما ذكر إما بالرد أو بالتكميل.

الآراء في هذا المجال:

نستطيع ان نحصر أهم ما قيل في توضيح الحكمة من مجيء كل الآيات المتشابهة أو بعضها في نقاط كما يلي:

١ ـ الامتحان والتربية على الاستسلام والخضوع:

فقد ذكر الشيخ محمد عبده: «إن الله سبحانه أنزل المتشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به، فإنه لو كان كل ما ورد في الكتاب واضحاً لا شبهة فيه عند أحد من الأذكياء ولا من البلداء لما كان في الإيمان به شيء من معنى الخضوع لما انزل الله تعالى والتسليم لما جاءت به رسله»[٢].

ويؤكد هذا بالالتفات إلى ما قالته الآية: ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا**

١ ـ للمزيد في هذا الباب انظر: الاتقان في علوم القرآن ج٢، ٥ ـ ١٣، القرآن في الإسلام للعلامة الطباطبائي: ٣٣ ـ ٣٩، تلخيص التمهيد ١: ٤٦٢ ـ ٤٧٧.

٢ ـ تفسير المنار ٣: ١٧٠.

به كُلٌّ مِّنْ عند ربِّنَا﴾[١] علي خلاف ﴿**الَّذين في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةَ**﴾[٢].

وقد أكد هذا الرأي صاحب «مناهل العرفان» فقال في مجال تعداد حكم بعض أنواع المتشابه: «ثانيتها الابتلاء والاختبار أيؤمن البشر بالغيب ثقة بخبر الصادق أم لا؟ فالذين اهتدوا يقولون آمنا وان لم يعرفوا على التعيين والذين في قلوبهم زيغ يكفرون به وهو الحق من ربهم، ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة والخروج من الدين جملة»[٣].

ونقل عن السيوطي عن بعضهم انه ذكر فوائد للمتشابه الذي استأثر الله بعلمه ومنها: «ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه والتفويض والتسليم...»[٤].

ثم قال: ورابعتها إقامة دليل على عجز الإنسان وجهالته مهما عظم استعداده وغزر عمله، وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة، وانه وحده هو الذي أحاط بكل شيء علماً، وان الخلق جميعاً لا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء، وهنالك يخضع العبد ويخشع ويطامن من كبريائه ويخضع»[٥].

ومما لاريب فيه، أن الامتحان والابتلاء يشكل نوعا أساسياً من أنواع تربية الإنسان المسلم على أن يتحلى بالصفات التي يريد الله أن تتقوم شخصيته بها، وأهم هذه الصفات بل الملكات المتأصلة صفة التعبد والاستسلام لله تعالى في كل شيء يثبت أنَّه منه تعالى، عرف الحكمة فيه أم لم يعرف، وقد وضع الإسلام

١ ـ آل عمران: ٧.
٢ ـ آل عمران: ٧.
٣ ـ مناهل العرفان ٢: ١٧٨.
٤ ـ نفس المصدر: ١٩٣.
٥ ـ نفس المصدر: ١٧٩.

لغرس هذه الملكة في أعماق المسلم برنامجاً واسعاً وأساليب مختلفة يمكن أن يذكر منها ما نحن بصدده، كما يمكن أن يذكر منها أسلوب عرض قصص المستسلمين الأطهار (كإبراهيم وإسماعيل) وكذلك القصص التي تحكي عن الحكمة الإلهية الواسعة التي هي فوق ما يتصور الإنسان الحبيس في سجن ضعفه وإمكانه، حتى ولو كان ذلك الإنسان موسى عليه السلام.

ومنها نظام العبادات إلى غير ذلك مما ليس هنا محل ذكره.

وعليه فيقف الممتحن أمام هذه الآيات المتشابهة موقفين تبعاً لمسبقاته وتصوراته واستسلامه، فأمّا الاغترار واتباع الرأي ابتغاء للفتنة، وأما الاستسلام لله تعالى وإرجاع الأمر إليه.

٢ ـ الدفع نحو التعمق والتوسع الفكري:

وقد ذكر عبده أيضاً أن وجود المتشابه «كان حافزاً للعقل المؤمن إلى النظر كيلا يضعف فيموت، فإن السهل الجلي جداً لا عمل للعقل فيه، والعقل أعزُّ القوى الإنسانية التي يجب تربيتها، والدين أعزّ شيء على الإنسان، فإذا لم يجد العقل مجالاً للبحث في الدين يموت عامل العقل فيه، وإذا مات فيه لا يكون حياً بغيره»[١].

وذكر العلاّمة الطبرسي ذلك باختصار حيث قال: «فإن قيل: لم أنزل الله تعالى القرآن المتشابه وهلّا جعله كلّه محكماً؟ فالجواب: إنه لو جعل جميعه محكماً لاتكل الناس كلهم على الخبر واستغنوا عن النظر...»[٢].

كما أنَّ الفخر الرازي ذكر ما يقرب من هذا المعنى حيث قال في هذا الصدد:

١ ـ تفسير المنار ج ٣ ص ١٧٠، ومجلة الهادي، السنة الخامسة، العدد ٣: ٣٣.
٢ ـ مجمع البيان ٢: ٤١٠.

«كما كان القرآن مشتملاً على المحكم والمتشابه، افتقروا إلى تعلم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض وافتقر تعلم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وأصول الفقه»[١]. ويقول: «أنّ القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل، وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد»[٢] وفي ذلك تنويه بشأن العقل والتعويل عليه، ولو كان كلّه محكماً لما احتاج إلى الدلائل العقلية، ولظل العقل مهملاً....

واخذ هذا المعنى الشيخ صبحي الصالح فقال: «لعل اشتمال القرآن على المتشابه وعدم اقتصاره على المحكم وحده، أن يكون حافزاً للمؤمنين على الاشتغال بالعلوم الكثيرة التي تعودهم على فهم الآيات المتشابهات فيتخلصون من ظلمة التقليد، ويقرأون القرآن متدبرين خاشعين»[٣].

ولربّما عبّر عن هذا المعنى بلسان آخر، وهو حصول الثواب بإعمال النظر في القرآن الكريم، وهو ما قاله المرحوم الطبرسي من أنه: «لو لا وجود المتشابه لكان لا يحصل لهم ثواب النظر وإتعاب الخواطر في استنباط المعاني»[٤].

وقال الفخر الرازي أيضاً: «متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب»[٥].

كما انه قد يعبر عنه بلسان آخر هو: «لسان ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات العلمية».

---

١ ـ تفسير الرازي ٧: ١٨٤.
٢ ـ المصدر السابق.
٣ ـ مباحث في علوم القرآن: ٢٨٦.
٤ ـ مجمع البيان ٣: ٤١٠.
٥ ـ تفسير الرازي ٧: ١٨٤.

وهذا ما جاء في المجمع حيث يقول: «ولكان لا يتبين فضل العلماء على غيرهم»[١].

ونقل السيوطي عن البعض قوله: «ومنها ظهور التفاضل وتفاوت الدرجات، إذ لو كان كلّه محكماً لا يحتاج إلى تأويل ونظر، لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على غيره»[٢].

ويرى السيد باقر الحكيم أنَّ نوعاً من المتشابه، وهو الذي لا يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم، إنّما ورد في القرآن الكريم بهذا الأسلوب ليطرح أمام العقل بعض المسائل الكونية وغيرها لينطلق في تدبر حقيقتها واكتشاف ظلماتها المجهولة!![٣].

هذا، ومما لاريب فيه، فإنَّ القرآن الكريم أوجد بنـزوله مرحلة فكرية جديدة، ونقل المجتمع من حضيض التفكير الجامد الضيق إلى سمو فكري متفتح ونضج بلغ في مراحله التالية إلى مستوى فلسفي لا تصله أية فلسفة ومستوى علمي جوال قاد العالم خلال قرون ومستويات فكرية تشريعية وأخلاقية ما رأى الكون لها مثيلاً.

يقول الدكتور محمد يوسف موسى: «إن القرآن كان من أهم العوامل التي دفعت المسلمين إلى التفلسف، ثم بيان ما اشتمل عليه من فلسفة، سواء ما يتعلق منها بالإنسان وما يتعلق وصلته جل وعلا بالإنسان، ومن الحق أنَّ القرآن قبل كل شيء هو كتاب العقيدة الحقة، والشريعة الصالحة لكل زمان ومكان والأخلاق التي لا يقوم مجتمع سليم إلاّ بها»[٤].

---

١ ـ مجمع البيان ٣: ٤١٠.
٢ ـ الاتقان ٢: ٣٠.
٣ ـ علوم القرآن: ١٩٠.
٤ ـ القرآن والفلسفة: ٥.

ويقول الإمام الخوئي: «لأنه الكتاب الذي يضمن إصلاح البشر ويتكفل بسعادتهم وإسعادهم، والقرآن مرجع اللغوي ودليل النحوي، وحجة الفقيه، ومثل الأديب، وضالة الحكيم، ومرشد الواعظ، وهدف الخلقي، وعنه تؤخذ علوم الاجتماع والسياسة المدنية، وعليه تؤسس علوم الدين، ومن إرشاداته تكتشف إسرار الكون، ونواميس التكوين...»[١].

ويقول الأستاذ المطهري: «إنَّ الفلاسفة المسلمين استطاعوا بإلهام من القرآن الكريم وكلمات الرسول الأكرم ﷺ والأئمة الأطهار: أن يوجدوا مدرسة فلسفية تعتمد الاستدلال المنطقي المتقن»[٢]. ولعل من أهم عوامل الدفع نحو الفلسفة بالخصوص والتوسع الفكري على العموم وجود هذه الآيات المتشابهة على اختلاف أصعدتها الفلسفية والعلمية والاجتماعية، والتي تدفع المسلم المتأمِّل في القرآن بحكم تطلُّعه إلى فهم معناها، وتدفعه لذلك التوسع.

٣ ـ تقريب الأُمور العميقة إلى الإفهام:

ويتوضح ملخص ما ذكره العلّامة الطباطبائي في هذه الحكمة بمتابعة الخطوات التالية:

أولاً: أن الارتباط بالله تعالى والمعاد وما إلى ذلك من تفصيلات العالم الغيبي أمر ضروري للإنسان، بل هو روح التصور الإسلامي عن الواقع... وهذا يستدعي أن يعرف المسلمون القدر الضروري عن نوعية هذه العلاقة.

ثانياً: أن الإنسان حبيس ضعفه وتصوراته الخاصة الحسية والعقلية التي

١ ـ البيان في تفسير القرآن: ٣.

٢ ـ علل الانحراف نحو المادية: ١٦٧ طبع مشهد انتشارات طوس.

توفرت له خلال حياته... ومختلف مراتب الناس على ضوء كمية التصورات التي لديهم.

ثالثاً: وعلى ضوء مما سبق، ولأجل الكشف عن القدر الضروري لنوعية العلاقة الآنفة لجميع الإنسانية، فقد اتّبع القرآن أسلوب التمثيل والتشبيه ليقرب تلك المعاني العالية إلى الأذهان، فيقرب الأمر المعنوي المجرد إلى الأذهان المختلفة عبر ذلك التمثيل بحقائق حسية.

رابعاً: من الواضح أن الممثَّل قد لا يتوافق مع الممثَّل به في مختلف الجوانب والخصائص خصوصاً وهما من عالمين مختلفي القوانين والاحكام (عالم المجردات وعالم الماديات).

وعدم التوافق هذا قد يجر إلى محذورين يخالفان الغرض الأساسي لهذا التمثيل وهو الهداية القرآنية:

أ ـ نقل الخصائص الحسية للممثَّل به إلى الممثَّل، وهذا يعني تغير الحقيقة وانقلاب الغرض.

ب ـ وقد يلتفت الإنسان إلى الفرق بين الممثَّل والممثَّل به، فيبدأ بعملية تجريد الممثَّل به من الخصوصيات مما قد يؤثّر في تشويه الصورة المطلوب إعطاؤها بزيادة أو نقصان.

خامساً: وتخلصاً من هذه المحاذير، يلجأ القرآن إلى توزيع المعاني التي يريد اعطاءها إلى أمثال مختلفة واعطاءها صيغاً مختلفة حتى يفسر بعضها بعضاً وينتهي الأمر إلى تصفية عامة تنتج ما يلي:

أ ـ إدراك القارئ للقرآن أنَّ هذه الصور هي مجرد أمثال لا تعبّر عن كل الحقيقة ولا تكسب الواقع العيني كل خصائصها.

ب ـ بجمع هذه الأمثال إلى بعضها ينفى بكل واحد منها الخصوصيات الحسية الموجودة في المثال الآخر.

وبذلك تتحقق الهداية القرآنية العامة ويتخلص من نقائص هذا الأسلوب الذي لا مفر منه[١].

وقد عبر ابن اللبّان في كتابه «رد الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات» عن رأي أخص من هذا، فقال بتلخيص من صاحب المناهل:

ليس في الوجود فاعل إلاّ الله، وأفعال العباد منسوبة الوجود إليه تعالى بلا شريك و لا معين، فهي في الحقيقة فعله وله بها عليهم الحجة ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾[٢].

ومن المعلوم، أنَّ أفعال العباد لابدَّ فيها من توسط الجوارح مع أنَّها منسوبة إليه تعالى، وبذلك يعلم أنَّ لصفاته تعالى في تجلياتها مظهرين: مظهراً عبادياً منسوباً إليه، وقد أجرى عليه أسماء المظاهر العبادية المنسوبة لعباده على سبيل التقريب لإفهامهم والتأنيس لقلوبهم ولقد نبَّه تعالى على القسمين، وأنه منزّه عن الجوارح في الحالين.

فنبَّه على الأول بقوله: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ**﴾[٣]، فهذا يفيد أنَّ كل ما يظهر على أيدي العباد فهو منسوب إليه تعالى، ونبَّه على الثاني بقوله فيما اخبر عنه نبيه ﷺ: «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي

١ ـ الميزان ٣: ٥٨ ـ ٦٥.

٢ ـ سورة الأنبياء: ٢٣.

٣ ـ سورة التوبة: ١٤.

يمشي بها»[١] وقد حقَّق الله ذلك لنبيه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[٢].

وبقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[٣] وبهذا يفهم ما جاء من الجوارح منسوباً إليه تعالى فلا يفهم من نسبتها إليه تشبيه ولا تجسيم. ولكن الغرض من ذلك التقريب للافهام والتأنيس للقلوب...»[٤].

٤ ـ إعطاء الكل والتركيز على البعض:

ذكر الفخر الرازي رأياً يقرب من الرأي السابق فقال: إنَّ القرآن يشتمل على دعوة الخواص والعوام، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأُمور عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه ظنَّ أنَّ هذا عدم ونفي محض، فيقع في التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما تخيلوه وما توهموه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدل على الحق الصريح، فالقسم الأول: وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر من باب المتشابه.

والقسم الثاني: وهو الذي يكشف عن الحق الصريح هو المحكم.

وعبرَّ عنه الشيخ عبده بتعبير آخر فقال: «إن الأنبياء بعثوا إلى جميع الأصناف من عامة الناس وخاصتهم، وفيهم العالم والجاهل والذكي والبليد، وهناك من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته وتشرح كنهه بحيث يفهمه الجميع على السواء، وإنّما يفهمه الخاصة منهم عن طريق الكناية

١ ـ صحيح البخاري ٧: ١٩٠، عوالي اللآلي ٤: ١٠٣، الإمام الخميني (الأربعون حديثاً).
٢ ـ سورة الفتح: ١٠.
٣ ـ سورة الأنفال: ١٧.
٤ ـ مناهل العرفان ٢: ١٩٣ ـ ١٩٤.

والتعريض، ويؤمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله تعالى والوقوف عند حد المحكم فيكون لكلٍّ نصيبه على قدر استعداده»[١].

ويعلق السيد باقر الحكيم على هذا النص بعد رد اشكال العلّامة عليه فيقول: «إذا عرفنا دور المحكم والمتشابه أمكننا أن نتصور بسهولة، أنَّ بعض المعاني لا يدركها إلاّ الراسخون في العلم دون العامة، خصوصاً المعاني التي تربُط ببعض المعلومات الكونية الطبيعية كجريان الشمس ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا**﴾[٢] أو تلقيح الرياح اللواقح أو جعل الماء مصدرا للحياة ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[٣] فإنَّ كل هذه المعلومات حين تتكشف لدى العلماء تكون من المعلومات التي أشار إليها القرآن الكريم ويعرفها الخاصة دون غيرهم»[٤].

ومما يؤكده، أنَّ الراغب الأصفهاني في مفرداته ذكر أنَّ من المتشابه ما «يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم، وهو الضرب المشار إليه بقوله في علي رضي الله عنه: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»[٥].

فتكون بعض الآيات متوجهة إلى القادة الفكريين بالخصوص؛ على أساس أنَّهم سيعرفون الواقع المراد بالتفصيل للأُمة ككل.

ولعله إلى مثل هذا الرأي، يشير الزرقاني فيقول في مجال تعداد الحكم من وجود المتشابه: «أولاها» رحمة الله بهذا الإنسان الذي لا يطيق معرفة كل شيء، وإذا كان الجبل حين تجلى له ربه جعله دكاً وخرّ موسى صعقاً، فكيف لو تجلى

١ ـ تفسير المنار ٣: ١٧٠ ـ ١٧١.
٢ ـ سورة يس: ٣٨.
٣ ـ سورة الأنبياء: ٣٠.
٤ ـ رسالة الإسلام العددان ٥، ٦ السنة الثانية صفحة ٢٨.
٥ ـ مفردات غريب القرآن: ٢٥٥.

سبحانه بذاته وحقائق صفاته للإنسان؟ ومن هذا القبيل، أخفى الله على الناس معرفة الساعة رحمة بهم كيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها، وكيلا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا بالتحديد شدة قربها منهم، ولمثل هذا حجب الله عن العباد معرفة آجالهم، ليعيشوا في بحبوحة من أعمارهم»[١].

وواضح أنَّ هذا النص غير دقيق في تعبيره، وإلاّ فلا معنى لتصور إمكان تجلي الله تعالى بذاته وحقائق صفاته وإنّما يقصد ان النفس والتصور الإنساني يكلُّ غالبا عن تصور أقصى ما يمكن تصوره في الساحة الإلهية.

كما أنَّ من الواضح أنَّه يجمع إلى صف هذه الحكمة «حكمة إعطاء الناس على قدر إمكاناتهم» حكمة بث الأمن والأمل بإخفاء بعض الأمور عنهم جامعاً الحكمتين تحت عنوان رحمة الله بالإنسانية.

٥ ـ تحقيق بعض جوانب الإعجاز:

إن في هذا التشابه بعض ضروب الإعجاز، ففيه الإعجاز البلاغي حيث يقول الزرقاني: «لأنَّ كل ما استتبع فيه شيئاً من الخفاء المؤدي إلى التشابه، له مدخل عظيم في بلاغته وبلوغه الطرف الأعلى في البيان، ولو أخذنا في شرح هذا لضاق بنا المقام، وخرجنا جملة من هذا الميدان، إلى ميدان علوم البلاغة وما حوت من خواطر وأسرار، للإيجاز والإطناب والمساواة...»[٢].

وفيه الإعجاز العلمي حيث تنكشف على الزمن حقيقة ما رمى إليه القرآن من الآيات التي تشكِّل نوعاً متشابهاً لدى من لم يكونوا مطلَّعين على حقيقتها، في حين يكشف العلم عن الواقع بعد قرون مما يؤكِّد النسب السماوي للقرآن.

---

١ ـ مناهل العرفان ٣: ١٧٨.

٢ ـ مناهل العرفان ٢: ١٨٠.

وكذا يمكن إدخال بعض الآيات المخبرة بالغيب.

٦ ـ القرآن دستور يحوي بعض الاجمال ولا يمكن التفصيل فيه:

ويقصد بهذا: إنَّ القرآن لو أراد أن يبين كلَّ جوانب الحقيقة ويعين المصاديق الصحيحة وينفي الباطل منها لكان ذلك يستدعي مجلدات ضخمة، ولم يكن من الممكن إنزاله على ذلك النمط. ويتوضح هذا عند ملاحظة قصر فترة حياة الرسول ﷺ وانشغاله بالمشاكل الهائلة، وعدم قدرة المسلمين على استيعاب تلك المجلدات الضخمة، وحفظها من الضياع وأمثاله.

ولهذا يشير الزرقاني ـ بنوع من الاجمال ـ فيقول:

«ثانيتها: تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه؛ لأنَّ كل ما احتواه من تلك الوجوه المستلزمة للخفاء، دالٌّ على معان كثيرة زائدة على ما يستفاد من أصل الكلام، ولو عبر عن هذه المعاني الثانوية الكثيرة بألفاظ، لخرج القرآن في مجلدات واسعة ضخمة، يتعذر معها حفظه والمحافظة عليه﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾[1]»[2].

٧ ـ التعبير العام الذي لا ينفر المذاهب عنه

ويقول الفخر الرازي في تقريب هذا الوجه إنّه لو كان ـ أي القرآن ـ كله محكماً بالكلية، لما كان مطابقاً إلاّ لمذهب واحد، وكان بصريحه مبطلاً لجميع المذاهب المخالفة، وذلك منفّر لأرباب المذاهب الأُخرى عن النظر فيه، أمّا

١ ـ سورة الكهف: ١٠٩.

٢ ـ مناهل العرفان ٢: ١٨٠.

وجود المتشابه والمحكم فيطمع فيه كل مذهب أن يجد فيه كل ما يؤيد مذهبه، فيضطر إلى النظر فيه، وقد يتخلص المبطل من باطله إذا أمعن فيه النظر فيصل إلى الحق[١].

ملاحظات حول الوجوه السابقة

الملاحظة الأولى: يلزمنا أن نلحظ هذه الوجوه كلها أو أكثرها ـ لو تمت في نفسها ـ ونعتبرها رداً على سؤال: لم ورد المتشابه في القرآن الكريم؟

وذلك لأن البعض منها إنّما يصح في بعض الآيات المتشابهة دون غيرها، وقد التفت إلى هذه النقطة بعض الباحثين.

الملاحظة الثانية: أنّ بعض الوجوه السابقة لا يمكن المساعدة عليه، وخصوصاً الوجه الأخير، فإنَّ القرآن هو الفارق بين الحق والباطل وهو المقياس الحق ولا يمكن لهذا المقياس أن يكون عاماً مضللاً يمكّن كلاً من تصحيح مذهبه والتمسك به ضد الآخرين. وكذا بالنسبة للوجه الخامس في قسمه البلاغي، فإنَّ البلاغة تركّز أول ما تركز على إيصال المعنى بالدقة وبإطار لفظي جميل إلى السامع، أما الإبهام والتشابه فقد يتنافى والغرض البلاغي، اللهم إلاّ إذا كان هناك غرض آخر يستدعيه...فلا يمكن أن يكون التشابه معللاً بأنه ضرب من ضروب البلاغة أو ناتج لها.

الملاحظة الثالثة: إنّ أكثر ما ورد من وجوه، قد تعتبر تبريرات لما وقع، ولذا فإنّ روح المسألة تتركز في الحكم الثلاث (الثالثة، والرابعة، والسادسة) والتي يمكن جمعها تحت عنوان: (عدم إمكان خلو القرآن من التشابه) وذلك بعد

١ ـ تفسير الرازي ٧: ١٨٤.

ملاحظة دور القرآن كموضح لأعمق الحقائق، وكدستور عام، وكهاد يمنح كلاً بمقدار ما يستطيع تقبله. هذا هو روح الجواب وما ذكر من وجوه أخرى فهي ترتبط به وتدور حوله.

الملاحظة الرابعة: أنّ أهم اشكال يمكن ان يورد على وجود المتشابه يتلخص في تعبيرين:

الأول: أنّ القرآن الكريم، هدىً، ونور، وذكر، وفرقان، وحكيم، وما شابه ذلك، في حين أنّ التشابه لا ينسجم مع هذه الصفات؛ لأنه يوقع الإنسان في حيرة من معرفة الحقيقة، وربما كان بعض ما فيه لا يمكن معرفته مطلقاً.

الثاني: ما ذكره الفخر الرازي، من أنَّ وجود المتشابه في القرآن كان سبباً لاختلاف المذاهب والآراء وتمسك كل واحد منها بشيء من القرآن بالشكل الذي ينسجم مع مذهبه[1]، ونضيف على هذا فنقول:

إن بعض الآيات التي يشير إليها المستشكلون قد تجعل ـ بل جعلت ـ ذريعة للتمسك بعقائد تتناقض تمام التناقض مع العقيدة الإلهية، بل تقضي عليها من الأساس، وهذا يعني نقض الغرض الذي جاءت من أجله الرسالة... وهذا من مثل عقيدة التجسيم التي تساوق تقديم صورة هزيلة عن الله تعالى مما ينتهي الأمر إلى إنكاره في الواقع، وكذا من مثل عقيدة الجبر التي تنفي المسؤولية الأخلاقية وتوجد مشاكل كبرى، وعقيدة نفي العصمة عن الأنبياء التي تنتهي إلى التشكيك في أقوالهم وغير ذلك.

وعليه، فإنّ هذا الاشكال ـ بهذين التعبيرين ـ لا يمكن أن يدفع بهذه الوجوه التي مهما تصاعدت قيمتها فإنّها قد لا تعادل هذا الخسران الأساسي الكبير الذي

١ ـ تفسير الرازي ٧: ١٨٤.

يجرُّ الأُمة إلى الضياع والتمزق، ويقضي على العقيدة ويفقد القرآن ـ والعياذ بالله ـ صفته الهادية، أو أن يقال بتعادل الربح والخسران.

وهذا يدعونا لأن نتطلب وجود ما يعصم الأُمة من التفرّق والتمزّق والعقيدة من الانقلاب على أهدافها فما هو هذا المرجع الذي يجب الرجوع إليه؟

ما يبدو من الآية والروايات الشريفة أمران هما:

أ ـ **الآيات المحكمات**: ويفهم الإرجاع إليها من جعلها أمّاً للكتاب، والأمية لاريب تعني المرجعية، فهي التي تنفي إدخال صور باطلة في تصور الإنسان عن الآية أو إدخال مصاديق باطلة للمفهوم منها، ويحتاج هذا إلى رسوخ علمي في نفسه... ويبقى مجال كبير للتشابه خصوصاً لأولئك الذين في قلوبهم مرض ليغروا به الآخرين.

ب ـ **الراسخون في العلم**: وهم المرجع الثاني والأكثر عمومية لحل التشابه، فهم الذين يفسرون الدستور الإلهي ويعطون تفصيلاً له، ولهم يرجع في التفريق بين الحق والباطل، فهم محور وحدة الأُمة وملجأ العلم ومنتهى السبل، ولكن من هم هؤلاء الراسخون في العلم؟

إنّ الروايات المتواترة معنى عن النبي صلى الله عليه وآله تركزّ بصورة عامة على مرجعية النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام للأُمة في كل ما يبدو لها من غموض في كل شيء، ومن جوانب الغموض هذا التشابه الذي يلاحظ في بعض الآيات القرآنية، وأهم هذه الأحاديث حديث الثقلين الذي سلَّمت به الفرق الإسلامية، والذي أكَّد على اقتران العترة بالكتاب وعلى لزوم التمسك بهما معاً، وأنَّ الرجوع إليهما معاً عاصم من الضلال، وأنّهما لن يفترقا إلى يوم القيامة، وهكذا الأحاديث النبوية المختلفة في علم الإمام عليه السلام مثل حديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها». وقد أكّد

أهل البيت عليهم السلام على مرجعيتهم في كل الأُمور فهذا نهج البلاغة يصفهم بانهم: «موضع سر النبي، ولجأة أمره، وأنّهم أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي، وبهم يلحق التالي، وهم أزمّة الحق، وأعلام الدين وألسنة الصدق، وهم كمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم، وهم شجرة النبوة ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم وعندهم أبواب الحكم وضياء الأمر، وإن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا، وهم عيش العلم وموت الجهل وإن بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه»[١].

ويقول الإمام في نصٍّ رائع يعين المرجع في الشبهة: «فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجرب، والبارئ من ذي السقم، واعلموا انكم لن تعرفوا الحق حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند أهله، فإنّهم عيش العلم وموت الجهل. هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم وصحتهم عن منطقهم وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق»[٢].

وجاءت روايات أهل البيت عليهم السلام لتؤكّد هذا المعنى، فهناك أبواب عديدة في أهم المصادر الشيعية ومنها الكافي في أنّ الأرض لا تخلو من حجة وهم الحجة، وأنّهم شهداء الله عز وجل على خلقه وأنّهم الهداة، وأنّهم ولاة أمر الله وخزنة علمه، ونور الله، وأنّهم ورّاث الكتاب، وأنّهم يعلمون علمه كله، إلى غير ذلك من الأوصاف العظمى التي ذكروها لنا للإمام عليه السلام وهم الصادقون المصدقون.

١ ـ راجع نهج البلاغة ـ صبحي الصالح، ص ٧٣٣.
٢ ـ نهج البلاغة: ٢٠٦.

ويزداد التركيز على مرجعيتهم عليهم السلام، لذلك عندما تأتي الأحاديث المصرحة بأنّهم هم الراسخون في العلم دون غيرهم، فقد جاء في كلام للإمام أمير المؤمنين عليه السلام متحديا أولئك الذين ادعوا العلم والمرجعية فقال:

«أين الذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا، ان رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطي الهدي، ويستجلي العمي، إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم»[١]. وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله»[٢].

وعن بريد بن معاوية عن احدهما في قول الله عز وجل: «**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**»[٣]، «فرسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم، قد علَّمه الله عز وجل جميع ما انزل عليه من التنـزيل والتأويل وما كان الله لينزل عليه شيئا لم يعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله، والذين لا يعلمون تأويله إذا قال العالم فيهم بعلم فأجابهم الله بقوله: «**يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**»[٤] والقرآن خاص وعام ومحكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ، فالراسخون في العلم يعلمونه»[٥].

وعن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الراسخون في العلم أمير

١ ـ نهج البلاغة: ٢٠١.
٢ ـ الكافي ١: ٢١٣.
٣ ـ سورة آل عمران: ٧.
٤ ـ سورة آل عمران: ٧.
٥ ـ الكافي ١: ٢١٣.

المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام من بعده: [١]. وهكذا نعرف: أنّ الوجوه الصحيحة من الحكمة إذا لوحظت في جو من المرجعية الفكرية للرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام شكَّلت حكماً حياً ولم تعد أية شبهة في أداء المتشابه إلى التفرق المذهبي العقائدي....

هذا ولا معنى لأن ينقض علينا، بأنَّه إن كان الأمر كما تقولون فلم هذا التفرق والتمزق؟ وذلك لأنه لمّا كانت الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة قد أدت دورها الكامل الواضح في الإرجاع نحو أهل البيت عليهم السلام لم يعد هناك سبب من طرف الشارع المقدس يدعو إلى التفرق والتمزق، بل عبئت كل الطاقات وأريد لكل هذه الحكم وغيرها من أهداف القرآن ان تؤدي دورها المطلوب في ظل المرجعية الفكرية والسياسية لهم: ... فإذا وجدنا التفرق بعد ذلك فهو من ذنب المتفرقين... .

فإن عادوا واعترضوا علينا بأنّ وجود المتشابه قد مكَّن لهم بعض الشيء تأييد عقائدهم الباطلة، عدنا وقلنا: إنَّ هذا يشبه التمسك بقول لأحد المتكلمين دون ملاحظة القول المفسر الذي تبعه لا لشيء إلاّ عن زيغ ومرض في القلب... فهذا أمر لا يمكن التخلص منه وهنا يكون الامتحان والبلاء ليمحص الذين يرجعون للقرآن بموضوعية ممن يبتغون الفتنة ويبتغون تأويله دون الرجوع إلى المرجع المفروض. وأخيراً يمكن أن نضيف إلى تلك الحكم المذكورة نفس هذا الإطار العام الذي تعمل في ظله تلك الحكم، ونعني بذلك أنّ وجود المتشابه في القرآن يؤدي بالتبع للاتجاه نحو القادة للاستزادة والاستيضاح عن تفاصيل ذلك الدستور الإلهي الخالد.

---

١ ـ الكافي ١: ٢١٣.

فتكون النتيجة ملخّصة في ما يلي:

١ ـ أكثر تلك الحكم المذكورة إذا جمعت إلى بعضها شكَّلت أمراً يعتمد عليه وحكمة جيدة لمجيء المتشابه، إلاّ أنَّ الإشكال الذي يورد على ذلك لا يمكن رده بتلك الحكمة إلاّ في إطار جعل المرجع الذي يرفع الخلاف.

٢ ـ ذلك المرجع هو الآيات المحكمات وكذلك (الراسخون) في العلم.

٣ ـ إنّ الراسخين في العلم هم النبي صلى الله عليه وآله والقادة من أهل البيت عليهم السلام.

أهم كتب المتشابه:

اهتم المفسرون بهذا الموضوع وأهم ما الف فيه هو ما يلي:

١ـ المتشابه لأبي عمارة الزيات من أصحاب الصادق عليه السلام.

٢ـ المتشابه للكسائي (ت ١٨٩).

٣ـ المتشابه لأبي عبيدة بن المثنى (ت ٢٠٩).

٤ـ المتشابه لمحمد بن هذيل العلاف (ت ٢٥٣).

٥ـ المتشابه لجعفر بن حرب (ت ٢٣٦).

٦ـ المتشابه لابن المنادى (ت٢٥٦).

٧ـ المتشابه للجبائي (ت ٣٠٣).

٨ ـ المتشابه للشريف الرضي (ت٤٠٦).

٩ـ المتشابه للعميري (ت ٤٣٢).

١٠ـ المتشابه لابن شهر آشوب (ت ٥٨٨).

١١ـ المتشابه للسخاوي (ت ٦٤٣).

١٢ـ المتشابه لمحمد بن محمد (ت٧٤٥).

١٣ـ المتشابه لابن اللبان الأشعري (ت٧٤٩).

١٤ـ المتشابه للسيوطي (ت٩١١).

١٥ـ المتشابه للملا صدرا (ت١٠٥٠).

١٦ـ المتشابه للدرديري (ت ١٢٠١).

ويلاحظ أن الكثير من هذه الكتب الف في القرنين الثالث والرابع والخامس.

حديث عن بعض هذه الكتب

ونحن نتحدث بشيء من التركيز عن بعضها كما يلي:

١ـ كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن، للقاضي عبدالجبار المعتزلي.

وبطبيعة الحال طرح الموضوع وفق الرؤية الاعتزالية التي تحتكم للعقل في فهم النصوص.

وقد عالج ٨٤٦ شبهة أو طعناً وفق ترتيب سور القرآن، ونصف هذه الشبهة جاءت في ثلاث عشرة سورة فهو تارة يذكر تعارض آيتين ظاهراً ويعمل على حله، وأخرى بعرض آية ويجيب على الشبهة الواردة فيها، وثالثة يبدأ السورة بمقدمة عامة، يتحدث فيها عن هدفها ثم يعرض المطاعن ويجيب عليها، ورابعة يشرح الآية وفوائدها ودلالاتها داعياً إلى التأمل.

ويتمتع تفسيره بما يلي:

١ـ الاستدلال بالأحاديث الشريفة.

٢ـ الرجوع إلى أقوال الصحابة.

٣ـ الرجوع إلى اللغة.

٤ـ الاستعانة بكلام المفسرين.

٥ـ ترجيح الوجوه وتفضيل الرأي المختار.

٦ـ تأويل بعض الآيات.

٧ـ القدرة الجيدة على الجدل.

٨ ـ الاستعانة بالقرآن لتأييد رأيه.

ومصادره: كتب الحديث والتفسير والفقه واللغة.

ويستعين بالتناسب، والسياق وأسباب النزول، والقراءات والنسخ والفقه وربما تعرض إلى عدة شبهات في بيان واحد فهو يقول في سورة يوسف وهو يدفع عدة شبهات.

عدّة شبهات

وربما قيل: كيف يجوز أن يخفى خبره عليهم المدة الطويلة مع قرب المسافة بين مصر وبين البدو الذي كانوا فيه حتى يجري الأمر على ما ذكره الله عزّ وجلّ في كتابه؟ وجوابنا: أن إخوة يوسف لما أقدموا على ما فعلوه في أمر يوسف وجملة جماعة من السيارة وقد اشتروه بثمن بخس ظنوا فيه خلاف ما ظهر، فقل تفتيشهم عنه ولما حمل واشتراه ذلك العزيز لامرأته واتخذاه كالولد كان كالمكتوم عن الناس مع حسن صورته ومثله ربما يخشى ظهوره. ثم أقام محبوساً ما أقام وتردد في المجلس فعمي أمره وقد طالت المدة فلذلك ولأمثاله خفي خبره على أبيه وإخوته. فأما خبرهم فلم يخف عليه لأن الذي عامل به إخوته يدل على أنه كان بذلك عارفاً وكان يتلطف في تحصيل أخيه ثم أبيه بالوجوه التي أباحها الله تعالى، ومثل هذا السبب قد يخفى عنده الخبر فلذلك خفي على يعقوب وعلى إخوته خبره. فإن قيل: كيف يجوز مع شدة محبة يعقوب أن لا يفتش عن خبره وقد كان قال لهم ما يدل على أنه اتهمهم في أن

الذئب أكله؟ وجوابنا: أنت يعقوب ما كان يعرف الأخبار إلاّ من جهة أولاده لأن سائر الناس كان يقبض عنهم وأولاده كانوا لا يفتشون عن ذلك لأن سبب الجناية كان منهم وظنوا أنه مفقود في الحقيقة، ولأن شدة حزنه وما لقي من المحن في تلك السنين كان يشغل عن مثله فإن قيل: كيف يجوز من يعقوب وهو نبي أن يحزن كل ذلك الحزن على يوسف أو ليس ذلك يصرف عن أمور الآخرة؟ قيل له: قد أبيح للوالد محبة الولد والسرور بأحواله خصوصاً إذا كان الولد على مثل صفات يوسف أو ما يقاربها، ويحتمل أنه كان اشتد لأنه ظن أنه قصّر في حفظه وأنه فرط في أن سلّمه منهم فتضاعف حزنه لذلك أيضاً. فإن قيل له: كيف جاز أن يقول يوسف وقد السقاية في رحل أخيه إنهم لسارقون وهذا في الظاهر كذب[1]؟

وجوابنا: أن جعل السقاية في رحل أخيه يجوز أن يكون من قبله بأمره فأما ما قاله المؤذن من أنهم سارقون فهو من قبل المؤذن لا من قبل يوسف. فإن قيل: كيف قال: ﴿**قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ۞ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾[2].

وجوابنا: أن كل ذلك ليس من قول يوسف فاما تملك السارق فقد كان بين ذلك الملك ويجوز أن يكون في بعض شرائع الأنبياء فلذلك قالوا: فهو جزاؤه. فإن قيل: وكيف قال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ**﴾[3]

١ ـ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: الآية ٧٠].

٢ ـ يوسف: الآيتان ٧٤، ٧٥.

٣ ـ يوسف: ٧٦.

وأخذه على هذا الوجه معصية لايجوز أن يشاءه الله فكيف يصح ذلك؟ وجوابنا: أن المراد مشيئة جعلوا هناك حتى يصبح أخذه لأن كل ذلك مما يجوز أن يشاءه الله ولذلك قال: ﴿**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء**﴾[١].

فإن قيل: كيف يصح أن يقول يعقوب عليه السلام: ﴿**إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ**﴾[٢]

فيضيف إليهم التفنيد والذم له؟ وكيف جاز أن يقولوا له: ﴿**إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ**﴾[٣]

فينسبون الضلال إليه؟ وجوابنا: أنه لا يمتنع أن يجد ريح يوسف وامارات حياته وأن يكون الله تعالى قوّى ذلك لما أراده من اجتماعهم. وأما الضلال في اللغة فهو الذهاب عن الشيء الذي فيه نفع فأرادوا بقولهم: ﴿**إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ**﴾ أنك تجري على عادتك في العدول عما ينفعك ومثل ذلك قد يجوز أن يقال للأنبياء فيما يتعلق بأمور الدنيا، فإن قيل: كيف يعود بصيراً بإلقاء القميص إليه[٤]؟ قيل له: أنه نبي، وفي أيام الأنبياء قد يصح ظهور ما يخرج عن العادة فإن لم يكن من معجزات يعقوب فهو من معجزات يوسف فلا سؤال في ذلك. واختلفوا فقال بعضهم: كان بصره قد ضعف لا أنه قد زال، ومثل ذلك كالمعتاد.

٢ ـ أمالي السيد المرتضى (ت٤٣٦).

ورغم أن كتاب (الأمالي) لم يختص برفع التشابه بل تناول موضوعات متفرقة

---

١ ـ الأنعام: ٨٣.

٢ ـ يوسف: ٩٤.

٣ ـ يوسف: ٩٥.

٤ ـ وذلك في قوله تعالى: ﴿اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: الآية ٩٣].

ـ كما هو ديدن كتب الأمالي ـ إلا أنه ركز على أكثر الشبه وحل الكثير من التشابه طبعاً على الطريقة الشيعية.

ويتميز السيد الشريف المرتضى بالموسوعية وبسعة المعلومات والقدرة الفائقة على الإثبات وإبطال أقوال الطرف المقابل وقد عاش في بغداد موئل العلم وتحت ظل حكومة بني بويه أهل العلم والذوق والفن وتعلم هو وأخوه السيد الشريف الرضي على يد الشيخ المفيد وهو من هو في العلم والرئاسة.

وللسيد المرتضى مؤلفات كثيرة تجاوزت السبعين.

أما الأمالي فهي واحة غناء حافلة بألوان المعارف، عمرت بها المجالس وتنوعت فيها الأغراض ومنها حل التشابه ورفع بعض الغوامض وعرض بعض جوانب علم الكلام، وتراجم بعض الشعراء، وستأتي بعض المقتبسات منها عند الحديث عن مسألة (الرؤية).

٣ـ مشابه القرآن والمختلف فيه للحافظ محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني، وهو الإمام الفقيه المحدث (٥٨٨) وكان أيضاً موسوعياً شاعراً محدثاً وقد طبع كتابه حديثاً في خمسة مجلدات وتعرض فيه لمعاني المحكم والمتشابه والأقوال فيها، والحكمة في اشتمال القرآن عليهما.

ويتمتع بحسن الأسلوب وجودة الترتيب بادئاً بالتوحيد. وقد ذكر العلامة معرفت أنه خير ما كتب في هذا الموضوع.

وقد اعتمد منهج تفسير القرآن بالقرآن ثم بالأثر ثم بالإجماع وسيأتي ذكر بعض النصوص مه في مبحث (الرؤية).

نماذج من البحث في المتشابه

النموذج الأول: مسألة الرؤية والتشبيه والتجسيم

وتركز على موضوع إمكان الرؤية البصرية لله تعالى في الدنيا أو الآخرة وهي تستلزم التشبيه والتجسيم فقد جاءت في القرآن الكريم آيات يظهر منها إمكان الرؤية من قبيل: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾[١].

وآيات يظهر منها التجسيم من قبيل قوله تعالى: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ**﴾[٣] وغيرها.

في حين جاءت آيات تنفي ذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[٥]. مما أظهر نوعاً من التعارض البدوي.

ومسألة الرؤية نفاها أهل البيت عليهم السلام والصحابة والفلاسفة والمعتزلة لأنها تستلزم التشبيه والجسمية والحاجة إلى المكان والجهة.

ولكن الحنابلة بل الأشاعرة عموماً ويشملون أكثر الحنفية والمالكية والشافعية تبنوها سواء في الدنيا والآخرة مستندين إلى بعض الآيات والروايات.

---

١ ـ القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
٢ ـ سورة ص: ٧٥.
٣ ـ القصص: ٨٨.
٤ ـ الأنعام: ١٠٣.
٥ ـ الشورى: ١١.

والذي يبدو أن مشهور الصحابة وأم المؤمنين عائشة[١] نفوا ذلك مطلقاً.

فقد روي في صحيح البخاري[٢] عن عامر بن مسروق قال: قلت لعائشة يا أمتاه هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فقالت: لقد قفَّ شعري مما قلت! أين أنت من ثلاث من حدّثكهن فقد كذب؛ من حدّثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب. ثمّ قرأت: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنَ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْيًا أَوْ من وَرَاء حِجَابٍ**﴾، ومن حدّثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثمّ قرأت: ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا**﴾ ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثمّ قرأت: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...**﴾ الآية.

ولكنه رأى جبرئيل في صورته مرتين.

وجاء هذا المضمون في الجزء ٨ ص١٦٦ ومن المعروف أن الصحابة قاوموا مسألة رؤية الله تعالى ولكن الدولة الأموية تبنت نشرها فكانت مركز القول بها لأنها كانت مركزاً لكعب الاحبار ومن تبعه[٣].

وقال النويري في نهاية الأرب[٤] قال وهب: واختلف العلماء في معنى (التجلّي)، قال ابن عبّاس: ظهر نوره للجبل.

وقال ابن قيم الجوزية:

واختلف الصحابة هل رأى ربه تلك الليلة أم لا؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه وصح عنه أنه رآه بفؤاده[٥].

---

١ ـ العقائد الإسلامية: مركز المصطفى للدراسات الإسلامية تحت اشراف آية الله السيستاني ٢: ٧.

٢ ـ ج ٦ ص ٥٠.

٣ ـ نفس المصدر ٢: ١٠.

٤ ـ ج ٧، ج ٣ ص٢١١.

٥ ـ زاد المعاد ٣: ٢٩.

والحقيقة أن المسألة عادت محل تضارب الآراء والنقول والمهم لدينا أن نرجع إلى الدليل العقلي في البين ويتلخص في أن الرؤية تستلزم التجسيم والتشبيه والحاجة إلى الجهة والمحدودية وأمثال ذلك وكلها محال على الله الكامل المطلق الغني، ويجب أن تؤول الآيات التي يبدو منها التجسيم والتشبيه والرؤية لأن العقل قرينة ارتكازية على أن المراد هو غير الظاهر. وعلى أي حال فمن الواضح من أحاديث أهل البيت عليهم السلام أنهم يرفضون الرؤية البصرية جملة وتفصيلاً. وهذه بعض الأحاديث:

١ـ في أمالي الشيخ الطوسي عن ابن ناتانه عن علي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن إبراهيم الكرخي قال: قلت للصادق جعفر بن محمد: إن رجلاً رأى ربه عزّ وجلّ في منامه فما يكون ذلك؟ فقال: رجل لا دين له، إن الله تبارك وتعالى لا يُرى في اليقظة ولا في المنام ولا في الدنيا ولا في الآخرة[١].

٢ـ حدثنا محمد بن الحسن بن أحمد عن الوليد... عن حمزة بن محمد قال: كتبت إلى أبي الحسن اسأله عن الجسم والصورة فكتب: سبحانه من ليس كمثله شيء لا جسم ولا صورة[٢].

٣ ـ وروى الكليني عن يعقوب بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي محمد اسأله: كيف يعبد العبد ربه وهو لا يراه؟ فوقع عليه السلام: يا أبا يوسف؛ جل سيدي ومولاي والمنعم علي وعلى آبائي أن يرى. قال: وسألته هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربه؟

١ ـ البحار ٤: ٣٢ ومثله ما جاء في تاريخ دمشق ٥٦: ٩٠.
٢ ـ التوحيد للصدوق: ٥٧.

فوقع: إن الله تبارك وتعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمته ما أحب[١].

والأحاديث كثيرة في هذا المجال عن أهل البيت عليهم السلام وهي تجمع على استحالة الرؤية[٢] وهو ما يطابق أحكام العقل[٣].

أقوال بعض المفسرين الشيعة

قال السيد المرتضى في الأمالي:

مسألة[٤]

قال الشريف المرتضى: اعلم أن أصحابنا لما استدلوا على نفي الرؤية بالأبصار عن الله تعالى بقوله: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[٥]، وبينوا أنه تعالى تمدّح بنفي الإدراك الذي هو رؤية البصر عن نفسه على وجه يرجع إلى ذاته؛ فيجب أن يكون في ثبوت الرؤية له في وقت من الأوقات نقص وذم. قال لهم مخالفوهم: كيف يتمدّح بأنه لا يرى، وقد يشاركه في نفي الرؤية ما ليس بممدوح؛ كالمعدومات والإرادات والاعتقادات؟ فقالوا لهم: لم يتمدّح تعالى بنفي الرؤية فقط، وإنما تمدّح بنفي الرؤية عنه وإثباتها له، فتمدّحه بمجموع الأمرين؛

وليس يشاركه في هاتين الصفتين مشارك؛ لأن الموجودات المحدثات على ضروب؛ منها لا يَرى ولا يُرى كالإرادات والاعتقادات، ومنها ما يُرى ولا يَرى

١ ـ الكافي ١: ٩٥ باب في ابطال الرؤية، المجلسي في البحار ٤: ٤٣.
٢ ـ يراجع الفصل الرابع من كتاب العقائد الإسلامية ص ١٣٣.
٣ ـ راجع كتاب العلامة شرف الدين: كلمة حول الرؤية.
٤ ـ ج ١ ص ٤٩.
٥ ـ الأنعام: ١٠٣.

كالألوان، ومنها ما يَرى ويُرى كالإنسان وضروب الأحياء؛ وليس فيها ما يَرى ولا يُرى؛ فثبتت المدحة لله تعالى بمتضمّن الآية.

فقال لهم المخالفون: وكيف يجوز أن تكون صفة لا تقتضي المدحة بانفرادها، ثم تصير تقتضيها مع غيرها! ولئن جاز هذا ليجوزنّ أن يتمدّح متمدح بأنه شيء عالم، أو موجود قادر؛ فإذا كان لا مدحة في وصف الذات بأنها شيء وموجود، وإن انضمّت إلى صفة مدح من حيث كانت بانفرادها لا تقتضي مدحاً، فكذلك لا مدحة في نفي الرؤية عمّن ثبتت له، من حيث كانت بانفرادها لا تقتضي مدحاً. فأجاب أصحابنا عن هذا الكلام بأن قالوا: ليس يمتنع في الصفة أن تكون لا تقتضي مدحاً إذا انفردت، وتقتضيه إذا انضمت إلى غيرها، ومثلوا ذلك بقوله تعالى: ﴿**لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ**﴾[1].

وإن نفي السنة والنوم هاهنا إنما يكون مدحاً إذا انتفى عمن هو بصفة الأحياء، وإن كان بانفراده لا يقتضي مدحاً لمشاركة ذوات كثيرة غير ممدوحة فيه، وفصلوا بين الوصف بالشيء والوجود، وبين ما ذكروا من حيث لا تأثير لهاتينك الصفتين في المدح.

واعلم أن صفات المدح المتضمنة للإثبات ما تكاد تفتقر إلى شرط في كونها مدحاً. وصفات النفي إذا كانت مدحاً فلابدّ فيها من شرط؛ وإنما افترق الأمران من حيث كان النفي أعم من الإثبات؛ فيدخل تحته الممدوح وغير الممدوح، والإثبات أشدّ اختصاصاً؛ ألا ترى أنّ ما ليس بعالم من الذوات وليس بموجود أكثر مما ثبت له العلم والوجود منها؟ لأنّ الأول لا يكون إلا غير متناه، والثاني لابد أن يكون متناهياً، فلما شملت صفات النفي الممدوح وغير الممدوح احتاجت إلى شرط يخصصها.

---

١ ـ البقرة: ٢٥٥.

وأنت إذا اعتبرت سائر صفات النفي التي يتمدّح بها وجدتها مفتقرة إلى الشروط؛ ألا ترى أنّ من ليس بجاهل إنما يكون ممدوحاً بهذا النفي إذا كان حيّاً ذاكراً، ومن ليس بعاجز إنما يكون ممدوحاً إذا كان أيضاً موجوداً حياً، ومن ليس بظالم إنما يكون ممدوحاً إذا كان قادراً على الظلم وله دواع إليه، ولابدّ في الشرط الذي يحتاج إليه في صفات النفي حتى تكون مدحاً من أن يكون أيضاً إثباتاً أو جارياً مجرى الإثبات، ولا يكون نفياً لأنه إن كان نفياً لم يتخصص، وساوى فيه الممدوح ما ليس بممدوح؛ مثال ذلك أنا إذا مدحنا غيرنا بأنه لا يظلم، وشرطنا في هذه المذحة أنه لم يذعه داع إلى الظلم لم تحصل المدحة، لأنه قد يشاركه في نفي الظلم ونفي الدواعي إليه ما ليس بممدوح، فلابدّ من شرط يجري مجرى الإثبات؛ وهو أن تقول: وهو ممّن تدعوه الدواعي إلى الأفعال ويتصرّف فيها بحسب حاجته ودواعيه.

فإذا صحت هذه الجملة فالوجه أن نقول: إن المدحة في الآية إنما تتعلق بنفي الإدراك عن القديم تعالى، لكن بشرط أن يكون مدركاً، ولا نجعل كلّ واحدة من الصفتين المدح مجتمعاً؛ مع أنّ كل واحدة لا تقتضيه على سبيل الانفراد، وليس بمنكر أن يقتضي الشيء غيره بشرط متى وجد حصل المقتضى، وإذا لم يحصل لم يحصل مقتضاه، ونفي السنة والنوم والظلم عن الله تعالى إنما كان مدحاً بشروط معروفة على نحو ما ذكرناه؛ وهذا التلخيص في هذا الموضع أولى وأحسم للشبه مما تقدّم ذكره.

وقال في مجلس آخر[1]

١ ـ ج ٢ ص ١٨٥.

تأويل آية

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِميقَاتنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1].

وقال: ما تنكرون أن تكون هذه الآية دالة على جواز الرؤية عليه عزّ وجلّ! لأنها لو لم تجز لم يجز أن يسألها موسى عليه السلام؛ كما لا يجوز أن يسأل اتخاذ الصاحبة والولد؛ ولو كانت أيضاً الرؤية مستحيلة لم يعلّقها بأمر يصح أن يقع وهو استقرار الجبل. فإذا علمنا صحة استقرار الجبل في موضعه فيجب أن تكون الرؤية أيضاً صحيحة في حكم ما علّقت به. وقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ**﴾ يقتضي جواز الحجاب عليه تعالى؛ لأن التجلّي والظهور لا يكونان إلاّ بعد احتجاب واستتار.

الجواب، قلنا: أول ما نقوله إنه ليس في مسألة الشيء دلالة على صحة وقوعه ولا جوازه؛ لأن السائل يسأل عن الصحيح والمحال، مع العلم وفقد العلم؛ لأغراض مختلفة؛ فلا دلالة في ظاهر مسألة الرؤية على جوازها.

ولأصحابنا عن هذه المسألة أجوبة:

أولها وهو الأولى والأقوى أن يكون موسى عليه السلام يسأل الرؤية لنفسه؛ وإنما سألها لقومه، فقد روي أنهم طلبوا ذلك منه والتمسوه، فأجابهم بأنها لا تجوز عليه تبارك وتعالى؛ فلم يقنعوا بجوابه، وآثروا أن يرد الجواب من قِبَل ربه تعالى،

١ ـ الأعراف: ١٤٣.

فوعدهم ذلك، وغلبت في ظنه أن الجواب إذ ورد من جهته جلّ وعزّ كان أحسم للشبهة؛ وأبلغ في دفعها عنهم، فاختار السبعين الذين حضروا الميقات؛ ليكون سؤاله بمحضر منهم، فيعرفوا ما يرد من الجواب، فسأل وأجيب بما يدل على أن الرؤية لا تجوز عليه تعالى.

ويقوّي هذا الجواب أشياء، منها قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا**﴾[١].

ومنها قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾[٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا**﴾[٣] لأن إضافة ذلك إلى السفهاء تدلّ على أنه كان بسببهم ومن أجلهم؛ وإنما سألوا ما لا يجوز عليه.

ومنها ذكره الجهرة في الرؤية، وهي لا تليق إلا برؤية البصر دون العلم؛ وهذا يقوّي أن الطلب لم يكن للعلم الضروري، على ما سنذكره في الجواب الثاني.

ومنها قوله: ﴿**أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ لأنا إذا حلمنا الآية على طلب الرؤية لقومه أمكن أن يحمل قوله: ﴿**أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ على حقيقته؛ فإذا حملت الآية على طلب العلم الضروري احتيج إلى حذف في الكلام، ويصير تقديره: أرني أنظر إلى الآيات

١ ـ النساء: ١٥٣.
٢ ـ البقرة: ٥٥.
٣ ـ الأعراف: ١٥٥.

التي عندها أعرفك ضرورة. ويمكن في هذا الوجه الأخير خاصة أن يقال: إذا كان المذهب الصحيح عندكم هو أنّ النظر في الحقيقة غير الرؤية، فكيف يكون قوله: ﴿**أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ حقيقة في جواب من حمل الآية على طلب الرؤية لقومه؟

فإن قلتم: لا يمتنع أن يكونوا التمسوا الرؤية التي معها يكون النظر والتحديق إلى الجهة، فسأل على حسب ما التمسوا.

قيل لكم: هذا ينقض فرقكم في هذا الجواب بين سؤال الرؤية، وبين سؤال جميع ما يستحيل عليه من الصاحبة والولد؛ وما يقتضي الجسمية بأن تقولوا: الشك في الرؤية لا يمنع من صحة معرفة السمع، والشكّ في جميع ما ذكر يمنع من ذلك؛ لأن الشكّ الذي لا يمنع من معرفة السمع إنما هو في الرؤية التي لا يكون معها نظر، ولا تقتضي التشبيه.

فإن قلتم: ذكر النظر على أن المراد به نفس الرؤية على سبيل المجاز؛ لأنّ من عادة العرب أن يسمّوا الشيء باسم الطريق إليه، وما قاربه وداناه.

قلنا: فكأنكم عدلتم من مجاز إلى مجاز؛ فلا قوة في هذا الوجه؛ والوجوه التي ذكرناها في تقوية هذا الجواب المتقدمة أولى.

وليس لأحد أن يقول: لو كان إنما سأله الرؤية لقومه لم يضف السؤال إلى نفسه فيقول: ﴿**أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ ولا كان الجواب مختصاً به؛ وهو قوله تعالى: ﴿ **لَن تَرَانِي**﴾ ، وذلك لأنه غير ممتنع وقوع الإضافة على هذا الوجه؛ مع أن المسألة كانت من أجل الغير؛ إذا كانت هناك دلالة تؤمن من اللبس وتزيل الشبهة. فلهذا يقول أحدنا إذا شفع في حاجة غيره للمشفوع له: أسألك أن تفعل بي كذا، وتجيبني إلى كذا. ويحسن أن يقول المشفوع إليه: قد أجبتك وشفّعتك، وما جرى مجرى ذلك، وإنما حسن هذا لأن للسائل في المسألة غرضاً، وإن

رجعت إلى الغير فتحققّه بها وتكلّفه كتكلّفة إذا اختصه ولم يتعدّه.

فإن قيل؛ كيف يجوز منه مع علمه باستحالة ا لرؤية عليه تعالى أن يسأل فيها لقومه! ولئن جاز ذلك ليجوزنّ أن يسأل لقومه سائر ما يستحيل عليه من كونه جسماً، وما أشبهه متى شكّوا فيه.

قلنا: إنما صحّ ما ذكرناه في الرؤية ولم يصحّ فيما سألت عنه؛ لأن مع الشك في جواز الرؤية التي لا تقتضي كونه جسماً يمكن معرفة السمع، وأنه حكيم صادق في أخباره، فيصح أن يعرفوا بالجواب الوارد من جهته تعالى استحالة ما شكّوا في صحته وجوازه؛ ومع الشك في كونه جسماً لا يصحّ معرفة السمع، فلا يقع بجوابه انتفاع ولا علم.

وقد قال بعض من تكلم في هذه الآية: قد كان جائزاً أن يسأل موسى عليه السلام لقومه ما يعلم استحالته؛ وإن كانت دلالة السمع لا تثبت قبل معرفته؛ متى كان المعلوم أن في ذلك صلاحاً للمكلّفين في الدين، وإنّ ورود الجواب يكون لطفاً لهم في النظر في الأدلة، وإصابة الحق منها؛ غير أن من أجاب بذلك شرط أن يتبين النبي صلى الله عليه وآله في مسألته علمه باستحالة ما سأل عنه، وأن غرضه في السؤال ورود الجواب ليكون لطفاً.

والجواب الثاني في الآية أن يكون موسى عليه السلام إنما سأل ربّه أن يعلمه نفسه ضرورة بإظهار بعض أعلام الآخرة، التي تضطرّ إلى المعرفة، فتزول عنه الدواعي والشكوك والشبهات، ويستغني عن الاستدلال، فتخفّ المحنة عليه بذلك؛ كما سأل إبراهيم عليه السلام ربه تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى طلباً لتخفيف المحنة، وإن كان قد عرف ذلك قبل أن يراه؛ والسؤال إن وقع بلفظ الرؤية فإن الرؤية تفيد العلم كما تفيد الإدراك بالبصر، وذلك أظهر من أن يستدل عليه أو يستشهد عليه؛ فقال له جلّ وعزّ: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾ أي لن تعلمني على هذا الوجه الذي

التمسته مني، ثم أكد ذلك بأن أظهر في الجبل من آياته وعجائبه ما دلّ به على أنّ إظهار ما تقع به المعرفة الضرورية في الدنيا مع التكليف وبيانه لا يجوز، وأن الحكمة تمنع منه. وقعت من المسألة أو من أمر يرجع إليها؛ وقد يجوز أن يكون سأل ذلك؛ إما لذنب صغير تقدم تلك الحال، أو تقدم النبوة فلا ترجع إلى المسألة. وقد يجوز أن يكون ما أظهره من التوبة على سبيل الرجوع إلى الله تعالى؛ وإظهار الانقطاع إليه، والتقرب منه، وإن لم يكن هناك ذنب معروف.

وقد يجوز أن يكون الغرض في ذلك مضافاً إلى ما قلناه وتوفيقاً على ما نستعمله وندعو به عند الشدائد ونزول الأهوال، وتنبيه القوم المخطئين خاصة على التوبة مما التمسوه من الرؤية المستحيلة عليه تعالى؛ فإن الأنبياء، وإن لم يقع منهم القبيح عندنا فقد يقع من غيرهم؛ ويحتاج من وقع ذلك منه إلى التوبة والاستقالة.

فأما قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ**﴾ فإن التجلّي هاهنا التعريف والإعلام والإظهار لما تقتضي المعرفة، كقولهم: هذا كلام جلي أي واضح، وكقول الشاعر:

تجلَّى لنا بالمَشرَفِية والقَنَا وقد كان عن وقعَ الأسنَّة نائيا

أراد أن تدبيره دل عليه حتى علم أنه المدبر له وإن كان نائياً عن وقع الأسنة، فأقام ما ظهر من دلالة فعله مقام مشاهدته، وعبر عنه بأنه تجلّى منه.

وفي قوله: ﴿**لِلْجَبَلِ**﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون لأهل الجبل، ومن كان عند الجبل، فحذف؛ كما قال تعالى: ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ**﴾[1]؛ ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالأَرْضُ**﴾[1].

١ ـ يوسف: ٨٢.

وقد علمنا أنه بما أظهره من الآيات إنما دلّ من كان عند الجبل على أن رؤيته تعالى غير جائزة.

والوجه الآخر: أن يكون معنى ﴿**لِلْجَبَلِ**﴾ أي بالجبل، فأقام اللام مقام الباء؛ كما قال تعالى: ﴿**آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ**﴾[٢]؛ أي به؛ وكما يقولون: أخذتك لجرمك وبجرمك.

ولما كانت الآية الدالة على منع ما سئل فيه إنما حلّت الجبل وظهرت فيه جاز أن يضاف التجلي إليه.

وقد استدل بهذه الآية كثير من العلماء الموحدين على أنه تعالى لا يُرى بالأبصار من حيث نفى الرؤية نفياً عاماً بقوله تعالى: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾؛ ثم أكّد ذلك بأن علّق الرؤية باستقرار الجبل الذي علمنا أنه لم يستقرّ. وهذه طريقة للعرب في تبعيد الشيء؛ لأنهم يعلقونه بما يعلم أنه لا يكون؛ كقولهم: لا كلمتك ما أضاء الفجر، وطلعت الشمس؛ وكقول الشاعر:

إذا شابَ الغُرابُ رَجوتُ أهلي وَصارَ القارُ كاللبن الحليب

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾[٣].

وليس لأحد أن يقول: إذا علّق الرؤية باستقرار الجبل؛ وكان ذلك في مقدوره، فيجب أن تكون الرؤية معلقة به أيضاً في مقدوره؛ بأنه لو كان الغرض بذلك التعبيد لعلّقه بأمر يستحيل، كما علّق دخولهم الجنة بأمر مستحيل؛ من

١ ـ الدخان: ٢٩.
٢ ـ الأعراف: ١٢٣.
٣ ـ الأعراف: ٤٠.

ولوج الجمل في سمّ الخياط؛ وذلك أن تشبيه الشيء بغيره لا يجب أن يكون من جميع الوجوه؛ ولمّا علق وقوع الرؤية باستقرار الجبل وقد علم أنه لا يستقر ـ علم نفي الرؤية. وما عدا ذلك من كون الرؤية مستحيلة وغير مقدورة، واستقرار الجبل بخلافها يخرج عن ما هو الغرض في التشبيه على أنه إنما علّق تعالى جواز الرؤية باستقرار الجبل في تلك الحال التي جعله فيها دكّاً، وذلك محال لما فيه من اجتماع الضدين، فجرى مجرى جواز الرؤية في الاستحالة. وليس يجب في كل ما علق بغيره أن يجري مجراه في سائر وجوهه؛ حتى إذا كان أحدهما مع انتفائه مستحيلاً كان الآخر بمثابته؛ لأن تعلّق دخول الكفار الجنة إنما علّق بولوج الجمل في سمّ الخياط؛ وولوج الجمل في سمّ الخياط مستحيل، بل معلوم أن الأول في المقدور وإن كان لا يحسن والثاني ليس في المقدور. وهذه الجملة كافية في تأويل هذه الآية، وبيان ما فيها، والحمد لله.

وقال ابن شهر آشوب في ج ١ ص٣٥٦ من فصل ٤٥:

في الرؤية

قوله تعالى: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾[1].

تمدّح سبحانه بالإجماع، وبما يقتضيه سياق الآية بنفي إدراك الأبصار الذي هو رؤيتها.

وهذا التمدّح راجع إلى ذاته، لأنّ الإدراك، ليس بمعنى، فيتمدّح بألا يفعله على سبيل التفضيل، وكلّ ما تمدّح بنفيه ـ على هذا الوجه ـ لا يكون إثباته إلاّ نقصاً، وموجباً ذمّاً. وهو يتعالى عمّا يوجب الذمّ، والنقص. ألا ترى أنّه تعالى لمّا تمدّح

١ ـ الأنعام: ١٠٣.

بنفي الصاحبة، والولد، والسنة، والنوم في قوله: ﴿**مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا**﴾[١]، ﴿**لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**﴾[٢]، لم يجز إثبات شيء من ذلك في حال من الأحوال، لاقتضائه الذمّ، والنقض، كذلك ـ هاهنا ـ يوضح ذلك أنّ قبل الآية: ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[٣].

فتمدّح سبحانه بما تضمنته هذه الآيات من صفاته على حدّ واحد، لا يختلف فيه الحال، وكلّ ما كان نفيه مدحاً، فلا يكون إثباته إلاّ ذمّاً عند أهل اللسان.

الرضا[٤] عليه السلام: «لاتدركه أوهام القلوب، فكيف تدركه أبصار العيون».

الصادق[٥] عليه السلام: أي: إحاطة الوهم. ألا ترى إلى قوله: ﴿**قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ**﴾[٦]. يقال: فلان بصير بالدراهم، والثياب، والجوارح، والأشعار.

أبو جعفر الثاني[٧] عليه السلام: أوهام القلوب أدقّ من أبصار العيون. أنت قد تدرك بوهمك البلدان التي لم تدخلها، ولا تدركها ببصرك.

فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف تدركه الأبصار.

---

١ ـ الجنّ: ٣.

٢ ـ البقرة: ٢٥٥.

٣ ـ الأنعام: ١٠١ ـ ١٠٣.

٤ ـ أمالي الصدوق: ٣٦٧، مجمع البيان ٢: ٣٤٤، بلفظ مختلف قليلاً.

٥ ـ الكافي ١: ٩٨، الاحتجاج ٢: ٧٧، التوحيد: ١١٢.

٦ ـ الأنعام: ١٠٤.

٧ ـ الكافي ١: ٩٩، التوحيد: ١١٣، الاحتجاج ٢: ٢٣٨، أمالي الصدوق: ٣٦٧ وأبو جعفر الثاني هو الإمام محمد الجواد عليه السلام.

الصاحب[١]:

فقالت: فقل لي: أبالأبصار تُدركُهُ؟ فقلتُ: جلّ عن الإبصار بالمقل

وأجمعوا على أنّ النبي[٢] ﷺ قال: يا من يَرَى، ولا يُرَى، وهو بالمنظر الأعلى.

وكتب أحمد بن إسحاق إلى أبي الحسن[٣] الثالث يسأله عن الرؤية؟

فكتب جوابه:

ليس تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي، والمرئي هواء، ينفذه البصر، فمتى انقطع الهواء، وعدم الضياء، لم تصحّ الرؤية. وفي وجوب اتصال الضياء بين الرائي، والمرئي، هواء ينفذه البصر، والله تعالى عن الأشباه، فثبت أنّه لا يجوز عليه سبحانه الرؤية بالأبصار.

وقيل للرضا[٤] عليه السلام: إنّ رجلاً رأى ربّه في منامه، فما يكون ذلك؟

فقال: ذاك الرجل، رجل لا دين له، إنّ الله عزّ وجلّ لا يُرى في اليقظة، ولا في المنام، ولا في الدنيا، ولا في الآخرة.

أبو سعيد الواعظ في «رجال الصوفية»[٥]: قال أمير المؤمنين عليه السلام: سلوني قبل أن تفقدوني. فقال له ذعلب: هل رأيت ربّك؟

فقال عليه السلام: ما كنت أعبدُ ربّاً لم أره!

قال: كيف رأيته؟

قال: لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان. لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس.

---

١ ـ ديوان الصاحب بن عباد: ٤٠ وفيه جلّ عن الإدراك.

٢ ـ التوحيد: ٤٥ في جملة خطبة له٩.

٣ ـ الكافي ١: ٩٧، التوحيد: ١٠٩، الاحتجاج ٢: ٢٥١ وأبو الحسن الثالث هو الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام.

٤ ـ أمالي الصدوق: ٥٤٦.

٥ ـ كتاب «رجال الصوفية» لأبي سعيد الواعظ من الكتب المفقودة، وهذه الرواية وردت في مصادر عديدة أخرى، انظر التوحيد: ٣٠٤ فما بعدها، وانظر ما يأتي في هامش الرواية.

فصاح ذعلب، وخرّ مغشيّاً عليه[١].

الصادق[٢] عليه السلام وقد سأله أعرابي: هل رأيت ربّك حين عبدته؟

فقال عليه السلام: لم أكن أعبد ربّاً لم أره!

فقال: كيف رأيته؟

قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، بل رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بالآيات، والدلالات، منعوت بالعلامات، لا يجوز في قضيته، هو الله، لا إله إلاّ هو.

فقال الأعرابي: ﴿**اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾[٣] شعر.

قالوا: نرى معبودنا وجاروا إذ قال: «لا تُدركه الأبصار»
لا يُبصر الإنسان ما يـــراه إلاّ إذا حـــــاذاه أو وازاه
يراهُ إذ رآه في المكـــان يقـــدر أن يشـير بالبنان[٤]

الصاحب[٥]:

لو كان محسوساً بعيني ناظر لكـان ملموسـاً بكفّي زائر

وقال في الفصل ٤٦

١ ـ هذه الرواية في الاحتجاج ١: ٣١٢ دون ذكر اسم السائل (ذعلب). وهي في أمالي المرتضى ١: ١٥٠ منسوبة إلى الباقر٧وفي أمالي الصدوق: ٣٠٥ منسوبة إلى أمير المؤمنين٧ والسائل فيها ذعلب، وفي الإرشاد: ١٣٣: أنّ رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين٧فقال له...

٢ ـ الكافي ١: ٩٧، التوحيد: ١٠٨ عن الباقر٧ باختلاف يسير في اللفظ، أمالي الصدوق: ٢٤٦ ـ ٢٤٧، الإرشاد: ١٣٣ بزيادة في اللفظ عن أمير المؤمنين عليه السلام، الاحتجاج ٢: ٧٦ ـ ٧٧.

٣ ـ الأنعام: ١٢٤.

٤ ـ لم أقف على اسم قائل الأبيات ولا مظنّة أخذها.

٥ ـ أخلّ به ديوانه بتحقيق آل ياسين.

في الرؤية

قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾[١].

فقوله: «وجوه»، لا يخلو إمّا أن يراد به: الوجه، أو العين، أو الجملة فالأول، لا يجوز، لأنّ الوجه لا يرى، ولا ينظر، ولا يكون رائياً الحقيقة. فلا يصح حمله على أيّ وجه، صرفت الآية إليه، يدلّ عليه أنّه لا يوجوز أن يقول: رآه وجهي.

ولا يجوز الثاني، لأنّ العين، لا توصف بالنضارة التي هي الإشراق. العين في الحقيقة ليست بناظرة، لأنّ الناظر، والرائي، إنّما هوالجملة، إذ العين آلة، يُرى بها.

فلم يبق إلاّ أنّ المراد به، الجملة. ويبيّن ذلك قوله في نظيره: ﴿**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۞ تَظُنُّ**﴾[٢]، والظنّ إنّما يرجع إلى الجملة، ولا يصحّ أن يكون المراد، حقيقة الوجه، من حيث وصف بالنضارة، والبسور. إذا ذلك جاء صفة الوجه، والجملة، توصف بذلك، يقال: فلان عبوس كالح، فهو بسر، وبسير، وأشباه ذلك.

وقوله: ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ والخصم لا يثبت ذلك إلاّ في الجنّة، لأنّه من الفضائل، يختصّ بها المؤمن. وهاهنا في صفة القيامة.

وقوله: ﴿**نَاظِرَةٌ**﴾، النظر: التأمّل، وهو لازم ﴿**انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ**﴾[٣]، ﴿**انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾[٤].

وقديتعدى هذا بالجار، نحو ﴿**أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾[٥]،

١ ـ القيامة: ٢٢، ٢٣.
٢ ـ القيامة: ٢٤، ٢٥.
٣ ـ الإسراء: ٤٨ الفرقان: ٩.
٤ ـ الإسراء: ٢١.
٥ ـ الغاشية: ١٧.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ﴾[١]. والانتظار: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾[٢]، ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ﴾[٣]، حسان[٤]:

وجوه يوم بدر ناظرات إلى الرحمن يأتي بالفلاح

الكميت[٥]:

وشعث ينظرون إلى بلال كما نظر الظباء حيا الغمام

البعيث[٦]:

وجوه بهاليل الحجاز على الندى إلى مالك ركن المعارف ناظرة

والمهلة: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾[٧]، ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[٨]، ﴿أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٩]، ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[١٠].

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا[١١]

والرحمة: انظر إليّ نظر الله إليك. وفلان ينظر لفلان. وهو حسن النظر له.

---

١ ـ الأعراف: ١٨٥.

٢ ـ الأحزاب: ٥٣.

٣ ـ سورة ص: ١٥.

٤ ـ لم نقف عليه في ديوانه بطبعاته المتعدّدة. وهو في التفسير الكبير ٣٠: ٢٢٧ من دون عزو، وشطره الثاني: إلى الرحمن تنتظر الخلاصا. وفي الأساس لعقائد الأكياس: ٨٠ يأتي بالخلاص ومن دون عزو.

٥ ـ أخلّ به مجموع شعره المنشور من قبل داود سلّوم.

٦ ـ أخلّ به مجموع شعره بجمع وتحقيق ناصر حلاوي.

٧ ـ البقرة: ٢٨٠.

٨ ـ النمل: ٣٥.

٩ ـ الأعراف: ١٤.

١٠ ـ الحديد: ١٣.

١١ ـ قائله اشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم التغلبي. انظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ٣٨٧، شرح القصائد التسع المشهورات: ق٢: ٦٢٨، شرح القصائد العشر: ٣٣١ ومنها صدر البيت..

﴿وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[١].

والإهلاك: نظر الدهر إلى بني فلان. قال الشاعر[٢]:

في قروم سادة من قومه نظر الدّهرُ إليهم فابتهل

والتحديق نحو الشيء، طلباً للرؤية، لأنّهم يثبتون النظر دون الرؤية قولهم: نظرت إلى الهلال، فلم أره. وما زلت أنظر إليه، حتّى رأيته، وانظر حتّى ترى. ولولا أنّي كنت أنظر إليه، لما رأيته. ونظرت إليه، فوجدته جالساً.

ولا يقال: نظرت إلى زيد متعرّياً. كما يقال: رأيته متعرّياً. والله تعالى رائي، ولا يقال: ناظر. لأنّ النظر، تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي، لطلب الرؤية.

ونظرت إليه نظر راض، ونظر غضبان، ونظراً شزراً. ونظر بمؤخر عينه. وقد أحدّ إليه النظر. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ﴾[٣]. شاعر[٤]:

نظروا إليك بأعينٍ محمرّة نظر التيوس إلى شفار الجازرِ غيره[٥]:

ونظرة ذي شجنٍ وامقٍ إذا ما الرّكائبُ جاوزنَ ميلا

و«النظر» يتعدّى بـ«إلى»، و«الرؤية»، وأمثالها بنفسها، يقال: نظرت إليه، ورأيته.

قال الله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[٦].

والقول بذلك يؤدّي إلى مناقضة قوله: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[٧]، إذ ذاك عموم، لا

---

١ ـ آل عمران: ٧٧.

٢ ـ هو لبيد بن ربيعة العامري. انظر شرح ديوانه: ١٩٧. ومنه صدر البيت.

٣ ـ محمّد: ٢٠.

٤ ـ أمالي الصدوق: ٨٦ بلا عزو. شرح الأصول الخمسة: ٢٤٣. بلا عزو وفيه: بأعين مزورة، الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ١٢٧ في جملة أبيات معزوّة إلى عليّ بن عبدالله بن عبّاس.

٥ ـ المفضّليّات: ٥٦، معزواً إلى بشامة بن الغدير. وفي التفسير الكبير ٢٠: ٢٢٧ من دون عزو.

٦ ـ الأعراف: ١٩٨.

٧ ـ الأنعام: ١٠٣.

تخصيص فيه، ولأنّه تمدّح به، كما تمدّح بقوله: ﴿**وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾[١].

فهو ـ إذن ـ جارٍ ـ في عموم الأوقات ـ مجراه، لأنّ زوال مايوجب المدح، نقص.

ولا يجوز: إلى ربّها ناظرة لها، لأنّ التخصيص، لا يقع إلاّ بما يشتبه الأمر فيه، فكيف بما لا يقتضيه؟ ونمط هذه الآية، وما يتعّقبه، لا ينبئ عنه، ويبطله، لأنّه قال في نقيضه: ﴿**وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ**﴾ الآية[٢].

فلمّا أوجب الكفّار خوف العقاب، دون المنع من الرؤية، وجب أن يكون ما أوجبه للمؤمنين انتظار الثواب، دون الرؤية، ليتشاكل المعنيان، لأنّه لو قال: إنّ المؤمنين يروننني، والكافرين أعذّبهم، لم يكن متشاكلاً في المعنى، بل كان معيباً عند البلغاء.

وقال الصاحب بن عبّاد: «ناظرة إلى ربّها». أي: نعمة ربّها، لأنّ «الآلاء»، والنعم، وفي واحدها، أربع لغات، يقال: «ألى»، مثلُ: «قفا»، و«ألَى»، مثلُ: «معاً»، و«إلي»، مثل «رَمي» و«ألي»، مثلُ: «حسبي» قال الأعشى[٣]:

أبيضُ لا يرهبُ الهُزالَ ولا يقطعُ رحماً ولا يخونُ إلا

وجاء في التفسير عن ابن عبّاس[٤]، والحسن[٥]، وعمرو، ومجاهد[٦]، وقتادة،

١ ـ الأنعام: ١٠٣.

٢ ـ القيامة: ٢٤.

٣ ـ ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس): ٢٣٥.

٤ ـ مجمع البيان ٥: ٣٩٧.

٥ ـ جامع البيان ٢٩: ١٩٢. أيضاً: مجمع البيان ٥: ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

٦ ـ جامع البيان ٢٩: ١٩٢. أيضاً: مجمع البيان ٥: ٣٩٧، ٣٩٨، الدر المنثور ٨: ٣٦٠، رسائل الجاحظ الكلامية (رسالة الردّ على المشبّهة): ٢٣٢، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٠٩.

والأعمش[١]، وابن جريج، وأبي صالح[٢]، والضحاك[٣]، والكلبي، وابن المسيّب، وابن جُبير[٤]: «وجوهٌ يومئذٍ ناظرةٌ»، يعني: مشرقة تنتظر ثواب ربّها. وهو المرويّ عن النبي[٥] صلى الله عليه وآله.

وقال أمير المؤمنين[٦] عليه السلام: ينظرون إليه في الآخرة، كما ينظرون في الدنيا.

النموذج الثاني: القضاء والقدر

وهنا أيضاً نجد نوعين من الآيات الشريفة:

النوع الأول: يؤكد على النفوذ المطلق للمشيئة الالهية وهو من قبيل:

قوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[٧].

وقوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾[٨].

وقوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**

١ ـ جامع البيان ٢٩: ١٩٣.

٢ ـ جامع البيان ٢٩: ١٩٣، الدر المنثور ٨: ٣٦٠، رسائل الجاحظ الكلامية (رسالة الردّ على المشبّهة): ٢٣٢.

٣ ـ مجمع البيان ٥: ٣٩٨.

٤ ـ مجمع البيان ٥: ٣٩٨.

٥ ـ الاحتجاج ٢: ١٩١ مرويّاً بلفظه عن الرضا وكذلك في أمالي الصدوق: ٣٦٧ والتوحيد: ١١٦. وفي مجمع البيان ٥: ٣٩٨ وهو المروي عن علي عليه السلام.

٦ ـ الاحتجاج ٢: ٢١٥.

٧ ـ الأنعام: ٥٩.

٨ ـ الحديد: ٢٢.

﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٦].

وفيها تصريح وتأكيد على نفاذ أمر القضاء والقدر وأن كل حادثة كونية لابد أن تسبقها مشيئة الهية وأنها سبق وإن رسمت من قبل في كتاب مبين محفوظ عند الله.

النوع الثاني: من قبيل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٧].

---

١ ـ آل عمران: ١٥٤.

٢ ـ الحجر: ٢١.

٣ ـ الطلاق: ٣.

٤ ـ القمر: ٤٩.

٥ ـ إبراهيم: ٤.

٦ ـ آل عمران: ٢٦.

٧ ـ الرعد: ١١.

وقوله عز من قائل: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾[١].

وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾[٤].

وقوله جل وعلا: ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾[٧].

وهناك آيات أخرى يمكن ضمها إلى أي من النوعين.

ويبدو بين النوعين تعارض ظاهري يتطلب تأويل أحدهما.

وليس هذا التعارض صريحاً وإذا كان فهو تعارض من حيث اللوازم فكيف يمكن رفعه؟

ومن الواضح أن النوع الثاني يركز على المشيئة الإنسانية ويعطيها دورها في

١ ـ النحل: ١١٢.
٢ ـ العنكبوت: ٤٠.
٣ ـ فصلت: ٤٦.
٤ ـ الدهر: ٣.
٥ ـ الكهف: ٢٩.
٦ ـ الروم: ٤١.
٧ ـ الشورى: ٤١.

صنع مستقبل الإنسان. ولا ريب في إن هذا التشابه ناتج من التفسير الخاطئ وإلا فلا تعارض في كتاب الله وهذا ما اثبته العلماء[١].

القضاء والقدر

القضاء هو الحكم والقطع والفصل.

وسمي القاضي بذلك لأنه يفصل بين المتحاكمين.

وقد استعمل القرآن الكريم هذه اللفظة ناسباً اياها إلى الله تارة وإلى الإنسان أخرى، في مجال الفصل اللفظي كأن يوجب كلام ما فصلا بين أمرين وفي مجال الفصل التكويني العملي.

والقدر هو المقدار والتعين. وهذه الكلمة استعملت أيضاً في القرآن الكريم كثيراً بهذا المعنى.

والحوادث الكونية من زاوية كونها تحت علم الله ومشيئته الحتمية تندرج تحت القضاء الالهي، ومن زاوية كونها محددة بمقدار معين من حيث الموقع الزماني والمكاني تندرج في التقدير الالهي.

وما يمكن البحث عنه هنا هو أن الحوادث الكونية عموماً لابد وأن تنطوي تحت أحد ثلاثة فروض:

أـ أنها لا ترتبط بالماضي المتقدم عليها تقدماً زمانياً أو غير زماني فلا يرتبط وجودها بسوابقه ولا ترتبط خصوصياتها بذلك أيضاً.

ومع هذا الفرض لا معنى للقضاء والقدر بعد انكار الترابط بين وجودها أو خصوصياتها الزمانية والمكانية وبين الماضي والتعيين المسبق.

---

١ ـ راجع ما ذكره الاستاذ المطهري بهذا الصدد وما نذكره هو خلاصة ما ذكره في كتابه (الإنسان والقدر): ٤٤.

وعلى هذه النظرة يجب أنكار مبدأ العلية وقبول كمفسر لوجود الأشياء.

في حين أن مبدأ (العلية العامة) والترابط الضروري القطعي بين الحوادث، وأن كل حادثة تستمد حتميتها وقطعيتها وقدرها وخصوصياتها الوجودية من أمر أو أمور أخرى مقدمة عليها، أمر مسلم لا يقبل الرد.

إن مبدأ العلية، والضرورة العلية والمعلولية ومبدأ السنخية بين العلة والمعلول كل ذلك من العلوم البشرية المتعارفة بلا ريب[1].

ب ـ أن يقال بأن كل حادثة لها علة متقدمة عليها مع انكار نظام الأسباب والمسببات القائم بين الحوادث والقول بأنها كلها معلولة مباشرة لعلة واحدة هي الله تعالى فليس في العالم إلا علة وفاعل واحد وهو الذات الالهية، ومنها تصدر كل الموجودات مباشرة وإن أرادته تتعلق بكل حادثة بشكل مستقل عن ارادته الأخرى؛ كأن نفرض الأمر هكذا: القضاء يعني العلم والإرادة الالهية بوجود أي موجود، وهو مستقل عن أي علم وقضاء آخر.

وهنا يجب أن نسلم أن ليس هناك فاعل إلا الله فقد تعلق علم الله في الأزل بأن تقع الحادثة الفلانية في الوقت الفلاني، ولابد من أن تقع تلك الحادثة، مع عدم تدخل أي شيء في وجودها، وأفعال الإنسان وأعماله من هذا القبيل، فإن الذي يوجد هذه الأفعال والأعمال مباشرة وبلا واسطة هو القضاء والقدر الالهي أي العلم والإرادة الالهيين. أما الإنسان نفسه طاقته وقوته فليس لها دخل في الأمر مطلقاً، وإن كان لطاقته وقوته دور ظاهري وتمثيل خيالي لا أكثر. وهذا هو بعينه مفهوم الجبر والمصير المحتم، وهذا هو الاعتقاد الذي لو حل في مجتمع أو الفكرة ـ بالاضافة لمفاسدها العملية والاجتماعية ـ مردودة منطقياً، فلا تردد من زاوية

١ ـ يراجع الجزء الثالث من كتاب (أصول الفلسفة والمذهب الواقعي).

البراهين العقلية والفلسفية ـ كما هو مذكور في محله ـ في بطلان هذه الفكرة..

وأن الترابط العلي والمعلولي بين الحوادث مما لا يقبل الانكار، وليست العلوم الطبيعية والمشاهدات الحسية والتجريبية وحدها هي الدليل على نظام الأسباب والمسببات، بل أن العلم الالهي أقام أتقن البراهين على هذا الأمر. علاوة على أن القرآن الكريم قد أيد نظام الأسباب والمسببات كذلك.

ج ـ القول بأن مبدأ العامة ونظام الأسباب والمسببات حاكم على العالم وجميع الحوادث والوقائع فيه، فكل حادث فيه يكتسب ضرورة وجوده وشكله وخصوصياته الزمانية والمكانية وسائر الخصوصيات الوجودية من علله المتقدمة عليه، وأن هناك رابطة قوية لا تنفصم بين الماضي والحاضر والمستقبل، وبين كل موجود وعلله المتقدمة عليه.

وعلى هذا الأساس فإن مصير كل موجود بيد موجود آخر هو علته التي أوجبت وجوده وأعطته الحتمية والضرورة، ومنحته خصوصياته الوجودية، وإن تلك العلة بدورها معلولة لعلة أخرى، وهكذا.

وعليه: فإن لازم قبول مبدأ العلية العامة قبول أن كل حادثة تستمد حتمية وجودها وخصوصياتها وشكلها ومقدارها وكيفيتها من علتها... ولا يختلف الأمر هنا بين ما لو كنا إلهيين مسلكاً، نؤمن بأن أصل كل الايجابات (القضاءات) وأصل كل التعينات (أنواع المقدر) هي علة العلل وبين ما لو كنا لا نعتقد بذلك ولا نعرف مثل هذه العلة الأولى.

ولهذا فمن الزاوية العملية والاجتماعية لا فرق في هذه المسألة بين الالهي والمادي، ذلك لأن الاعتقاد بالقضاء والقدر يستمد مبرراته من الاعتقاد بمبدأ العلية العام ونظام الأسباب والمسببات سواء كان من يعتقدون بهذين المبدأين

من الالهيين أو من الماديين نعم، الفرق بينهما أن القضاء والقدر ـ في نظر المادي ـ أمر عيني خارجي صرف، في حين أن القضاء في نظر الالهي عيني وعلمي، بمعنى أن المادي يرى أن مصير أي موجود يعين لدى علله الماضية دون أن تعلم هذه العلل بما لديها من دور وخاصية، في حين يرى الالهي أن سلسلة العلل الطولية (أي العلل التي هي فوق الزمان) تعلم بعملها وخواصها. ومن هنا فإن هذه العلل تسمى في المدرسة الالهية بأسماء (الكتاب) (اللوح) (القلم) وأمثال ذلك، مع أنه ليس هناك شيء في المدرسة المادية يستحق هذه الأسماء.

الجبر

من مجموع ما تقدم توفرنا على أن الاعتقاد بالقدر لا يعني الجبرية، بل إنما يستلزم ذلك لو لم نعط الإنسان أي دور في صنع السلوك، مسلمين اياه للقدر فقط. والحال أنه من أشد الممتنعات أن نقول أن الله تعالى يعلم كل شيء بلا واسطة بل أنه تعالى يوجب وجود كل الأشياء عن طريق عللها وأسبابها الخاصة.

إن القضاء والقدر لا يعنيان إلاّ ابتناء نظام السببية العامة على أساس العلم والإرادة الإلهيين، ومن لوازم قبول مبدأ العلية وضرورة حصول المعلول عند حصول علته والسنخية بينهما أن نقول إن مصير أي موجود مرتبط بالعلل السابقة والمرتبطة به سواء وجد مبدأ إلهي أم لم يوجد، أي سواء أكان نظام السببية نظاماً مستقلاً وقائماً بذاته، أم كان قائماً بغيره ومستنداً للمشيئة الإلهية.

ذلك أن كون النظام السببي مستقلاً وقائماً بذاته أو غير مستقل لا تأثير له على مسألة المصير والحرية الإنسانية. ومن هذا المعنى نقول أن غاية الجهل تكمن في القول بأن العقيدة الجبرية ناشئة من الاعتقاد بالقضاء والقدر الالهيين، ولذا فيجب

أن تنقد هذه العقيدة لترتب تلك النتيجة عليها. فانّنا لو قصدنا من هذا الاعتقاد انكار التلاحم بين الأسباب والمسببات منها الطاقات الإنسانية والإرادة والاختيار فمثل هذا القضاء والقدر خرافة يستحيل وجودها بالأدلة القاطعة التي تقيمها الفلسفة الالهية بحيث لا مجال لأي شك أو تردد.

وإن قصدنا منها الارتباط الحتمي للعلل بالمعلولات؛ فهي حقيقة مسلمة ولا تختص بالإلهيين، بل يقول بها كل مذهب يؤمن بمبدأ العلية العامة، وإن كان التفاوت يكمن في أن الالهيين يصعدون بسلسلة العلل إلى حيث لا أبعاد زمانية ولا مكانية حيث تنتهي إلى علة العلل الواجبة الوجود أي الحقيقة القائمة بذاتها والتي تنتهي إليها كل أنواع القضاء (الضرورة) والقدر (التعيني) ولكن ليس لهذا التفاوت أي أثر في اثبات الجبر أو نفيه.

الحرية والاختيار

وهنا ينطرح هذا السؤال:

إذا جعلنا القضاء والقدر الإلهي مرتبطاً ـ مباشرة وبلا واسطة علل وأسباب ـ بالحوادث فأي معنى للحرية؟ وكيف نوفق بين الايمان بنظام العلية العامة والايمان بحرية الإنسان؟ وهل نحن ملزمون لو أردنا التسليم بالحرية أن نفصل تماماً بين الأفعال الإنسانية وأية علة خارجية وهذا يعني قبول الفرض الأول فقط؟

وعند الجواب نقول:

إن هذا التساؤل هو الذي دفع الكثيرين من قدامى المفكرين ومحدثيهم للجوء إلى القول بـ (الارادة الحرة) حسب تعبيرهم والتي لا تتصل بأية علة.

ومعنى ذلك أنهم قبلوا مبدأ الصدفة ولو في اطار الارادة الإنسانية، ولكنا أثبتنا في هوامش الجزء الثالث من كتاب (أصول الفلسفة) أن مبدأ العلية أمر لا يمكن انكاره أو تخصيصه، ولو قطعنا الروابط بين العمل الإنساني، والعلل المتقدمة عليه لوجب علينا أن نقبل أنه لا اختيار له.

إن الإنسان خلق مختاراً حراً، بمعنى أنه أُعطي فكراً وارادة. فليس الإنسان في اعماله كالحجر تدحرجه فيتدحرج ويسقط متأثراً بجاذبية الأرض دون أن تكون له أية ارادة، أو كالنبات ليس له إلا طريق واحد فبمجرد توافر شروط معينة ينمو بالشكل المعتاد، أو كالحيوان الذي يؤدي أعماله بتأثير غريزي. كلا إن الإنسان يجد نفسه دائماً على مفترق طرق ليختار منها أيها شاء بملء حريته، ووفق مشيئته ونوعية تفكيره، وليس مجبوراً على سلوك أحدها لا غير، وإنما الذي يعين أحد الطرق هو أسلوب فكره واختياره.

وهنا تبرز مقومات الشخصية والصفات الأخلاقية والروحية، والمسبقات التربوية والوراثية، والمقاييس العقلية والنظرات البعيدة للانسان، فيعلم إلى أي حد يرتبط المستقبل السعيد أو الشقي بتلك العوامل وبالتالي بالطريق الذي يختاره بنفسه. إن الفرق بين الإنسان والنار المحرقة والماء المغرق، والنبات النامي بل وحتى الحيوان الماشي هو عنصر الاختيار.. إذ كل هذه لا تنتخب طريقها في حين ينتخب الإنسان طريقه بحرية.

فما أن يواجه سبلاً متعددة فإن ضرورة سلوك أحدها لا تستمد إلا من ارادته الشخصية.

الحتمي وغير الحتمي

جاء في الروايات الدينية والإشارات القرآنية حديث عن القضاء والقدر الحتمي والقضاء والقدر غير الحتمي وهي تعبر عن نوعين من القضاء والقدر: نوع قابل للتغير، وآخر محتم ضروري لا يقبل أي تغيير.

وهنا يبرز لنا سؤال حول معنى القضاء والقدر غير الحتمي. فإذا نظرنا إلى حادثة خاصة بعين الاعتبار قلنا أن العلم الأزلي أما أن يكون قد تعلق بها أو لم يتعلق، فإن لم يتعلق بها فليس هناك قضاء ولا قدر، وأن تعلق بها كان من الضروري لها أن تقع، وإلاّ لزم عدم مطابقة علم الله للواقع، وللزم تخلف المراد عن الارادة الالهية، وهو مستلزم لنقصان ذات الحق سبحانه وتعالى.

وبعبارة أدق وأشمل يقال: إن القضاء والقدر في الواقع عبارة عن انبعاث كل العلل والأسباب من ارادة الله ومشيئته وعلمه، وهو علة العلل وعليه فالقضاء ـ اصطلاحاً ـ هو العلم بالنظام الأحسن والذي هو منشئ وموجد ذلك النظام.

والكل في نظامه الكياني ينشأ من نظامه الرباني

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن قانون العلية العامة ـ كما نعلم ـ يوجب الحتمية والضرورة حيث أن لازم قانون العلية أن يكون وقوع الحادثة عند تحقق شرائطها المخصوصة الزمانية والمكانية قطعياً وحتمياً ولا يقبل التخلف. تماماً كما أن عدم وقوعها عند عدم تحقق تلك الشرائط أيضاً حتمي ولا يقبل التخلف.

وتدين العلوم في كونها قطعية لهذا المبدأ. وإن قدرة التنبؤ العلمي هي بمقدار علمه بالعلل والأسباب. ولما كان القضاء والقدر يعني ايجاب الحوادث وتقديرها عن طريق العلل والمعلومات، وفي نظام الأسباب والمسببات فالقضاء والقدر هما

عين الحتمية والضرورة. وعلى هذا فكيف يمكن تقسيم القضاء والقدر إلى حتمي وغير حتمي، أو إلى قابل للتغير وغير قابل له؟ وهنا يبدو لنا السير في طريق مسدود فإما أن لا نقول إلاّ بنوع واحد من القضاء والقدر كالأشاعرة ولا يقبل هذا النوع التغيير والتبديل، ولا يختلف مصير الإنسان عما رسم له، ونكون بالتالي قد سلبنا الإنسان أي قدرة على تغيير مصيره وأيّ حرية وارادة، وأما أن نكون ـ كالمعتزلة ـ منكرين للقضاء والقدر وتأثيرهما في الحوادث الكونية وعلى الأقل في الأفعال والأعمال الإنسانية. ويجب أن نلاحظ الآن أنه هل يوجد سبيل للخلاص من هذا التردد أم لا؟

وهنا علينا أن نلفت النظر إلى نقطة مهمة هي أنه كما أن نظرية الأشاعرة القائمة على أساس عدم قابلية القضاء للتبديل تسلتزم نفي القدرة والاختيار من الإنسان وعدم سلطته على مستقبله، فإن نظرية المعتزلة أيضاً ليست علاجاً ناجعاً لذلك، إذ بالاضافة للاشكالات القوية التي يوردها العلم الإلهي عليها من زاوية تنافيها مع التوحيد، نجدها لا تنفع في إرجاع القدرة والاختيار للانسان، فحتى لو لم نقبل القضاء والقدر بالمفهوم الالهي، فاننا سوف نقف حائرين امام المفهوم المادي لهما أي التحكم القطعي الذي لا يتخلف لمدأ العلية العامة، وحكومة النواميس الناشئة منه ـ كما يعبر الجبريون ـ.

وهل يمكننا انكار تأثير قانون العلية في مجرى الحوادث أو على الأقل في أفعال الإنسان؟!

وقد فعل المعتزلة وأتباعهم ذلك فأنكروا مبدأ الضرورة العلية والمعلولية ـ في الفاعل المختار على الأقل ـ وقد تبنى بعض المفكرين الاوروبيين المحدثين نفس افكار المعتزلة في هذه المسألة وتحدثوا عن «الارادة الحرة» أي الارادة

المتحررة من قانون العلية... حتى أنهم ادعوا أن قانون العلية إنما يصدق في العالم المادي المتشكل من الذرات أما في دنيا الروح وفي العالم الداخلي للذرات نفسه فانه غير صادق.

ونحن لا نستطيع هنا أن نجر البحث إلى قانون العلية وإنما نحيل القارئ الكريم على هوامش الجزء الثالث من كتاب «أصول الفلسفة، والمذهب الواقعي» ونكتفي هنا بالقول بأن سبب تردد هؤلاء العلماء المحدثين في عموم قانون العلية هو أنهم ظنوا أن قانون العلية هو قانون تجربي، ولذا فعندما عجزت التجارب العلمية البشرية عن كشف روابط العلية ووجود معلول معين على أثر علة معينة، تصور هؤلاء أن هذا المورد خارج عن مبدأ العلية.

والحقيقة هي: أن فرض نشوء كل القواعد والقوانين العلمية عند الإنسان وتمام تصوراته الذهنية من الاحساس والتجربة من أكبر الاشتباهات التي ابتليت بها المبادئ الفلسفية الغربية وسرت منها إلى المقلدين الشرقيين.

وعلى أي حال فإن انكاره العلية العامة أمر غير ممكن ومع قبوله يبقى الاشكال في معنى القضاء غير المحتم سواء قلنا بالتصور الإلهي للقضاء والقدر الإلهي أو لم نقل. وخلاصة الاشكال أن كل حادثة ـ ومن الحوادث أفعال الإنسان ـ تصبح حتمية (مقضية) إذا توفرت عللها وأسبابها، وأنها تكتسب حدودها ومشخصاتها من ناحية هذه العلل والأسباب (القدر). فالعلية مساوية للحتمية واستحالة التخلف، فلا يمكن التغيير والتبديل.

ومن هنا فإن كل من اعترفوا بمبدأ العلية العامة ـ ومنهم الماديون ـ مبتلون بالإشكال والسؤال لأنهم قبلوا الضرورة والعلية والمعلولية (الديترماتيزم) من جهة، ومن جهة أخرى نجدهم يجعلون المصير الإنساني قابلاً للتغير، ويعطون

الإنسان دور المسلط على مصيره. وعليه فإن نظرية المعتزلة المبنية على نفي القضاء والقدر بالمفهوم الإلهي أي نفي شمول الارادة الالهية واحاطتها بكل الحوادث الكونية ونفي أن يكون العلم الإلهي مبدأ للنظام العام، هذه النظرية لا تنفع علاجاً للمشكلة المستعصية.

توهم المستحيل

إذا كان المقصود من التغيير والتبديل في القضاء والقدر غير الحتميين من الجانب الالهي هو أن العلم والارادة الالهية توجب شيئاً ثم يقوم عامل آخر مستقل لم ينشأ من القضاء والقدر بايجاده بالشكل المخالف للمشيئة والارادة والعلم الإلهي، أو يقوم ذلك العالم المستقل الخارجي بتبديل العلم والمشيئة الإلهية فان هذا محال.

وكذلك من زاوية العلية العامة إذا كان المقصود أن العلية العامة توجب شيئاً ثم يوجد عامل في قبال هذه العلية يمنعها من التأثير فهذا محال أيضاً.

ذلك أن كل العوامل في الوجود تنشأ من علم الله وإرادته، وأن كل عامل يبدو في العالم ما هو إلا مظهر لعلم الله وإرادته، وآلة لتنفيذ قضائه وقدره.

وكذلك فإن كل عامل نأخذه بعين الاعتبارهومحكوم بقانون العلية ومظهر من مظاهره ولا معنى لتصور قيام عامل ليس مظهراً لتجلي الارادة الإلهية وآلة لتنفيذ قضائهاوقدرها، أوتصور عامل خارج عن قانون العلية ومقابل في التأثير له. فالتغيير والتبديل في المصير بمعنى قيام عامل في قبال القضاء والقدر أو في قانون العلية؛ أمر محال.

الحقيقة الممكنة

أما تغيير المصير بمعنى أن يكون سبب التغير هو بنفسه من مظاهر القضاء والقدر وحلقة من حلقات العلية، أي تغيير المصير بموجب المصير وتبديل القضاء والقدر بحكم القضاء والقدر، فرغم أنه أمر يبدو غريباً ومشكلاً إلاّ أنه حقيقة واقعة.

والأعجب منه ما لو ركزنا النظر على القضاء والقدر من الوجهة الالهية. لأن تغيير القضاء والقدر من هذه الوجهة يلبس لبوس التغيير في العالم العلوي والألواح والكتب الملكوتية والعلم الإلهي! وهل يمكن التغيير في العلم الإلهي؟!!

ويصل العجب أقصاه عندما نتصور الحوادث الدانية وخصوصاً الارادة والأفعال الإنسانية مسببة لتغييرات، ومحو وإثبات في العالم العلوي وبعض الألواح التقديرية والكتب الملكوتية. أليس النظام السفلي والعيني ناشئاً من النظام العلوي والعلمي ومنبعثاً منه؟ أليس العالم السفلي دانياً والعالم العلوي عالياً؟ أليس عالم الناسوت محكوماً لعالم الملكوت؟ وهل من الممكن أحياناً في قبال ذلك أن يترك النظام السفلي ـ أو على الأقل قسم منه أي العالم الإنساني ـ آثاره في النظام العلوي والعلمي ويسبب تغييرات معينة فيه، ولو كانت هذه التغييرات نفسها بموجب القضاء والقدر؟

وهنا تتابع الأسئلة العجيبة وتبرز على ساحة الفكر... فهل أن علم الله يقبل التغيير؟! أو يقبل حكم الله النقض؟!! وهل يمكن للداني أن يؤثر في العالي؟! والجواب على كل هذه الأسئلة هو بالايجاب: نعم؛ ولما كان هذا البحث عميقاً ويستلزم تبيين مسألة (البداء) التي تحدث عنها القرآن الكريم عندما قال: ﴿**يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ فلن نفصل القول، ولكن نقول إجمالاً:

إن الموجودات على قسمين: ما فيه إمكان نوع خاص من الوجود كالمجردات العلوية، وما فيه إمكان أكثر من نوع كالماديات التي تقبل الصور المختلفة فتعطيها بعض العوامل طاقة وتؤثر فيها العوامل الأخرى ضعفاً كالبذرة حينما تواجه جواً مناسباً أو آفة قاتلة.

وعليه فالقضاء في الموجودات العلوية حتمي لأنها معلولة لعلتها الوحيدة ولكن الماديات تتعامل مع علل مختلفة فلها مصائر متنوعة فلعلة خاصة يمرض الإنسان ويأتي الدواء فيغير المصير.

وعليه فهناك أنواع من المصير والقضاء والقدر وسر الأمر أن القضاء ليس عاملاً إلى جانب العوامل الأخرى بل هو مبدأ لكل العوامل الكونية.

إن الأعمال الإنسانية من الحوادث غير الحتمية بل ترتبط بآلاف العوامل ومنها الإرادات الإنسانية فكل العلل والأسباب مظاهر القضاء والقدر بها تتكثر النتائج.

و إذا لاحظنا صدر الإسلام رأينا المسلمين يتمتعون بهذه النظرة.

ومما ينقل عن الإمام علي عليه السلام أنه كان تحت حائط آيل فقام منتقلاً إلى حائط آخر فقيل له أتفر من قضاء الله؟ فقال عليه السلام: أفر من قضاء الله إلى قدر الله. وهناك تفصيلات تترك إلى محلها.

إن القرآن يقول من جهة ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[1].

ويقول من جهة أخرى: ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾[2].

---

١ ـ الأنعام: ٥٩.

٢ ـ الرحمن: ٢٩.

فالقدر كما يعبر العلامة الطباطبائي هو هندسة الوجود نفسه والنظم القائمة لا تقبل التغيير ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[١].

ويمثل السيد الخوئي لذلك: بأن الإنسان يدرك بفطرته ذلك وهو أنه قادر على أن يفعل أولا، وقد أطبق العقلاء على ذم المفسد ومدح المصلح فلو كانت يد إنسان ما شلاء ولكن إن أوصل إليها تيار كهربائي قدر على أن يستعملها وحينئذٍ يمكنه أن يعمل الخير أو الشر ويمكن نسبة النتيجة إليه وإلى الموصل الكهربائي معاً[٢].

وجاء في الكافي والتوحيد للصدوق أن الإمام الصادق عليه السلام سئل: أجبر الله على المعاصي؟ قال: لا، قيل ففوض إليهم الأمر فقال عليه السلام: لا قيل فماذا؟ قال: لطف من ربك بين ذلك فلا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين. ويمكن بالتالي أن نقول: إن الله تعالى شاء أن يكون الإنسان حراً وأن تدخل إرادته الحرة في عملية صنع المصير.

النموذج الثالث: هل المعاد جسماني أو روحاني؟

ما يبدو من كلام العلامة الطباطبائي في تفسير (الميزان) يمكن تلخيصه في أمور أربعة[٣]:

---

١ ـ الأحزاب: ٦٢.

٢ ـ تفسير البيان: ٨٦

٣ ـ يراجع كتاب (المعاد الجسماني في الحكمة المتعالية): ٦٦٦.

الأول: إن المادة لا تنحصر بالمصاديق الطبيعية فهناك مواد غير طبيعية وغير دنيوية وغير عنصرية[١].

الثاني: إن حقيقة الإنسان تتمثل في الروح (الانا) وهو محفوظ عند الله تعالى[٢].

الثالث: إن البدن فرع للروح تابع لها تبعية الظل[٣].

الرابع: إن هناك تماثلاً بين بدني الإنسان الدنيوي والأخروي ولكنهما ليسا عين الآخر؛ إذ للإنسان نشأة أخرى في الآخرة[٤].

والنتيجة من هذه الأمور هي أنه كان يؤمن بالمعاد الجسماني ولكن ببدن يماثل البدن الدنيوي.

وهو ما يقول به الفيلسوف الملا صدرا الذي دفع علماء أخرين لاتهامه بمخالفة الظاهر القرآني بل وتكفيره. وعلى أي حال فإن النزاع بيدو مردداً بين فروض ثلاثة.

الأول: أن يكون المعاد روحانياً.

الثاني: أن يكون المعاد جسمانياً في بدن هو عين البدن الدنيوي.

الثالث: أن يكون المعاد جسمانياً في بدن هو مثل البدن الدنيوي.

أما الفرض الأول فقد نسب إلى الفارابي وابن سينا عدم قدرة العقل على اثباته

١ ـ الميزان ج ١المقدمة ص ٧.
٢ ـ ن .م ج ٧ ص١٣٣، ج ١٣ ص ٢٢٤.
٣ ـ ن. م ج ٢ ص ٣٩٨.
٤ ـ ن. م ج ١٩ ص ١٥٢.

وإن اتبعوه شرعاً وهو رأي مرفوض من قبل الحكماء والمفسرين لمخالفته للظواهر القرآنية قطعاً كما سيبدو.

أما الرأيان الثاني والثالث فهما يتفقان على امكان المعاد الجسماني عقلاً ودلالة الظواهر القرآنية عليه ولكنهما يختلفان في البدن الذي تدخله الروح الإنسانية في يوم القيامة هل هو عين البدن الدنيوي أو هو مثله وقد اصر المرحوم الاستاذ المطهري على الرأي الأول لأنه هو الموافق للظواهر القرآنية[١].

والذي يبدو أن الاختلاف في نوع الاستظهار من الآيات هو سر الخلاف.

فلنذكر بعضها ونحاول معرفة ظهورها بالتالي:

١ ـ ﴿**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ**﴾[٢].

وهنا يقول الطباطبائي: (فإن استبعاد الكفار مبني على أن حقيقة الإنسان هو البدن الذي يتلاشى ويفسد بالانحلال بعد الموت فيضل في الإرض والجواب مبني على كون حقيقته هو الروح)[٣].

فالجواب القرآني بـ (نعم) يركز على اعادة الروح ولا ينظر لكيفية الاعادة أهي عين البدن أو مثله؟

٢ ـ ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ**﴾[٤].

---

١ ـ مجموعة كتابات الشهيد ٤: ٧٩٢.

٢ ـ الصافات: ١٥ ـ ١٨.

٣ ـ الميزان ٧: ١٣٤.

٤ ـ الصافات: ٥١ ـ ٥٣.

والتساؤل الإنكاري ينصب على الإدانة يوم القيامة، ولا ينظر إلى متعلق الإدانة وهل هو عين البدن الدنيوي أو مثله؟

٣ ـ ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾[١].

والآية تركز على جميع الناس، ولا تذكر مطلقاً كيفية الحشر أهي بأبدان دنيوية أو مثلها أخروية؟

٤ ـ ﴿وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾[٢].

وربما كان في تعبير (خلقاً جديداً) اشارة إلى المثلية ولكنها من كلام المنكرين ولا تدل على ما سيقع.

٥ ـ ﴿وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾[٣].

والذي يبدو هنا أن المراد بيان قدرة الله على أن يخلق مثلهم فهو أمر ممكن لله تعالى الذي خلق الكون، ولا تنظر إلى العينية أو المثلية.

٦ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[٤].

---

١ ـ الواقعة: ٤٧ ـ ٥٠.

٢ ـ الإسراء: ٤٩.

٣ ـ الإسراء: ٩٨ ـ ٩٩.

٤ ـ يس: ٧٧ ـ ٧٩.

وهنا قد يقال إن الإحياء إعادة نفس الأجسام الميتة ولكن يقال في الجواب إن غاية ما يستفاد هو المعاد الجسماني أما كيفية المعاد فلا تدل عليه الآية ولا تنظر إليه.

٧ ـ ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾[١].

قد يقال: إنها ظاهرة في البدن العنصري الدنيوي الذي دفن في القبر والآن ينسل إلى ربه. ولكن الظاهر أن التركيز على هوية المدفون (الأنا) وليس الجسد فلا مانع من أن يبعثوا (هم) في بدن مثل بدنهم وهكذا قل عن الآيات الأخرى. (البقرة: ٢٥٩، البقرة: ٢٦٠، القيامة: ١ ـ ٥، المؤمنون: ٣٥، النمل: ٦٧، الحج: ٧، النساء: ٥٦، فصلت: ٣٩، البقرة: ٧٣، الاحقاف: ٤٣، القيامة: ٤٠، الروم: ٥٠، الحج: ٦) ولكن يجب التركيز على قوله تعالى: ﴿**نُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[٢].

وقد قيل: إنه يدل على نفي العينية لأنّها مما نعلم ولكن قد يقال: إن المراد أنكم لا تعلمون عملية الانشاء.

وعلى أي حال؛ فاننا نستطيع أن ندعي أنه لا توجد آية محكمة تدل على أحد الرأيين دون الآخر ولكنها جميعاً تدل على أصل المعاد الجسماني لا الروحاني.

---

١ ـ يس ٥١ ـ ٥٢.

٢ ـ الواقعة: ٦١.

الفصل الخامس:
القرآن ذكر الهي سالم من التحريف

ولاريب لدى المسلمين جميعاً في سلامة القرآن الكريم من التحريف بالزيادة، وأما التحريف بنقصان بعض نصوصه فقد اتَّجه معظم المسلمين لرفضه أيضاً ولكن ظهرت هناك أقوال تخالف ذلك الاتجاه العام للمسلمين هي:

الأول: القول بنسخ التلاوة.

الثاني: القول بسقوط شيء منه وهو ما نسب إلى بعض المحدّثين الشيعة، وحشوية السنة.

الثالث: القول الحديث بأن النص القرآني مصوغ من قبل النبي صلى الله عليه وآله بعد تشبعه بتعاليم السماء[1].

---

١ ـ ذكره الدكتور سروش أخيراً في كتاباته. ومال إليه من شذ من قبل (راجع بحوث السيد الزرندي ص ٩٠)

أمّا القول الأول فيقتضي التأمل في موارده المذكورة القول بالتحريف[١].

ويأتي الكلام عن القول الثاني بشيء من التفصيل.

اما القول الثالث: فهو يبدو من الوهن بمكان؛ إذ ترفضه الآيات نفسها حيث تقول:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[٢].

﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[٣].

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٤].

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٥].

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾[٦].

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٧].

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[٨].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[٩].

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾[١٠].

---

١ ـ راجع(البيان في تفسير القرآن): ٢٠١ ـ ٢٠٦، وراجع ص١٦٩ ـ ١٧٠ من هذا الكتاب.

٢ ـ سورة الشورى: ٧.

٣ ـ سورة النجم: ١٠.

٤ ـ سورة النمل: ٦.

٥ ـ سورة النجم ٣ ـ ٤.

٦ ـ سورة النمل ٩١ ـ ٩٢.

٧ ـ سورة إبراهيم: ١.

٨ ـ سورة الإسراء: ١٠٥.

٩ ـ القيامة: ١٧ ـ ١٨.

١٠ ـ الإسراء: ١٠٦.

﴿قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ﴾[١].

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾[٢].

﴿أَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[٣].

﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[٤].

﴿الر كِتَابٌ أُحكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٥].

فالقرآن موحىً من الله، متلقّىً من قبل النبي وهو ينطق بالوحي، ويتلو القرآن المنزل من الله بالحق، جمعه الله وعلم رسوله قراءته، فهو يقرأ ما علمه الله بإرادة الله، وهو يتلو آيات الله التي تلاها عليه الله بالحق، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم نوراً وكتاباً مبيناً أُحكم الله آياته ثم فصلها وهو الحكيم الخبير.

فهل يجوز لفرد أن يقول ما قاله هؤلاء المتأثرون بالقراءات الغربية؟

وربما استدل بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[٧].

---

١ ـ يونس: ١٦.

٢ ـ آل عمران: ١٠٨.

٣ ـ النساء: ١١٣.

٤ ـ المائدة: ١٥.

٥ ـ هود: ١.

٦ ـ البقرة: ٩٧.

٧ ـ الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤.

ولكن ظاهر الآيتين نزول القرآن بألفاظه ومعانيه على قلبه الشريف.

ثم إن هناك فرقاً كبيراً بين كلام النبي ﷺ وخطبه وبين القرآن الكريم بلا ريب.

فلا يستحق هذا الرأي مناقشة، وإنا لنعتبره ناتجاً من تأثر صاحبه بمناهج المستشرقين وبالهرمنوطيقيا الغربية المسيحية التي حاولت أن تفسر ما جاء في الإنجيل من آراء تخالف العقل بتفاسير وهمية.

وأمّا القول الثاني فقد تمَّ التسالم على رفضه بعد وضوح أدلة الرفض، ونسهب الكلام فيه لكثرة ما ورد من اتهام للشيعة بالذهاب إليه.

والحقيقة أنَّ على المسلمين نبذ هذا القول وعدم تبادل الاتهام فيه بنسبته إلى الآخر؛ لأن ذلك بطبيعة الحال يؤدي إلى التشكيك في أروع كتاب مسند إلى الله تعالى تملكه البشرية، بعد أن تسالم اليهود والنصارى على أنَّ المعروف من الإنجيل والتوراة هي ثمار أفكار بشرية ادعي أنَّها تشرّبت بتعاليم الإنجيل والتوراة الحقيقيين، فالموجود منهما ثمار أفكار بشرية، أما القرآن الكريم فهو النص الإلهي الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وأي تشكيك فيه تشكيك في هذه الذخيرة الإلهية العظمى، وبالتالي فهي جريمة لا تغتفر إن كانت مقصودة وغير ناتجة عن الغفلة. ذلك للأدلة القرآنية من قبيل قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[2].

وكذلك تعضدها الأدلة الأُخرى، كل ذلك ينفي هذه الشبهة.

---

١ ـ سورة الحجر: ٩.

٢ ـ سورة فصلت: ٤١ ـ ٤٢.

وعلى أي حال؛ فان نسبة القول بالتحريف إلى الشيعة مما لا قيمة له.

يقول الإمام الخوئي: المعروف بين المسلمين عدم وقوع التحريف في القرآن، وأنَّ الموجود بأيدينا هو جميع القرآن المنزل على النبي الأعظم ﷺ، وقد صرح بذلك كثير من الأعلام(الشيعة) منهم:

ـ رئيس المحدثين الصدوق بن بابويه، وقد عد القول بعدم التحريف من معتقدات الإمامية.

ـ ومنهم شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، وصرح بذلك في أول تفسيره(التبيان)، ونقل القول بذلك أيضاً عن شيخه علم الهدى السيد المرتضى واستدلاله على ذلك باتم دليل.

ـ ومنهم شيخ الفقهاء الشيخ جعفر في كتابه(كشف الغطاء) وادّعى الإجماع على ذلك.

ـ ومنهم العلامة الجليل الشهشهاني في بحث القرآن من كتابه(العروة الوثقى) ونسب القول بعدم التحريف إلى جمهور المجتهدين.

ـ ومنهم المحدث الشهير المولى محسن القاساني في كتابيه[1].

ـ ومنهم بطل العلم المجاهد الشيخ محمد الجواد البلاغي في مقدمة تفسيره (آلاء الرحمن).

ويقول الإمام الخوئي: «وجملة القول: ان المشهور عليه بين علماء الشيعة ومحققيهم بل المتسالم عليه بينهم هو القول بعدم التحريف»[2].

وقد ناقش بعد ذلك روايات ذكر فيها التحريف واستخلص منها انها تشير إلى

١ ـ الوافي ١: ٢٧٤ وعلم اليقين ١: ٥٦٥.
٢ ـ البيان: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

اختلاف القراء، أو إلى حمل القرآن على غير معانيه وامثال ذلك، كما ضعَّف رواة بعضها حيث قال:

إن كثيراً من هذه الروايات... نقلت من كتاب أحمد بن محمد السيارى الذي اتَّفق علماء الرجال على فساد مذهبه وانه يقول بالتناسخ، ومنهم علي بن أحمد الكوفي الذي ذكر علماء الرجال أنه كذاب وأنه فاسد المذهب[١].

وسنذكر في ما يلي قائمة من العلماء الشيعة على مر العصور وهم يرفضون التحريف.

القرآن الكريم كما تصوّره روايات أُصول الكافي

تتكون الشخصية الإنسانية من منظومة عقدية وتركيبة نفسية عاطفية تؤدي عند تصاعدها إلى تكوين إرادة وعزم يحرك السلوك الواعي المحقق للهدف.

ويعمل الإسلام بمقتضى واقعيته وفطريته على الاهتمام بكل هذه الأبعاد ليضمن انسجام الإنسان مع المسيرة التي تحقق له أهداف خلقته كما أرادها الله سبحانه لها.

وهذا هو ما نشهده في النصوص القرآنية الكريمة والسنة النبوية الشريفة.

يقول الإمام علي عليه السلام: «العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء»[٢].

ولما كانت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إنّما تعبر عن القرآن والسنة النبوية أروع تعبير كما يبدو من استعراضها أولاً ومن تأكيدهم بكل وضوح في

١ ـ ن. م: ٢٢٦ و ٢٢٩. وانظر: تحريف القرآن اسطورة أم واقع.
٢ ـ بحار الأنوار ١: ٩٦.

أحاديثهم الثابتة علي ذلك[١] ثانياً، فإننا نجدهم: يركّزون على تلك الأبعاد وصياغتها الصياغة المطلوبة. وقد اخترنا أن نركز في مقالنا على كتاب (الكافي) باعتباره من أقدم المصادر الحديثية، إذ يعود تأليفه إلى القرن الرابع الهجري، ومن أهمها لدى الإمامية لما يشتمل عليه من روايات كثيرة هي محط اهتمامهم واعتمادهم.

ورغم أنا لا نؤمن بصحة كل ما رواه المرحوم الكليني قدس سره فإننا سنفترض هنا الاعتماد على هذه الروايات، لأنه قدس سره صرَّح في مقدمته بأنَّه نقلها عمن يثق بعلمه استجابة للسائل، وان كان ذكر بعضها في النوادر، ومن المعروف لزوم الأخذ بالمجمع عليه دون الشاذ النادر، كما جاء في الروايات[٢]. وسنشير في الخاتمة إلى هذا الأمر. ونحن بصدد الوصول إلى الصورة التي تتكوَّن من اتباع هذه الروايات عن القرآن الكريم في خلد المسلم العامل به. ولعل أهم ما في أُصول الكافي مشيراً إلى هذه الصورة جاء في بابين هما:

١- باب الدعاء، وبالخصوص الدعاء عند قراءة القرآن، وحفظه[٣].

٢- باب فضل القرآن[٤].

فهما إذن محط إشارتنا، وسنسير هنا وفق ثلاثة خطوط كما يلي:

أولاً: القرآن الكريم والعقيدة والمفاهيم المنبثقة عنها

وهنا ترسم الروايات أروع صورة عقدية خالصة عن أُصول العقيدة وأهمها

١ ـ وسائل الشيعة ١٨: ٥٨ والكافي ١: ٥٣.

٢ . راجع مثلاً: بحارالأنوار ٢: ٢٢١، ٢٤٥، و١٧: ١٤٩، و٣: ٥٨ و... .

٣ ـ الكافي ٢: ٥٧٣، ٥٧٦.

٤ ـ ن. م: ٥٩٦.

التوحيد، وما يتبعه من تصور للصفات الإلهية، فتؤكد أن الإمام الصادق عليه السلام كان يدعو عند قراءة كتاب الله عز وجل قائلاً:

«اللهم ربنا لك الحمد، أنت المتوحد بالقدرة والسلطان المتين، ولك الحمد، أنت المتعالي بالعز والكبرياء، وفوق السماوات والعرش العظيم، ربنا ولك الحمد أنت المكتفي بعلمك، والمحتاج إليك كل ذي علم، ربنا ولك الحمد يا منزل الآيات والذكر العظيم، ربنا فلك الحمد بما علمتنا من الحكمة والقرآن العظيم المبين، اللهم أنت علمتناه قبل رغبتنا في تعليمه، واختصصتنا به قبل رغبتنا بنفعه، اللهم فإذا كان ذلك منّاً منك وفضلاً وجوداً ولطفا بنا ورحمة لنا وامتناناً علينا من غير حولنا ولا حيلتنا ولا قوتنا، اللهم فحبب إلينا حسن تلاوته وحفظ آياته وإيماناً بمتشابهه وعملاً بمحكمه، وسبباً في تأويله، وهدى في تدبيره وبصيرة بنوره، اللهم وكما أنزلته شفاء لأوليائك، وشقاءً على أعدائك، وعمىً على أهل معصيتك، ونوراً لأهل طاعتك، اللهم فاجعله لنا حصناً من عذابك، وحرزاً من غضبك، وحاجزاً عن معصيتك، وعصمة من سخطك، ودليلاً على طاعتك، ونوراً يوم نلقاك نستضيء به في خلقك، ونجوز به على صراطك، ونهتدي به إلى جنتك»[1].

وواضح التركيز العقائدي على التوحيد بمعانيه، والصفات الإلهية الحسنى، من الحياة والقدرة والعلم والغنى والحكمة واللطف والرحمة وغيرها، والتركيز على الإيمان بالرسالة عبر إنزال القرآن، وعبر التمسك به واستمداد الهدى منه واللجوء إليه استعداداً للآخرة والجواز على الصراط والتنعم بالجنة.

ومن هذا المنطلق العقائدي الرصين، تتدفق المعاني والتوجيهات الكثيرة ومنها:

---

١ ـ ن.م: ٥٧٤.

أ ـ إنّ القرآن يفتح آفاق العلم والمعرفة، حيث تأتي الاستعاذة من الشقاء في حمله والعمى عن علمه والجور عن حكمه والعلو عن قصده، والتقصير دون حقه[١]. ويستمر الدعاء على هذا النحو: (اللهم اجعل لقلوبنا ذكاء عند عجائبه التي لا تنقضي، ولذاذة عند ترديده وعبرة عبر ترجيعه ونفعاً بيناً عند استفهامه... اللهم اجعله لنا زاداً تقوينا به في الموقف بين يديك، وطريقاً واضحاً نسلك به إليك، وعلماً نافعاً نشكر به نعماءك)[٢].

وتقول الرواية في موضع آخر: «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفع، وما حل مصدق، ومن جعله إمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل الإنسان على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره، وليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب، ويتخلص من نشب، فإن التفكر حياة البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص وقلّة التربُّص»[٣].

ويقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «آيات القرآن خزائن، فكلما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر فيها»[٤].

ب ـ القرآن هو الحجة المنجّزة والمعذّرة ومعيار الحق. والروايات كلها تشع

١ ـ ن م: ٥٩٩.
٢ ـ ن. م: ٥٩٩.
٣ ـ ن. م: ٥٩٩.
٤ ـ ن.م: ٦٠٩.

بهذا الأمر، ومنها قوله: «فإنك اتخذت به علينا حجة قطعت به عذرنا، واصطنعت به عندنا نعمة قصر عنها شكرنا، اللهم اجعله لنا شافعاً يوم اللقاء، وسلاحاً يوم الارتقاء، وحجيجاً يوم القضاء»[١].

ج ـ هو الصورة الأسمى للإنسان الكامل، حيث تذكر الروايات أنّ القرآن سيتمثَّل بشكل مجسَّد يوم القيامة، فيظنه المسلمون والشهداء والنبيون والملائكة أنَّه رجل منهم[٢].

د ـ هو معيار دقيق للفهم التاريخي السليم[٣]. فمن خلال ما يشير إليه من سنن يمكن اكتشاف الحقائق التاريخية.

هـ ـ القرآن جامع لتعاليم الأنبياء ومهيمن على الكتب السابقة[٤].

إلى ما هنالك من تصورات تؤكّدها النصوص.

ثانياً: القرآن الكريم وتربية المشاعر

والنصوص في هذا المورد حافلة بالمعاني متنوعة الأساليب إلى حد معجز، تعمّق القرآن في المشاعر، وتربط التأثرات بالمعاني أروع ربط، وتؤكد على قراءته وحفظه والتفاعل مع معانيه.

فلنتابع بعض هذه النصوص بكل تأمل ووعي:

في دعاء الإمام الصادق عليه السلام عند قراءة القرآن نلاحظ هذا المقطع:

«اللهم ارزقنا حلاوةً في تلاوته، ونشاطاً في قيامه ووجلاً في ترتيله، وقوةً في

---

١ ـ ن. م: ٥٧٥.

٢ ـ ن.م: ٥٩٦ و ٦٠١ و ٦٠٢.

٣ ـ ن. م: ٥٩٩.

٤ ـ ن. م: ٦٠١ ح ١٠.

استعماله في آناء الليل من رقاد الراقدين، ونبهنا عند الأحايين التي يستجاب فيها الدعاء من سنة الوسنانين»[١].

وبعد أنواع عظيمة من القسم بأسماء الله، يسأل الداعي ربَّه قائلاً: «أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن ترزقني حفظ القرآن وأصناف العلم، وأن تثبتها في قلبي وسمعي وبصري، وأن تخالط بها لحمي ودمي وعظامي ومخي، وتستعمل بها ليلي ونهاري برحمتك وقدرتك»[٢].

وفي دعاء آخر: «وألزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني، وارزقني أن اتلوه على النحو الذي يرضيك عني، اللهم نوّر بكتابك بصري، واشرح به صدري، وفرّح به قلبي، وأطلق به لساني، واستعمل به بدني»[٣].

وفي الرواية قال رسول الله: «تعلموا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شاب جميل شاحب اللون فيقول له القرآن: أنا الذي كنت قد أسهرت ليلك وأظمأت هواجرك وأجففت ريقك وأسلت دمعتك، أؤول معك حيثما ألت»[٤].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن اختلط القرآن بلحمه ودمه وجعله الله عز وجل مع السفرة الكرام البررة»[٥].

---

١ ـ ن. م: ٥٧٤.
٢ ـ ن. م: ٥٧٦.
٣ ـ ن. م: ٥٧٧.
٤ ـ ن. م: ٦٠٣.
٥ ـ ن. م: ٦٠٣.

ويقول عليه السلام: «ومن أوتي القرآن فظن أن أحداً من الناس أوتي أفضل ما أوتي فقد عظّم ما حقّر الله وحقّر ما عظّم الله»[١].

«وقارئ القرآن في تطور مستمر فهو حال مرتحل»[٢].

«وحملة القرآن عرفاء أهل الجنة»[٣].

ويأتي التأكيد على ختم القرآن وتنوير البيوت بالقرآن[٤].

والحث على قراءته في كل حال[٥]،

وختم القرآن في مكة خلال أسبوع[٦].

وترتيل القرآن بصوت حسن[٧].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرتل ترتيلاً، فإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها وسل الله عز وجل الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوّذ بالله من النار»[٨].

ثم يأتي ذكر فضل قراءة السور[٩].

ثالثاً: القرآن والسلوك

وبطبيعة الحال يأتي تأطير كل السلوك بإطار القرآن فيجعل معياراً عاماً له وضابطاً لكل حركة:

---

١ ـ ن. م: ٦٠٤.
٢ ـ ن. م: ٦٠٥.
٣ ـ ن. م: ٦٠٦.
٤ ـ ن. م: ٦١٠.
٥ ـ ن. م: ٦١١.
٦ ـ ن. م: ٦١٢.
٧ ـ ن. م: ٦١٤.
٨ ـ ن. م: ٦١٧.
٩ ـ ن. م: ٦١٩ فما بعدها.

فيقول الإمام في الدعاء: «اللهم اجعلنا نتّبع حلاله ونجتنب حرامه ونقيم حدوده ونؤدّي فرائضه»[١].

وفي مقطع آخر: «اللهم اجعله لنا ولياً يثبتنا من الزلل ودليلاً يهدينا لصالح العمل، وعوناً هادياً يقومنا من الميل حتى يبلغ بنا أفضل الأمل»[٢].

ويقول الصادق عليه السلام: «وهو الدليل يدل على خير سبيل»[٣].

وخلاصة الأمر

أنّ روايات الكافي تربي الإنسان القرآني الكامل، تصوغ له عقيدته ومفاهيمه القرآنية، وتزكيه وتربيه على التخلق بأخلاقه والتفاعل معه، كما أنّها تعطيه الإطار القرآني للسلوك، فالقرآن حينئذ كل شيء في حياته: يسمع به ويبصر به وينطق به.

ومع كل ما سبق نجد أنّ المرحوم الكليني قدس سره يعطي القرآن في كتابه أعظم المقام ويجله اكبر الإجلال ويدفع الأجيال وخصوصاً أتباع مدرسة أهل البيت لبناء أنفسهم وفقه وتصحيح كل تصوراتهم بمعياره والتفاعل معه كل التفاعل.

ومع هذا لا يبقى مجال للاستماع إلى تهمة موجهة إليه قدس سره من أنّه شكك في حجيته، أو آمن بتحريفه، وبالتالي خرج على الإجماع الإسلامي بسلامته من التحريف وأنّه ذكر الهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وان الله تعالى هو الذي نزّله، وهو الذي تكفَّل بحفظه. فإنّ كل هذه النسب لا يبقى لها مجال. ولكن لنتعرض إليها عرضاً ونقول الحق دفاعاً عن هذا العالم النحرير والمحدّث الجليل.

---

١ ـ ن. م: ٥٧٤.

٢ ـ ن. م.

٣ ـ ن. م: ٥٩٩.

الشيخ الكليني والتحريف

تعد نسبة القول بالتحريف لشيخنا الكليني من أخطر التهم الموجهة إليه. وهذا الخطأ ارتكبه المرحوم الفيض الكاشاني حيث قال: «فالظاهر من ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني طاب ثراه أنَّه كان يعتقد التحريف والنقصان في القرآن»[١].

الأمر الذي أدَّى إلى نتيجة أكثر خطراً وهي (التكفير) حيث استند الشيخ محمد أبو زهره إلى هذه النسبة وأقدم على تكفيره قائلاً: «ومن الغريب أنَّ الذي ادعى هذه الدعاوى الكليني، وهو حجة في الرواية عندهم، وكيف تقبل رواية من يكون على هذا الضلال، بل على هذا الكفر المبين»[٢].

والحقيقة هي أنّ المرحوم الكليني لم يصرح بذلك أبداً، ونقله لبعض الروايات في باب (أنّه لم يجمع القرآن كله إلاّ الأئمة)[٣].

لا يعني الايمان بالتحريف، ورواياته إنّما تركز على الاختلاف في كيفية ترتيب النزول، وجمع القرآن، وعلم القرآن وتفسيره وهي بعيدة عن التحريف.

وكذلك باب (النوادر في فضل القرآن)[٤].

ورواياته بين مؤكدة على حفظ الحروف وتضييع المعاني، وبين التركيز على أنّ علمهم: بتفسير القرآن وعلومه أكثر من غيرهم.

وكل هذا لا يعني الالتزام بالتحريف. ثم إنه موسوعي ينقل الروايات التي يعتمد على إسنادها ولا يعني ذلك الإيمان بكل مضامينها، خصوصاً وأنه نقلها في

١ ـ تفسير الصافي ١: ٥٢.
٢ ـ الإمام زيد: ٣٥١.
٣ ـ أُصول الكافي ١: ٢٢٨.
٤ ـ أُصول الكافي ٢: ٦٢٧.

باب (النوادر) مما يجعلها مشمولة لمنهجه الواضح في رفض الشاذ النادر عملاً برواية (ودع الشاذ النادر)[١].

والأهم من ذلك أنّها لا تدل على التحريف وإنّما على اختلاف في تحديد الآيات، أو على التحريف المعنوي كما دلّت عليه رواية أُخرى نقلها المرحوم إذ تقول: «وكان من نبذهم الكتاب أنّهم أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده»[٢]. أو على الاختلاف في ترتيب الآيات وما إلى ذلك.

أما (التكفير) فهو أمر تسرع فيه الشيخ أبو زهرة، فظلم المرحوم الكليني بذلك. وناقش الأمر المرحوم استأذنا السيد محمد تقي الحكيم فقال: «فرواية هذه الأحاديث في الشواذ النوادر من كتابه، وتعارضها مع مروياته، ولزوم طرحها بالنسبة إلى منهجه الذي رسمه، وعدم التلازم بين الايمان بالصدور ـ لو آمن بصدورها ـ وبين الايمان بمضمونها، كل ذلك مما يوجب القطع بطرحه لهذه الأخبار، وإيمانه بعدم التحريف. على أنّ التحريف لو كان مذهباً له لما صح دعوى الشيخ كاشف الغطاء وغيره إجماع الإمامية على عدم التحريف، ومثل الكليني ممن لا يتجاهل أمره عادة»[٣].

ولكني أعود فأؤكد أنّه لا توجد رواية في الكافي يستفاد منها التحريف بصراحة. وما توهم منه ذلك ذكره في النوادر. فهو إذن بريء من هذه التهمة، ساعد على نشر القرآن وصياغة الإنسان صياغة قرآنية فريدة.

---

١ ـ بحار الأنوار ٢: ٢٤٥.

٢ ـ الكافي ٨: ٥٣.

٣ ـ الأصول العامة للفقه المقارن: ١١١.

علماء الشيعة على مر القرون يرفضون التحريف

وها نحن نذكر قائمة نموذجية بعلماء الشيعة الكبار الذين صرحوا بنفي التحريف[١]:

١ـ ابن شاذان (م ٢٦٠هـ) في (الإيضاح).
٢ـ الشيخ الصدوق (م ٣٨١) في (الاعتقادات).
٣ـ الشيخ المفيد (م٤١٣) في (أوائل المقالات).
٤ـ الشريف الرضي (م٤٠٦) في (حقائق التأويل).
٥ـ الشريف المرتضى (٤٣٦) نقلاً عنه في (مجمع البيان).
٦ـ الشيخ الطوسي (٤٦٠) في (التبيان).
٧ـ الشيخ الطبرسي (٥٤٨) في (مجمع البيان).
٨ ـ الشيخ الرازي (٥٤٨) في (روض الجنان).
٩ ـ الشيخ الراوندي (٥٧٣) في (الخرائج والجرائح).
١٠ ـ الشيخ ابن شهر آشوب (٥٨٨) في (متشابه القرآن).
١١ـ الشيخ ابن إدريس (٥٩٨) في (المنتخب من تفسير القرآن).
١٢ ـ السيد ابن طاووس (٦٦٤) في (سعد السعود).
١٣ ـ العلامة الحلي (٧٢٦) في (نهاية الوصول).
١٤ـ المحقق الكركي (٩٤٠) نقلاً عنه في (شرح الوافية).
١٥ـ المقدس الاردبيلي (٩٣٣) في (مجمع الفائدة والبرهان).
١٦ـ الشيخ البهائي (١٠٣٠) كما نقل عنه في (آلاء الرحمن).

١ ـ لمعرفة نصوص كلامهم يراجع كتاب (النص الخالد) للسيد علي الدار أبي، نشر مجمع البحوث الإسلامية بمشهد ط ١، عام ١٤٣٣.

١٧ ـ صدر المتألهين (١٠٥٠) في (تفسير القرآن).
١٨ ـ الفاضل التوني (١٠٧١) في (الوافية).
١٩ ـ الشيخ الطريحي (١٠٨٥) في (مجمع البحرين).
٢٠ ـ الشيخ الحر العاملي (١١٠٤) في (تواتر القرآن).
وغيرهم من العلماء كثيرون.

الفصل السادس:
النسخ في القرآن

وهو في الاصطلاح رفع أمرٍ ثابت في الشريعة بارتفاع أمده سواء كان ذلك المرتفع من الأحكام التكليفية أو الوضعية، وسواء أكان حكماً أو غيره مما يعود إلى الله تعالى بما هو شارع كما في ما يسمى بـ(نسخ التلاوة).

وقد قيد الرفع بارتفاع الأمد لإخراج الرفع بارتفاع الموضوع خارجاً كارتفاع الصوم بانتهاء شهر رمضان وارتفاع مالية الشخص بموته[1].

شبهة في إمكانه

وقد قيل إن النسخ هو البداء في التشريعات (الأحكام) كما أن البداء هو نسخ في التكوينيات.

وكلاهما مستحيل في حقه تعالى لاستلزامه الجهل بما سيكون.

إذ أن الحكم إن كان ينشأ من مصلحة توجب تشريعه مؤبداً فلماذا ينسخ؟ وإن كان يشأ من مصلحة قصيرة الأمد فلماذا يشرع مؤبداً.

---

١ ـ البيان لآية الله الخوئي: ٢٧٨.

والبداء يعني ظهور ما خفي عليه تعالى وهو مما يتنزه عنه الله تعالى[١].

ولذا ذهب المرحوم الآخوند الخراساني صاحب الكفاية إلى أن النسخ في الأحكام الإلهية ليس بمعنى رفع الحكم ليستلزم الجهل بل بمعنى دفع الحكم أي المنع من الاستمرار تماماً كما في تخصيص العام إلا أن الفرق بينهما هو أن التخصيص يمنع من سراية الحكم العام إلى جميع الأفراد، ولكن النسخ يمنع من سراية الحكم إلى جميع الأزمان.

وهناك حكمة اقتضت إصدار الحكم بشكل يظهر منه الدوام والاستمرار بينما هو في الواقع لا يقبل ذلك.

وقد اعتُرض على المرحوم صاحب الكفاية بأن تعبير الدفع مثلاً لا يصح في التخصيص المتصل فالأفضل أن يقال: إنه بيان أجل الحكم، كما أن الأفضل أن يقال إن حكمةً ما اقتضت إخفاء أمد الحكم في بدء الأمر.

وأما البداء في التكوين فإنه ليس بمعنى ظهور ما خفي عليه تعالى فهو محال ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ**﴾[٢] بل بمعنى ظهور ما خفي علينا من شروط تحقق الخبر. من قبيل الإخبار عن فاجعة معلقة على عدم التصدق ولكنه لا يذكر التعليق هنا بالخصوص لمصلحة ما معتمداً على الإخبار بشكل عام عن أن الصدقة تدفع البلاء كما في أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل عليه السلام وظهر بعد ذلك أن المقصود هو الامتحان[٣]. وقد احتجوا لجواز ذلك ـ أي النسخ ـ حتى قبل العمل بأمور:

---

١ ـ ن. م: ٣٨٣.

٢ ـ آل عمران: ٥.

٣ ـ راجع ما ذكر في النموذج الثاني من بحث (المحكم والمتشابه).

الأول: إطلاق قوله تعالى: ﴿**يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[١].

الثاني: أنه تعالى أمر إبراهيم بذبح ابنه ثم نسخ ذلك قبل العمل.

الثالث: أنه ﷺ عند المعراج أُمر بخمسين صلاة في اليوم فراجع ربه فعادت خمساً.

الرابع: إن المصلحة قد تتعلق بنفس الأمر بهذا الشكل وليس بالعمل. وهناك مناقشات علمية قوية تترك لمحلها من كتب الأصول.

ولكن نذكر أن المرحوم الطبرسي ذكر أقوالاً في الآية الشريفة بلغت الثمانية: ومنها:

١ـ إن ذلك في الأحكام من الناسخ والمنسوخ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد وابن جريج وهو اختيار أبي علي الفارسي.

٢ـ إنه يمحو من كتاب الحفظة المباحات ويثبت الطاعات الإلزامية ونقله عن جماعة.

٣ـ يمحو من الذنوب ما يشاء فضلاً ويثبت ما يشاء عدلاً عن سعيد بن جبير.

٤ـ إنه عام في كل شيء فيمحو من الرزق ويزيد فيه، ومن الأجل إلخ[٢].

وتعدد الاحتمال يبطل الاستدلال وعلى أي حال؛ فإن أقو دليل على الإمكان هو الوقوع شرعاً فإن كثيراً من أحكام الشرائع السابقة قد نسخت في الإسلام، كما أن القرآن صرح بوقوع النسخ في أمثال حكم التوجه إلى القبلة.

---

١ ـ الرعد: ٣٩.

٢ ـ مجمع البيان ٦: ٥٢ ـ ٥٣.

أقسام النسخ

١ـ نسخ التلاوة دون الحكم ومثاله آية الرجم المزعومة.

٢ـ نسخ التلاوة والحكم.

٣ـ نسخ الحكم دون التلاوة وهو المشهور.

أما القسم الأول فقد أكد الإمام الخوئي أنه يؤدي للقول بالتحريف، واستعرض ما ادعي بهذا الصدد روايةً روايةً ليثبت رأيه ـ وهو الحق ـ مستنداً إلى أن الروايات المذكورة هي روايات آحاد ومثل هذه الروايات لايمكنها أن تنسخ القرآن بالإجماع وقد ذهبت جماعة من المعتزلة إلى عدم جواز هذا القسم[١].

والقسم الثاني مثل القسم الأول.

أما القسم الثالث فهو محط البحث إلاّ أن يدّعى وجود تناف بين آيتين يؤدي للقول بالنسخ وهو أمر يرفضه القرآن بقوله تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا**﴾[٢].

فمحط البحث مجئ آية، أو قيام سنة قطعية أو إجماع قطعي على نسخ حكم دون تلاوته وقد اختلف في نماذجه. ونحن نذكر البعض منها ونترك البحث الكامل إلى مظانه.

تنبيه: وقبل الدخول في ذكر المصاديق لابد من التنبيه إلى ما نبّه عليه العلماء وهو:

أن بعض الآيات الكريمة قد تشكل قرينة عرفية على المراد من الآيات الأخرى، كالخاص بالنسبة للعام، وكالمقيد بالنسبة للمطلق ولاريب في أن هذه

---

١ ـ البيان: ٢٠٦.

٢ ـ ن.م: ٢٨٧.

الموارد لا تعد من النسخ وإنما هي من التخصيص والتقييد اللذين لا ينسبان عرفاً للتنافي. ولا يعدان من النسخ[١].

هذا وقد درس الإمام الخوئي ٣٦ مورداً ولم يجد فيها نسخاً إلا في آية النجوى الآتية. وذكر السيوطي عشرين مورداً ونظمها[٢].

وقد حقق العلامة الزرندي هذه الموارد جميعاً[٣] ولم يجد فيها نسخاً غير موارد أربعة[٤].

أما الشيخ الزرقاني فقد ذكر الآيات العشرين التي ذكرها السيوطي وأضاف اليهما اثنتين ورفض النسخ في أكثرها.

وسنذكر ثلاثة نماذج هي:

نماذج منها ادعي نسخه

النموذج الأول: آية المتعة

وهي قوله تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾[٥] والظاهر أن المراد كان واضحاً.

وهو نكاح المتعة. والمشهور بين علماء السنة أنها نسخت وثبت تحريمها، في حين أن علماء الشيعة يجمعون على بقاء حليتها وقد وافقهم جماعة من الصحابة والتابعين كابن مسعود، ومعاوية وابن عباس وغيرهم ومن التابعين طاووس،

١ ـ راجع البيان: ٢٨٧، وبحوث في تاريخ القرآن وعلومه للسيد الزرندي.
٢ ـ الاتقان ٢: ٢٣.
٣ ـ بحوث... بدءاً بالصفحة ٢٠٠.
٤ ـ هي الآيات: (آل عمران: ١٠٢، والبقرة: ٢٤٠، والنساء: ١٥، والانفال: ٦٦).
٥ ـ النساء: ٢٤.

وسعيد بن جبير وغيرهم ونسب القول بها إلى الإمام مالك، وأحمد عند الضرورة[١].

هذه الآية قيل بنسخها تارة بآية الطلاق والعدة[٢] ولكن الشيعة يقولون بالعدة في المتعة، وقيل بنسخها بآية ﴿**وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ**﴾[٣] والمتمتع بها لا ترث ولا تورث ولكن ما دل على عدم الإرث يخصص آية الإرث ولا ينسخها. وقيل إنها نسخت بأخبار آحاد وقد مر أن النسخ لا يثبت بها، وهي معارضة بما ثبت من أخبار أهل البيت عليهم السلام المتواترة. ثم إن من المسلم أنها أي المتعة كانت حلالاً في الأزمنة الأخيرة من حياته صلى الله عليه وآله[٤].

وقد ناقش السيد الخوئي الروايات الدالة على تحريم النبي صلى الله عليه وآله لها بأقوى مناقشة فراجع[٥].

فالآية محكمة غير منسوخة.

النموذج الثاني: آية المناجاة

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٦].

وقد قيل: إنها منسوخة بالآية التي تلتها: ﴿**أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ**

١ ـ البيان للإمام الخوئي.
٢ ـ الطلاق: ١.
٣ ـ النساء: ١٢.
٤ ـ تراجع الصحاح ومنها صحيح مسلم ٤: ١٤١، مسند أحمد ٣: ٣٢٥، سنن البيهقي ٧: ٣٠٦ وغيرها.
٥ ـ البيان: ٣١٨ ـ ٣٣١.
٦ ـ المجادلة: ١٢.

نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[١].

وقد جاءت روايات عديدة من طرق الفريقين الشيعة والسنة تؤكد هذا المعنى وأنه بنزول الآية الأولى قام علي عليه السلام بالتصدق المكرر وقدمها بين يدي نجواه معه صلى الله عليه وآله [٢] ثم جاء النسخ.

النموذج الثالث: آية الاكراه

الآية الشريفة: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ منَ الْغَيِّ**﴾[٣].

وقد قيل إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾[٤].

والحق أنها غير منسوخة بل هي آية تقرر حكماً عاماً قد لا يقبل التخصيص فضلاً عن النسخ، وذلك للتعليل الوارد فيها وهو تبين سبيل الرشد من سبيل الغي، وهو أن الاكراه لا محل له بعد هذا الوضوح فلا يصح ادعاء التخصيص بطائفة من الكفار كأهل الكتاب، كما لا يصح التخصيص بمرحلة ما قبل الإسلام وادعاء استثناء ما بعد الإسلام مثلاً بالخبر الوارد في الارتداد (من بدل دينه فاقتلوه) [٥].

---

١ ـ المجادلة: ١٣.

٢ ـ تراجع تفاسير (البيان للطوسي) و(الخصال للصدوق: ٥٤٧) و(الطبري) و(القمي) و(الدر المنثور) و(الرازي) و(الاتقان) وغيرها ويكاد يجمع المحدثون والمفسرون على ذلك.

٣ ـ البقرة: ٢٥٦.

٤ ـ التوبة: ٧٣.

٥ ـ كما ذكره الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه العقوبة: ٨٤

والحقيقة من أن الآية الشريفة تتحدث عن أن الإيمان بالدين إنما يتم بالاختيار لا بالإجبار لأنه عمل نفسي لا يتحقق إلا من خلال القناعة الداخلية.

فلا معنى لنسخها بآية الجهاد، وهي إنما تهدف للرد على فتنة الكافرين والمشركين وقتالهم للمؤمنين وعد فسح المجال لهم ليبينوا آرائهم بحرية حتى يقتنع الآخرون بها دونما إجبار.

والخلاصة أن الآية خبرية لا إنشائية فلا معنى لنسخها أو تخصيصها بجملة إنشائية[١] إلا أن يقال بالنسخ من خلال اللوازم والآية كما قلنا تأبى النسخ والتخصيص.

القاعدة الأصولية في النسخ

المرحوم آية الله المظفر بعد أن ذكر أن ما ثبت فيه النسخ ـ على سبيل الجزم ـ قليل جداً، وهو لا يهمنا كثيراً من ناحية فقهية استدلالية لمكان القطع فيها، ذكر القاعدة الأصولية المستخلصة من البحث وهي:

أن الناسخ إن كان قطعياً أخذنا به واتبعناه وإن كان ظنياً فلا حجة فيه ولا يصح الأخذ به، لوجود إجماع على عدم جواز ا لحكم بالنسخ إلا بدليل قطعي.

وأضاف: (ولذا أجمع ا لفقهاء من جميع طوائف المسلمين على أن الأصل عدم النسخ. وهذا الإجماع ليس من جهة ذهابهم إلى حجية الاستصحاب كما ربما يتوهمه بعضهم، بل حتى من لا يذهب إلى حجية الاستصحاب يقول بإصالة عدم النسخ) [٢].

١ ـ يراجع بحثنا في الموضوع في كتاب (حول الدستور الإسلامي) ص ٣٧٢.
٢ ـ أصول الفقه ٣: ٥٠ طبعة المطبعة العلمية ـ النجف.

الفصل السابع:
حجية الظواهر القرآنيه

وبادئ ذي بدء نقول: إن هذا البحث كما هو مهم في علم الأصول فهو ذو أهمية بالغة في علوم القرآن والتفسير. فبدون الانتهاء إلى حجية الظهور القرآني لا تبقى لباقي البحوث جدوى إلا قليلاً.

ومن الواضح أن حجيته من صغريات مسألة حجية الظواهر. وهي مما تسالم عليه الناس وإلا لما أمكنهم التفاهم لذلك كان علينا قبل أن نعتمد على هذه الأصالة. أن نفحص عن القرائن فإن يئسنا منها عملنا بعمومات الكتاب وإطلاقاته.

وقد استدل الأصوليون لذلك بأدلة من قبيل:

١ـ إن القرآن نزل حجةً على الرسالة، وإن النبي تحدّى البشر على أن يأتوا ولو بسورة من مثله. ولا ريب أن العرب كانت تفهم القرآن من ظواهره.

٢ـ الروايات الآمرة بالتمسك بالثقلين ولا يعني إلا العمل بما يشتمل عليه.

٣ـ الروايات الواردة في عرض الأحاديث على كتاب الله.

٤ـ استدلالات الأئمة: بالظواهر القرآنية، وهي كثيرة[1].

---

١ ـ البيان للإمام الخوئي: ٢٦٣ ـ ٢٦٧.

مصادر التشكيك في حجية الظواهر القرآنية:

وقد ذكر استاذنا الحكيم هذه المصادر كما يلي وأجاب عليها[١]:

أولاً: ما نسب للأخباريين من دعوى التوقف فيها لأمرين:

أ- وجود علم إجمالي بطرو مخصصات من السنة وهي تقيد العمومات والاطلاقات، والعلم الاجمالي ينجزّ متعلقه، ويمنع من جريان الأصول وحتى اللفظية منها فلا مجال للتمسك بأصالتي العموم والإطلاق.

وجوابه: إن هذا العلم الاجمالي ينحل بعد الفحص في الآيات والروايات والعثور على مقدار المعلوم بالاجمال فإذا بقيت أطراف مشكوكة نفيناها بالأصول اللفظية.

ب ـ ما جاء عن طرق الفريقين من المنع عن تفسير القرآن بالرأي، أو بالنهي عن العمل بالكتاب دون الرجوع إلى أهل البيت عليهم السلام .

والجواب هو أن العمل بالظواهر وهي واضحة الدلالة ليس من العمل بالرأي، والرجوع إلى روايات أهل البيت عليهم السلام مفروض كما بينا قبل قليل.

ثانياً: ما نسب إلى بعض المحدثين من أن فهم القرآن مختص بمن خوطب به. وقد ناقش الأصوليون هذا الاستدلال بأن المراد به فهم القرآن حق فهمه ومعرفة ظاهره وباطنه وناسخه ومنسوخه.

وهذا بيّن لمن لاحظ هذه الروايات.

ثالثاً: شبهة التحريف وقد بينا الحق فيها فلا شبهة في البين.

فظواهر القرآن حجة بلاريب ولا مجال للتشكيك.

---

١ ـ أصول الفقه المقارن ١: ١٣٤ ـ ١٥١ طبعة مجمع التقريب.

القسم الثاني:

الوحي والإعجاز وشبهات المستشرقين

موقف المستشرقين من الإسلام و نزعاتهم

النزعة الأولى: تطويع المسلمين للاستعمار وتمكينه منهم

النزعة الثانية: المستشرقون ونزعتهم الصليبية

أخطاء المستشرقين في البحوث الإسلامية

تحامل المستشرقين على القرآن والسنة خاصة

شبهات المستشرقين حول الوحي والقرآن

أشكال الشعور الواعي

القسم الثاني:
الوحي والإعجاز وشبهات المستشرقين

متى نشأ الباعث على الحركة الاستشراقية؟

من الصعب على الباحث تحديد زمنٍ لوجود الباعث للحركة الاستشراقية، ولكن يمكن أن نتصور ذلك نتيجة للّقاء الذي تمّ بين الغرب والشرق بصوره المختلفة؛ فإنّ هذا اللقاء أدّى إلى تفاعل ثقافي كبير بين العالم الإسلامي والعالم الغربي المسيحي.

وبسبب هذا كانت بعض أجزاء العالم الإسلامي ـ كالأندلس ـ تحتضن لفترة طويلة من الزمن جماعات من الغربيين يدرسون الثقافة الإسلامية ومقوّمات الحياة الاجتماعية للجماعات المسلمة.

كما أنّه نتيجة للتوسع الإسلامي ـ الفكري والسياسي ـ الذي حصل على

حساب الوجود المسيحي والحروب الصليبية وما أعقبتها من هزائم... نجد العالم المسيحي حين ذاك يقوم بتأسيس بعض المدارس الخاصّة بالدراسات الشرقية محاولة منه لصدّ الغزو الفكري والعقائدي الذي جاءت به رسالة الإسلام السمحاء ومبادئها القويمة السهلة.

ويجدر بنا أن نؤكّد ـ بهذا الصدد ـ على ملاحظة هامة ذات صلة وثيقة بالموضوع هي العلاقة المتينة المستحكمة التي تربط بين أهداف الاستعمار في العالم الإسلامي والبلاد الشرقية ووسائله، وبين أهداف الإستشراق ووسائله. بل يمكننا أن نجزم بأنّ الاستشراق كان ولا يزال وسيلة بارزة من الوسائل التي استخدمها الاستعمار في تحقيق أهدافه في العالم الإسلامي؛ لأنّ دراسة المستشرقين للإسلام قامت ـ في أول الأمر ـ بوحي من الكنيسة الكاثوليكية خاصّة للانتقاص من تعاليم الإسلام وإهدار قيم تعاليمه حرصاً على مذهب الكثلكة من جانب، وتعويضاً عن الهزائم الصليبية في تحرير بيت المقدس من جانب آخر.

ثم تبنّى الاستعمار الغربي هذه الدراسة في الجامعات الغربية نفسها حتى يقوى القائمون بأمرها على تصديرها إلى الشرق الإسلامي في صورة كتب تؤلف وترسل إلى طلاب الثقافة، أو في صورة طلاب من الشرق الإسلامي يُدعون أو يُعاوَنون على الدراسة هناك، ثمّ يُمنحون من الألقاب العلمية ما يتمكّنون بها من الظفر بوظيفة التوجيه في الكلّيات النظرية بالجامعات الحديثة في الشرق الإسلامي[1].

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نتصور الوجود الاستشراقي الحديث مرتبطاً

١ ـ محمّد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ٢٤.

بالوجود الاستعماري في العالم الإسلامي، كما نربط الباعث على الحركة الاستشراقية بالأهداف الاستعمارية للعالم الغربي.

ويلخّص لنا الأستاذ محمّد البهيّ تسلّل الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي بقوله:

في بداية منتصف القرن التاسع عشر وعلى التحديد في سنة ١٨٥٧ تمّ للإنجليز الاستيلاء على الهند سياسيّاً، وانتقلت سلطة الحكم رسميّاً من شركة الهند الشرقية التي تأسست في ٣١ / ديسمبر ١٦٠٠ م والتي انضمّت مع شركة أخرى جديدة في سنة ١٦٨٩ إلى التاج البريطاني وزالت بذلك إحدى الدول الإسلامية الثلاث الكبرى التي قامت في مستهلّ القرن السادس عشر الميلادي وهي دولة المغول في الهند، وأمّا الدولتان الأخريان ـ إذ ذاك ـ فهما الدولة الصفوية في إيران ودولة الأتراك العثمانية في آسيا الصغرى وشرق أُوربا.

كما تمّ في نفس السنة وهي سنة(١٨٥٧م) استيلاء الفرنسيين على الجزائر كلها إلى الصحراء بعد أن ابتدأوا في غزوها سنة(١٨٣٠م).

ومن قبل هاتين الدولتين الاستعماريتين(انجلترا وفرنسا) احتلّت هولندا في بداية القرن السابع عشر جزر الهند الشرقية(اندونيسيا) عن طريق شركة الهند الهولندية التي تأسّست في سنة(١٦٠٢م) وذلك بعد ما ضاع استقلال البرتغال بإعلان ملك اسبانيا ضمّها إلى بلاده في سنة(١٥٨٠).

فبعد قرنين ونصف ـ أي منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ـ تمكّن الاستعمار الغربي المسيحي من السيطرة سيطرة تامة على المسلمين في وسط آسيا وشرقها، واتّخذ له نقطة ارتكاز رئيسية في إفريقية. كما تمكّن من مدّ نفوذه إلى قلب العالم الإسلامي من الشرق والغرب وسلّط ألاعبيه ودسائسه على بقية التجمعات الإسلامية الأُخرى بين

هذين الطرفين. وما أن جاءت الحرب العالميّة الأولى وانقضى أجلُها حتى أصبح العالم الإسلامي كله تحت نفوذ هذا المستعمر[١].

ومن خلال هذه الصورة الصغيرة لتسلّل الاستعمار الغربي يمكننا أن نتعرّف على صورة أخرى لنشوء البواعث للحركة الاستشراقية كمواكبة أو تمهيد لتحقيق بعض الأهداف الاستعمارية التي كان يستهدفها الاستعمار الغربي طيلة محاولاته للتسلل إلى العالم الإسلامي.

ولابدّ لنا بهذا الصدد أن نفرّق بين الاستشراق كحركة تقوم بجماعة معينة من الناس لها أهداف معينة، وبين الاستشراق ضمن مجموعة من الافراد لا تربطهم صلة ولا هدف؛ فإنه على أساس النظرة الثانية قد نجد الدافع العلمي والرغبة في الاطلاع على ما في الشرق الإسلامي من معارف وعلوم وتشريع وحضارة؛ لأنّه كان يمثّل قمّة التقدم البشري حينذاك.

ما هي حركة الاستشراق؟

وحركة الاستشراق هذه تعني في الحقيقة الحركة ذات المظهر الثقافي والعلمي التي قادها جماعة من الغربيين في دراساتهم لأحوال الشرق الثقافية والاجتماعية والسياسية والتي كان لها تأثير بالغ الأهمية في حياة الشرق الثقافية وبالتالي الفكرية والاجتماعية والسياسية، لما تتمتّع به الثقافة من مركز خطير في حياة كل أمة وجماعة إنسانية.

وقد جاءت حركة الاستشراق واسعة النطاق فشملت كلّ الشرق بدياناته ومذاهبه ومجتمعاته المختلفة.

كما أنّ الذين قادوها كانوا يتّصفون غالباً بأنّهم رجال دين كرّسوا حياتهم

١ ـ المصدر السابق: ٢٩ ـ ٣٠.

لخدمة ديانتهم الخاصّة وإن كانوا يحاولون أن يسبغوا على أبحاثهم الصفة العلميّة الموضوعية.

ونجد بعض المستشرقين أحياناً ينزع إلى العلمانية والتجرّد عن الصفة الدينية بشكل مطلق ليؤكدوا بذلك الصبغة الموضوعية في أبحاثهم.

ونحن في دراستنا الخاصّة هذه سوف نقتصر على الحديث عن حركة الاستشراق فيما يختص منها بالعالم الإسلامي والأُمّة الإسلامية وذلك للأسباب التالية:

أوّلاً: أنّ العالم الإسلامي يعتبر إلى وقت قريب نقطة الارتكاز المهمة في الشرق بشكل عام سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية. ولذلك كان الهدف الرئيس لكثير من أعمال المستشرقين وأساليبهم.

ثانياً: أنّ أسباباً معيّنة سوف تنكشف خلال حديثنا عن الاستشراق كانت تدفع المستشرقين إلى التأكيد على العالم الإسلامي بالخصوص إلى جانب الأهمّية التي كان يتمتع فيها الشرق بصورة عامة.

ثالثاً: إنّنا بوصفنا مسلمين يجب أن نهتمّ بهذا الجانب من الاستشراق في دراستنا له؛ لأنّه الجانب الذي يعنينا بشكل خاص.

موقف المستشرقين من الإسلام و نزعاتهم

لقد تحدّث الأستاذ محمّد البهي عن موقف المستشرقين من الإسلام في مواضع متعددة من كتابه، وسوف نلخّص ما ذكره بهذا الصدد ونضيف إليه بعض التعليقات التي نراها تنسجم مع هذا الغرض.

ينطوي عمل الدارسين للإسلام من المستشرقين على نزعتين رئيستين.

النزعة الأولى: النزعة الاستعمارية وتمكين الاستعمار الغربي في البلاد

الإسلامية وتمهيدُ النفوس بين سكّان هذه البلاد لقبول نفوذ الأُوربي والرضا بولايته.

النزعة الثانية: الروح الصليبية في دراسة الإسلام تلك النزعة التي لبست في اطار حركة الاستشراق ثوب البحث العلمي وخدمة الغاية الإنسانية المشتركة.

النزعة الأولى: تطويع المسلمين للاستعمار وتمكينه منهم

تتجلّى هذه النزعة في خطّين رئيسيّين:

الخط الأول: إضعاف القيم الإسلامية الدينية.

الخط الثاني: تمجيد القيم الغربية المسيحية.

وقد نهج المستشرقون تنفيذاً للخط الأول طريقاً في شرح تعاليم الإسلام ومبادئه يضعّف في المسلم تمسّكه بالإسلام ويقوّي فيه الشك به كدين أو على الأقلّ كمنهج سلوكي يتّفق وطبيعة الحياة القائمة. كما أنّهم درسوا العلاقات الاجتماعية القائمة في المجتمع الإسلامي بشكل يؤدّي إلى تفكيك الرابطة الإسلامية ويقضي على الشعور بالوحدة الدينية كإثارة النعرات الطائفية والقومية والخلافات بين زعماء البلاد الإسلامية.

وهناك شواهد كثيرة تدل على هذا المنهج الذي سار عليه المستشرقون. فـ«رينان» المستشرق الفرنسي المعروف يحاول أن يصوّر عقيدة التوحيد في الإسلام بأنها عقيدة تؤدي بالفرد المسلم إلى الحيرة وتحط به كأنسان إلى أسفل درك. على حين أنَّ عقيدة التوحيد مزية الإسلام وآية على أنه الرسالة الكاملة الواضحة لخالق الكون إلى عباده، كما أنّها الطريق السليم والوحيد إلى رفع شأن الإنسان وتكريمه وتحريره من سائر العبوديات الأُخرى؛ لأنّ صاحب هذه العقيدة لا يخضع في حياته لغير الله ولا يتوجّه في طلب العون إلى غيره سبحانه.

ولكنّ رينان يأبى هذا كلّه ويقول بصدد الحديث عن عقيدتي القدر والاختيار:

وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان إحداهما (ربانية) والثانية (بشرية) تمثّلان ذينك المذهبين ـ مذهب الجبر ومذهب الاختيار ـ المتناقضين ولكن بتلطيف في التناقض.

أمّا الأولى (الديانة الربانية) فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية وإن كانت مشتقة منه وغصناً من دوحته. ومن خصائص هذه الديانة (المسيحية) ترقية شأن الإنسان بتقريبه من الحضرة الإلهية!

على حين أنّ الديانة الثانية (البشرية) وهي الإسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحطّ بالإنسان إلى أسفل درك وترفع الإله عنه في علاء لا نهاية له.

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهوراً واضحاً في الاعتقاد الأساسي لكلتا الديانتين وهو أصل الأُلوهية. أمّا المسيحي فيذهب في هذا الأصل إلى الثالوث أي أنّ الإله أوجد الإله الابن واتّصل الاثنان بصلة هي روح القدس. وعليه فيكون يسوع المسيح إلهاً ومبشّراً.

هذا الثالوث السرّي المشتقة أصوله من ضرورة إله بشري يمحو ذنب الجنس البشري ويفديه من الخطيئة التي اقترفها...يرفضه المسلم الذي يعتقد بوحدانية الرب ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسّكاً شديداً حيث يقول: لا إله إلاّ الله. غير أنّ إدراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخفّ وأعلى وأجلب للثقة إذ هو يحملهم على إتيان الأعمال التي تقرّبهم إلى الله، حيث الوسائط بينهم وبين ذاته الحالية موصولة. في حين أنّ المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوي في الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات

والاستغاثة بالله الأحد الذي هو مستودع الآمال، ولفظة الإسلام معناها (الاستسلام المطلق لإرادة الله).

وقد كتب رينان في الربع الأخير من القرن التاسع عشر هذا المعنى وكان يظن أنّ هذا الأُسلوب مختص بالعقلية الاستعمارية التي كانت تسيطر على العالم الغربي آنذاك.

واما العقلية العلمية التي تدّعيها العقلية الغربية المعاصرة والتي يُنظر إليها على أنّها من مفاخر القرن العشرين؛ لأنّها تزعم أنّها لا تخضع ـ في بحث المسائل وإصدار الأحكام ـ لأيّ أثر حزبي أو مذهبي أو عاطفي ممّا يتأثّر به الإنسان العادي كان يُظن أنّ القرن العشرين لا يصدر فيه مثل تصوير رينان المتحيّز للتثليث المسيحي ضدّ التوحيد الإسلامي، ولكن مجلة أمريكية يصدرها الدكتور «كريج» مدير مؤسسة هارتفورد للدراسات الدينية الشرقية ردّد هذا التصوير في شرح آية ﴿**إلى الله المصير**﴾ فيقول ما ترجمته: (أنّ إله الإسلام متكبّر جبّار مترفّع عن البشرية يطلب أن يسير العباد نحوه. بينما إله المسيحية عطوف متواضع يتودّد للناس فظهر في صورة بشر وذلك هو الإله الابن، فعقيدة التثليث في المسيحية قرَّبت الإنسان من الإله وأعطته نموذجاً رفيعاً واقعياً في حياته يسعى ليتقرب منه. أمّا عقيدة التوحيد فباعدت بين الإنسان والإله وجعلت الإنسان متشائماً من شدّة الخوف منه ومن جبروته وكبريائه).

ونجد مثل هذا الاتجاه المتحيِّز والموقف الملتزم في تفسير أكثر المبادئ الإسلامية روعة وأعظمها أثراً وفاعلية.

فمبدأ الزكاة يفسّر على «أنّ الأموال في نظر الإسلام هي من أصل شيطان نجس، ويحلّ للمسلم أن يتمتّع بهذه الأموال شريطة أن يطهّرها وذلك بإرجاع هذه الأموال

إلى الله»[١]. وكأنّه أخذ هذا التفسير الخاص لمبدأ الزكاة من قوله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم**﴾.

ولم يفهم أنّ الضمير يرجع إلى الناس لا إلى الأموال، وأنّ الطهارة روحية لا طهارة مادّية حسّية.

وليس هذا التفسير للزكاة اختص به هذا المبشّر بشكل خاص وإنّما يردّده غيره من المسيحيين القائمين على الدراسات الإسلامية في الوقت الحاضر. ففي تاريخ ٥ ابريل ١٩٥٦ تحدّث أب دومينيكاني من مصر كان يقوم بإلقاء محاضرات عن علم الكلام الإسلامي بجامعة مونتريال الأمريكية عن النظرة الإسلامية للحياة فقال: «إنّ المسلمين يتجنّبون الناس الذين ينشغلون بالمال ويعتبرونهم أقرب للكلاب منهم للبشر». وبمثل هذه النظرة يشرح المستشرقون مبدأ(قوامة الرجل) بأنه عبارة عن الالتزام بالتفوق الطبيعي ومبدأ الجهاد بأنه فكرة عدوانية، ومبدأ عدم زواج المسلمة بغير المسلم بأنه فكرة عنصرية، ومبدأ العودة إلى مبادئ القرآن بأنها رجوع إلى الحياة البدائية[٢].

والخط الثاني: للتمكين الاستعماري من البلاد الإسلامية هو تمجيد القيم الغربية المسيحية وشرح صلاحيّتها لإقامة الحياة الاجتماعية على أساسها.

وقد انطلق المستشرقون في هذا الأُسلوب من نقطة بارزة كان لها في عقل الفرد المسلم وضميره وحياته تأثير كبير، وهذه النقطة هي التقدّم الصناعي والتفوّق التكنولوجي للغرب والزيادة الملحوظة في دخل الفرد والرفاه المادّي في الحياة الاجتماعية الغربية، حيث حاول المستشرقون أن يربطوا ذلك بالقيم

١ ـ دراسة الإسلام في افريقيا السوداء لمؤلفه فيليب فونداسي.

٢ ـ راجع تفصيل ذلك في الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: ٥٢ ـ ٦٤.

والمثل المسيحية على أساس أنّها هي السبب في انطلاقة الغرب الصناعية والاجتماعية. وقد اعتبرت حلقة الوصل في هذا الربط تبنيّ الغربيين للديانة المسيحية على أنّها الديانة العامّة لشعوبهم.

فالغربيون مسيحيون والغربيون متقدّمون. إذن سبب التقدّم هو القيم والمثل الغربية المسيحية، والشرقيّون مسلمون والشرقيّون متأخّرون. إذن القيم والمثل الإسلامية هي سبب هذا التأخر. وقد فات هؤلاء أنّ أُوربا كانت ترزح تحت أثقال الجهل والمرض والفساد الاجتماعي وتعيش عصوراً مظلمة حين كانت تسيطر عليها المسيحية في الوقت الذي كانت تعيش الأمة الإسلامية حياة مزدهرة حين كان يعيش الإسلام وجوداً اجتماعياً في صفوفها ويتحكّم في علاقاتها وتصرّفاتها.

ثم أين هي القيم المسيحية ذات الأثر الايجابي في هذه المدنيّة الصناعية الأوربية؟! ليست هناك أيّ صلة بين المسيحية كدين وبين هذه الحضارة الصناعية الغربية؛ لأنّ المسيحية ليست إلاّ سلوكاً فرديّاً يستوحى من السلوك الخلقي لشخص عيسى عليه السلام[1].

نعم تقوم هذه الصلة بين المسيحية والحضارة الغربية الصناعية في أنّ صاحب الحضارة يرفع المسيحية شعاراً ويتبنّاها ديناً وإن كان لا يلتزم بقيمها ومثلها واقعاً وعملاً.

النزعة الثانية: المستشرقون ونزعتهم الصليبية

والنزعة الثانية التي تتحكّم في أعمال المستشرقين وأبحاثهم الروح الصليبية

١ ـ راجع مقدمة كتاب(اقتصادنا) الطبعة الثانية لمعرفة حقيقة تأثير الأخلاق الإسلامية والأخلاق الغربية على التقدم الاجتماعي والمدني.

الدينية التي استبطنت الحقد والبغضاء نتيجة للعوامل السياسية والاجتماعية والدينية التي كانت تربط المسيحية بالإسلام.

ولذلك نجد أنّ أعمال المستشرقين المرتبطين بالكنيسة تنبىء عن الحقد أكثر ممّا تنبىء عن محاولة إضعاف المسلمين وتحطيم قيمهم الفكرية والروحية، ويبدو ذلك جليّاً واضحاً في أعمال المستشرقين الكاثوليك وبالأخصّ المستشرقين الفرنسيين.وقد صوّر المستشرق المسلم(محمّد أسد) هذه الروح الصليبية وتأثيرها في أبحاث المستشرقين في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) كالتالي: «لا تجد موقف الأُوربي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات عن الإسلام، بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على جذور من التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقلياً فقط ولكنه أيضاً يصطبغ بصبغة عاطفية قوية.

وقد لا تقبل أُوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية، ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف متزّن ومبنيّ على التفكّر.

لكنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب. حتى أنّ أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام، ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر، كما أنّ الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنّه (موضوع بحث) في البحث العلمي، بل إنّه متهم يقف أمام قضاته[1].

إنّ بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصيّاً بإجرام موكله لا

١ ـ راجع الإسلام على مفترق الطرق.

يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيءٍ من الفتور اعتبار الأسباب المختلفة.

وعلى الجملة، فإنّ طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتّبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع دواوين التفتيش، تلك الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى، أي أنّ تلك الطريقة لم يتّفق لها أبداً أن نظرت في القرائن التاريخية بتجرد وعدم تحزب.

إنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متَّفق عليه من قبل قد أملاه عليها تعصبها لرأيها، ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذي يقصدون أن يصلوا إليه مبدئياً، وإذا تعذر عليهم الاختيار العرفي للشهود عمدوا إلى اقتطاع أقسام الحقيقة التي شهد بها الشهود الحاضرون ثم فصلوها عن المتن أو تأوّلوا الشهادات بروح غير علمية من سوء القصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى القضية من وجهة نظر الجانب الآخر أي من قبل المسلمين أنفسهم.

والشواهد على هذه الروح الحاقدة في أعمال المستشرقين كثيرة نذكر منها المثال التالي:

يقول المستشرق الفرنسي كيمون واصفاً الإسلام:

«إنّ الديانة المحمدية جذام تفشَّى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمود والكسل ولا يوقظه منهما إلاّ ليسفك الدماء ويدمن معاقرة الخمور وإمعان في القبائح.

وما قبر محمد إلاّ عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع العامة والذهول العقلي وتكرار لفظة «الله» إلى ما لا نهاية والتعوّد على عادات تنقلب إلى طباع أصيلة ككراهة لحم الخنزير

والنبيذ والموسيقى وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور والانغماس في اللذات»[١].

أخطاء المستشرقين في البحوث الإسلامية

أسبابها ـ نتائجها

أ) أخطاء المستشرقين

لقد انتهى المستشرقون في البحوث الإسلامية إلى عدة نتائج خاطئة، وقد عرفنا بعض هذه الأخطاء عندما عرضنا موقفهم من الإسلام. ويحسن بنا ـ قبل أن نذكر أسباب هذه الأخطاء والنتائج التي أدت إليها ـ أن نشير بشكل إجمالي إلى الأُسس العامة التي تفرعت عليها هذه الأخطاء، وهي كما يلي:

١ ـ محمّد، مصلح ديني وضع نظاماً جديداً دينياً أسماه «الإسلام»، وأولى بهذا النظام أن يسمى بالمذهب المحمّدي، ومحمّد في الوقت نفسه إنسان عادي وقرآنه صنعة بشريّة يكثر فيها التناقض وعدم الانسجام.

٢ ـ والإسلام الذي وضعه محمّد تأثّر فيه بالتعاليم الدينية السابقة عليه، كتعاليم اليهوديّة والمسيحية، وهو حين اقتبس من تعاليم هاتين الديانتين حرف ما اقتبسه نتيجة لتأثره بعوامل شخصية وبشرية؛ ولذا نجده مثلاً ينكر أُلوهية المسيح.

٣ ـ والإسلام بعد ذلك دين فردي شخصي لا يصح له أن يتدخل في حياة الأفراد وعلاقاتهم بعضهم ببعض، ولذا يجب فصله عن المجتمع والدولة.

٤ ـ وهو نفسه ـ أيضاً ـ يخضع لعوامل الزمن والتطور الاجتماعي، فلابد من

---

١ ـ تاريخ الإمام محمد عبده ٢: ٤٠٩.

تطويره تبعاً لتطورها فهو موقوت ـ بمبادئه وأحكامه ـ بهذا التطور.

ب) أسباب أخطاء المستشرقين

وبصدد معرفة السبب لأخطاء المستشرقين في بحوثهم الإسلامية، لابدَّ لنا أن نلاحظ الترابط الوثيق بين شتّى العوامل والمؤثرات السياسية والنفسية والفكرية للمستشرقين أنفسهم، الأمر الذي أدَّى بدوره إلى وجود كثير من الأخطاء الأُخرى وتراكمها في بحوث المستشرقين. ونحن وإن كنا قد ألمحنا إلى بعض هذه الأخطاء وأسبابها، ولكن يمكننا أن نجمل هنا هذه الأسباب بالعوامل التالية:

١ ـ الأهداف الاستعمارية التي كانت تختفي وراء أعمال المستشرقين، وبحوثهم متسترة بالروح العلمية والدراسة الموضوعية.

٢ ـ الروح الصليبية التي كانت تلقي بثقلها على أبحاث المستشرقين لتجعلها تقف موقف التحزب ضد الإسلام واتهامه، وكانت تُشيع في أبحاثهم الكراهية والحقد والبغضاء.

٣ ـ التأثّر بالأفكار الحضارية المادّية التي شاعت في الحياة الأُوربية إبّان عصر النهضة الصناعية، والخروج على سلطة الكنيسة الروحية، وبالتالي على كلّ ما يمتّ إلى الدين بصلة. وما زالت المجتمعات الغربية تعيش تحت سيطرة ونفوذ هذه الأفكار، الأمر الذي كان له تأثير في محاولة عزل الإسلام عن الحياة الاجتماعية.

٤ ـ النظرة إلى الإسلام والقرآن على أنّهما من صنع محمّد، الذي تأثر بالديانة اليهودية والمسيحية، وبالعوامل البشرية والشخصية.

٥ ـ دراسة الإسلام وشريعته ـ بالإضافة إلى القرآن والسنة النبوية ـ من خلال

المجتمع الإسلامي، والمدارس الفقهية والعقيدية والفلسفية والاجتماعية التي عاشت وتكاثرت بين المسلمين. بالإضافة إلى اعتبار مجموعة الأحاديث والروايات عن النبي ﷺ والصحابة بمستوى واحد في القيمة والأهمية دون الاقتصار على خصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة للتعرُّف على نظام الإسلام وحقيقته.

٦ ـ عدم فهم بعض النصوص الإسلامية وتجريدها عن ظروفها وقرائنها الحالية.

ج ـ نتائج أخطاء المستشرقين

وكان لأعمال المستشرقين وبحوثهم نتائج بعيدة المدى في المجتمع الإسلامي، سواء فيما يتعلق بالجانب الفكري والثقافي أو فيما يتعلق بالجانب السياسي والاجتماعي:

١ ـ أمّا فيما يتعلّق بالجانب الفكري والثقافي

فقد أدّت هذه الأعمال والبحوث إلى تشويه المفاهيم والثقافة الإسلامية لدى جمهرة المسلمين، الأمر الذي أدّى إلى ظهور اتجاهات وتيارات فكرية وثقافية مختلفة في المجتمع الإسلامي، يتنافى بعضها مع مبادئ المنطق ومبادئ الإسلام القويمة. وقد تمركزت هذه الاتجاهات في اتجاهين فكريين ثقافيين رئيسيين في العالم الإسلامي:

أحدهما: الاتجاه الذي يعمل على تحريف الإسلام وتشويه معالمه باسم التجديد وتحويره إلى الشكل الذي لا يتنافى مع تقرير سلطة المستعمر، وتثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الإسلامية، أو على الأقل أن لا يكون الإسلام

عامل تحدٍّ أو معارضة للحكم الاستعماري أو الأنظمة الحديثة الكافرة التي يريد أن يفرضها على المسلمين.

ثانيهما: الاتجاه المضاد الذي سار عليه جماعة من كبار علماء الإسلام في محاولة لصياغة المفاهيم الإسلامية صياغة حديثة، تتضح فيها معالم قدرة الإسلام على معالجة مشاكل الحياة الحديثة، وإمكاناته في الحكم والتطبيق في العصر الحاضر، مع تجريده من العادات والتقاليد التي أصبحت في نظر بعض المسلمين ـ نتيجة تقادم الزمان عليها ـ وكأنها جزء من الشريعة الإسلامية.

ونتيجة لتنامي قوة الاستعمار وسيطرته العسكرية والسياسية والفكرية على العالم الإسلامي، حدثت مضاعفات وتطويرات للاتجاه الأول، انتهت إلى نشوء تيارات فكرية إلحادية وكافرة في العالم الإسلامي، تبناها عدد من أبناء المسلمين أنفسهم. وقد كان لكل واحدٍ من هذين الاتجاهين الرئيسين وما تفرع عنهما من تيارات أنصاره ومؤيدوه.

٢ ـ وأمّا فيما يتعلق بالجانب الاجتماعي والسياسي:

فقد أدى انتشار الأفكار الغربية المسيحية والسيطرة الاستعمارية العسكرية والسياسية إلى حدوث تغييرات كبيرة في العالم الإسلامي سياسية واجتماعية.

فظهرت الاتجاهات **القومية والعنصرية**، كما شاع تطبيق **القوانين الكافرة والأنظمة الغربية** تحت شعارات وأسماء مختلفة من(الحرية) و(التجديد) و(الإصلاح) وغير ذلك.

كما انخفضت الروح الدينية بين المسلمين، واعتادوا الحكم الكافر وأنظمته، وأنقسم العالم الإسلامي إلى دول وبلاد مختلفة ومتنازعة فيما بينها في كثير من

الأحيان. وفي كل هذه الأوضاع تلاحظ لأعمال المستشرقين وبحوثهم مساهمة كبيرة وآثاراً ونتائج؛ لأنّها كانت تمثل بالنسبة لهم الأساس الفكري والسياسي.

والى جانب ذلك نجد لأبحاث المستشرقين تأثيراً آخر في المجتمع الغربي نفسه، حيث أخذ الفرد الغربي ينظر إلى الإسلام نظرة سيئة حاقدة.

وقد صوّر لنا المستشرق النمساوي المسلم «محمّد أسد»هذه النظرة بقوله: «إلاّ أنّ الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكنه كان قبل كل شيء وفي مقدمة كل شيء شراً ثقافياً؛ لقد نشأ تسميم العقل الأُوربي عما شوهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة في الغرب. في ذلك الحين استقرَّت تلك الفكرة المضحكة في عقول الأُوربيين من أنّ الإسلام دين شهوانية وعنف حيواني، وأنه تمسك بفروق شكلية، وليس تزكية للقلوب وتطهيراً لها. ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت»[1].

وعلى هذا الأساس يمكن أن نلخّص المجالات التي ساهمت في تكوينها أخطاء المستشرقين في بحوثهم وأعمالهم كالتالي:

١ ـ تشويه الثقافة الإسلامية بجوانبها المتعددة في العالم الإسلامي وفي المجتمع الغربي.

٢ ـ إضعاف الروح الدينية والعقيدية عند المسلمين.

٣ ـ قيام الأوضاع الاجتماعية والسياسية الكافرة في العالم الإسلامي.

٤ ـ روح التجديد في الإسلام أو في المفاهيم الإسلامية على اختلاف اتجاهاته ودوافعه.

---

١ ـ الإسلام على مفترق الطرق: ٥٨.

تحامل المستشرقين على القرآن والسنة خاصة

لقد خصَّ المستشرقون القرآن الكريم والسنة النبوية بقسط وافرٍ من أبحاثهم وأعمالهم، وتعرضا نتيجة لذلك إلى كثير من الهجمات العنيفة.

ومن الواضح أنَّ السبب في ذلك هو ما يتمتع به القرآن الكريم والسنة النبوية من مركز دينيّ وثقافيّ في الإسلام. فهما يعتبران الأساس الذي تقوم عليه العقيدة والثقافة الإسلامية، كما أنّهما المصدران الأساسيان للنظام الإسلامي والشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى نظرة التقديس التي ينظر بها الفرد المسلم إليهما.

ولاشك أن القرآن الكريم والسنة النبوية يعتبران من أقوى الأدلّة على صدق نبوّة محمّد ﷺ على أساس ما فيهما من مفاهيم وأفكار وتشريعات وأخبار لا يمكن أن تكون وليدة عصر البعثة، ولا من صنع شخص الرسول ﷺ، الأمر الذي أدركه المستشرقون بشكل واضح، ودعاهم إلى مهاجمة القرآن والسنّة النبويّة في محاولة للتشكيك في صدورهما بذلك العصر، أو إبراز الاختلافات والتناقضات فيهما، أو غير ذلك من الجوانب التي تسقط هذه الميزة لهما.

وفي بحثنا هذا سوف نتناول بعض الشبهات المهمّة التي أوردها المستشرقون حول القرآن الكريم؛ وذلك نظراً لما تفرضه أهمّية القرآن على الخصوص من ناحية، وطبيعة البحث القرآني من ناحية أُخرى. لقد أثار أعداء الإسلام ـ من جاهلين قدامى ومستشرقين جدد ـ الشبهات الكثيرة حول الوحي القرآني.

وكانت تستهدف هذه الشبهات في الغالب التأكيد على أنّ الوحي القرآني ليس مرتبطاً بالسماء وإنّما هو نابع من ذات محمّد ﷺ.

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض هذه الشبهات في مواضع مختلفة[1]، وردّد بعض

١ ـ منها: الأنبياء: ٣١، الدخان: ١٤، الفرقان: ٥ النمل: ١٠٣ وغيرها.

المستشرقين هذه الشبهات وغيرها وحاول إضفاء طابع البحث والدراسة وسمات الموضوعية عليها، كما هي الطريقة المتّبعة لديهم في مثل هذه الحالات.

ويحسن بنا أن نكوّن فكرة واضحة عن الوحي الذي نحن بصدد بحث الشبهة حوله ومناقشتها؛ تمهيداً للدخول في صلب الموضوع.

شبهات المستشرقين حول الوحي والقرآن

ما هو الوحي[١]

الوحي لغة هو الإعلام في خفاء[٢]. ولكن ما هو الوحي الإلهي الذي اختصّ به الله سبحانه النبيين من عباده، وتجلّى بشكل واضح في القرآن الكريم؟

وبصدد الإجابة عن هذا السؤال يمكن أن نقول: إنّ كلّ فكرة يدركها الإنسان فهي ترتبط في وجودها ـ بسبب أو بآخر ـ بالله سبحانه وتعالى خالق الإنسان ومدبّر أُموره. ولكنّ شعور الإنسان تجاه مصدر هذه الفكرة ـ بالرغم من إدراكه العقلي لهذه الحقيقة ـ قد يكون مختلفاً. ونذكر أنحاء ثلاثة لهذا الشعور:

أ) أن يشعر بأنّ الفكرة نابعة من ذاته، ووليدة جهده الخاص وإدراكه الشخصي، وهذا الشعور هو ما نحسّه في حالات الإدراك الاعتيادية تجاه أفكارنا العادية، فإنّنا مع اعتقادنا بأنّ أفكارنا منسوبة إلى الله تعالى ـ على أساس أنّه الخالق المدبّر لعالم الوجود بجميع مقوّماته، ومنه قدرتنا على التفكر ـ نشعر وكأنّ هذه الفكرة وليدة هذا المزيج المركّب في ذات أنفسنا، وناتجة عن مجموعة المواهب والقدرات الشخصيّة لنا.

---

١ ـ نقل هذا البحث من علوم القرآن (الحكيم): ١٤٨ فما بعدها.

٢ ـ لسان العرب ١٥: ٣٨١، مادة (وحي).

ب) أن يشعر الإنسان بأنّ الفكرة قد أُلقيت إليه من طرف علوي، وجاءته من خارج ذاته. وشعوره هذا بدرجة من الوضوح بحيث يحسّ بهذا الإلقاء والانفصالية بين الذات الملقية والذات المتلقية، ولكنه مع ذلك كلّه لا يكاد يحس بالأُسلوب والطريقة التي تمّت فيها عملية إلقاء الفكرة.

وهذا النحو من الشعور تجاه الفكرة هو ما يحصل في حالات(الإلهام) الإلهي[1].

ج) أن يصاحب الشعور الحسي الذي شرحناه في فقرة (ب) شعور حسي آخر بالطريقة والأسلوب الذي تتمّ به عملية الإلقاء والاتصال، وهذا الحس والشعور ـ سواء أحسَّ بأنَّ الفكرة جاءت من أعلى أو أحسَّ بأنّ مجيئها كان بالأُسلوب الخاص ـ لابدّ فيه أن يكون واضحاً وجلياً كوضوح إدراكنا للأشياء بحواسنا العادية. وهذا ما يحدث في حالات الوحي إلى الأنبياء ، أو على الأقل ما حدث في وحي القرآن الكريم إلى نبينا محمّد صلى الله عليه وآله.

إذن هناك فرق بين الإدراك العادي الذي يكون نتيجة الموهبة، وبين الإلهام والوحي؛ لأنّ إدراك الموهبة في الحقيقة، يعبر عن فكرة يدركها الإنسان، مع شعوره بأنّها نتيجة للجهد الشخصي، وإن كان يدرك بشكل عقليّ ومنطقي أنّها مرتبطة بسبب أو بآخر بالله سبحانه.

والإلهام عبارة عن فكرة يدركها الإنسان ـ مصحوبة بالشعور الواضح ـ بأنّها ملقاة من الطرف الأعلى المنفصل عن الذات الإنسانية، وإن كان لا يدرك الإنسان شكل الطريقة التي تمَّ فيها هذا الإلقاء.

والوحي عبارة عن فكرة يدركها الإنسان ـ مصحوبة بالشعور الواضح ـ بأنّها

١ ـ قارن بهذا ما ذكره الدكتور صبحي الصالح في كتابه(مباحث في علوم القرآن): ٢٢ ـ ٢٧.

ملقاة من الطرف الأعلى المنفصل عن الذات الإنسانية، وشعور آخر واضح بالطريقة التي تم فيها الإلقاء.

الشبهة حول الوحي

هناك ارتباط وثيق بين هذا الموضوع وبحث إعجاز القرآن؛ لأنّنا نتعرف من خلال ذلك البحث على أنّ القرآن ليس ظاهرة بشرية، وبالتالي ليس من صنع محمّد ﷺ، وإنّما يكشف ـ بجوانب التحدّي فيه ـ عن ارتباطه بعالم الغيب وما وراء الطبيعة.

وعلى هذا الأساس، نجد أنّ مناقشة الشبهات ـ التي تثار حول الوحي القرآنيّ ـ لابدّ وأن تعتمد بصورة رئيسية على نتائج بحث إعجاز القرآن. ولذا فنحن حين نذكر هنا بعض ما يثار حول الوحي، نقصد بذلك أن نعالج بعض التفاصيل ذات العلاقة بهذه الإثارة دون الجانب الأساسيّ للمسألة.

ولعلّ من أخبث الأساليب في إثارة الشبهة حول الوحي، هو الاسلوب الذي يحاول أن يُضفي على النبي محمّد ﷺ صفات الصدق والأمانة والإخلاص والذكاء، الأمر الذي أدّى به أنّ يتخيّل نفسه أنّه ممّن يوحى إليه، وهو ما يسمّى بالوحي النفسي... فإنّ هذا الأُسلوب يحاول أن يستر دوافعه المغرضة بمظاهر الإنصاف والمحبّة والإعجاب.

القرآن وحي نفسيّ لمحمّد ﷺ

وخلاصة ما قيل في صياغة هذه الشبهة: أنّ محمّداً ﷺ قد أدرك بقوّة عقله الذاتية ـ وبما يتمتع به من نقاءٍ وصفاءٍ روحي ونفسي ـ بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، كما أدرك ذلك أيضاً أفراد آخرون من قومه، وأنّ فطرته الزكية ـ بالإضافة إلى بعض الظروف الموضوعية كالفقر ـ حالت دون أنّ يمارس

أساليب الظلم الاجتماعي من الاضطهاد، وأكل المال بالباطل، أو الانغماس في الشهوات، وارتكاب الفواحش كالاستمتاع بالسكر والتسرّي وعزف القيان وغير ذلك من القبائح.

وأنّه طال تفكيره من أجل إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح، وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات، وقد استفاد من النصارى الذين لقيهم في أسفاره أو في مكة نفسها كثيراً من المعلومات عن الأنبياء والمرسلين ممّن بعثهم الله في بني إسرائيل وغيرهم، فأخرجوهم من الظلمات إلى النور. كما أنه لم يقبل جميع المعلومات التي وصلت إليه من هؤلاء النصارى، لما عرض للنصرانية من الأفكار الوثنية والانحرافات، كأُلوهية المسيح وأُمّه، وغير ذلك من البدع.

وأنه كان قد سمع أنّ الله سيبعث نبيّاً مثل أولئك الأنبياء من عرب الحجاز بشر به عيسى المسيح وغيره من الأنبياء، وتولّد في نفسه أمل ورجاء في أن يكون ذلك النبيّ الذي آن أوانه، وأخذ يتوسل إلى تحقيق هذا الأمل بالانقطاع إلى عبادة الله تعالى في خلوته بغار حراء.

وهنالك قوي إيمانه وسما وجدانه، فاتسع محيط تفكيره وتضاعف نور بصيرته، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات والدلائل البيّنة في السماء والأرض، على وحدانيّة الله سبحانه خالق الكون ومدبّر أموره. وبذلك أصبح أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ثم ما زال يفكّر ويتأمّل وينقلب بين الآلام والآمال، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر، الذي يبعثه الله لهداية البشرية، وتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المناميّة، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقّنه الوحي في اليقظة.

وأما المعلومات التي جاءته من هذا الوحي، فهي مستمدّة في الأصل من تلك

المعلومات، التي حصل عليها من اليهود والنصارى، وممّا هداه إليه عقله وتفكيره، في التمييز بين ما يصحّ منها وما لا يصحّ، ولكنها كانت تتجلّى وكأنّها وحي السماء، وخطاب الخالق عزّ وجلّ، يأتيه بها الناموس الأكبر، الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم، وغيرهما من النبيين.

مناقشة الشبهة

وإذا أردنا أن ندرس هذه النظرية (نظرية الوحي النفسي)، لا نجدها تصمد أمام النقد والمناقشة العلمية؛ إذ يمكن أن يلاحظ عليها من خلال جوانب ثلاثة:

الأول: أنّ الدلائل التاريخية، وطبيعة الظروف التي مرّ بها النبي ﷺ تأبى التصديق بهذه النظرية وقبولها.

الثاني: أنّ المحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية، بما يضمّ من تشريع وأخلاق وعقائد وتاريخ، لا يتّفق مع هذه النظرية في تفسير الوحي القرآني.

الثالث: أنّ موقف النبي محمّد ﷺ من الظاهرة القرآنية، يشهد بوضوح على رفض تفسير الظاهرة القرآنية بنظرية الوحي النفسي.

١) الدلائل التاريخية تناقض نظريّة الوحي النفسي

لقد ذكر السيد رشيد رضا[1] ـ بصدد مناقشته للمقدّمات التاريخية وغيرها التي رتّبها (درمنغام) لعرض نظرية الوحي النفسي ـ عشر ملاحظات وسوف نقتصر على تلخيص بعضها.

الأولى: أنّ أكثر المقدّمات ـ التي بنى عليها أصحاب النظرية بنيانهم ونظريتهم ـ لا تقوم على أساس تاريخي صحيح، وإنّما تنطلق من نقطة مفروضة

١ ـ تفسير المنار ١١: ١٤٧ ـ ١٩٤.

على البحث بشكل مسبق، وهي أنّ الوحي القرآني ليس وحياً منفصلاً عن الذّات المحمّدية، الأمر الذي كان يدعو أصحاب النظرية إلى اختلاق الحوادث والأخبار، أو تخيلها من أجل إكمال الصورة ووصل بعض الحلقات ببعضها الآخر.

ومن الأمثلة على ذلك، ما يذكرونه من تفاصيل في مسألة لقاء الراهب بحيرا مع محمّد صلى الله عليه وآله وهو بصحبة عمّه أبي طالب، الأمر الذي يدعوهم إلى الاستنتاج وافتراض محادثات دينية وفلسفية معقدة.

وما يذكرونه أيضاً بصدد تعليل إطلاعه على أخبار عاد وثمود، من أنه كان نتيجة مروره بأرض الأحقاف، بالرغم من أنّ هذه الأرض لا تقع على الطريق الاعتيادي لمرور القوافل التجارية، كما أنّ التاريخ لم يذكر لنا مرور النبيّ بها، إلى غير ذلك من الأحداث والقضايا.

الثانية: أنّ افتراض تعلّم النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله من نصارى الشام وغيرهم لا يتّفق مع واقع الحيرة والتردّد في موقف المشركين من رسول الله؛ لأنّ مثل هذه العلاقة لا يمكن التستّر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامّة بما فيها من سفرات ورحلات، وبالرغم من أنّ هؤلاء لم يمسكوا عن إطلاق شتّى التهم والأراجيف، وافترضوا في الوحي الفروض المتعددة، ومنها فرض التعليم والتلقّي من أشخاص معيّنين، كالرومي في مكة[1].

١ ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة النحل: ١٠٣). اختلَف فيَ اسم وَشخصيةَ هذا الَذي ادعي أنّه كان يعلّم الرسولَ، وأكثر الروايات كانت تعرّفه روميا يتكلم الرومية، لكن بعضها أوردت أن المراد منه سلمان الفارسي. انظر التفاسير الواردة ذيل هذه الآية.

ولكن مع ذلك كلّه لم يكونوا ليفرضوا أن يكون قد تعلّم من نصارى الشام أو غيرهم.

الثالثة: إنّه لم يعرف عن الرسول محمّدﷺ، أنّه كان ينتظر أنّ يفاجأ بالوحي، أو يأمل أن يكون هو الرسول المنتظر، لينمو ويتطوّر هذا الأمل في نفسه، فيصبح واقعاً نفسيّاً، بالرغم من تدوين كتب السيرة النبويّة لأدقّ الأحداث والتفصيلات عن حياة الرسول الشخصية.

ولعلّ من القرائن التاريخية التي تشهد بكذب هذا الافتراض هو ما ذكرته كتب السيرة من اضطراب النبيّ وخوفه، حين فاجأه الوحي في غار حراء، «وهذا الاضطراب أمر مشكوك فيه تماماً».

الرابعة: أنّ هذه النظرة تفرض أن يكون إعلان النبوّة نتيجة مرحلة معينة من التكامل العقلي والنفسي، ونتيجة مراحل طويلة من المعاناة والتفكير والتأمّل والحساب... وهذا يستلزم بطبيعة الحال أن ينطلق الرسول في اللحظة الأُولى من دعوته إلى طرح مفاهيمه وأفكاره ومناهجه عن الكون والحياة والمجتمع بجوانبه المتعددة؛ لأنّ المفروض أنّ الصورة كانت متكاملة عنده نتيجة التفكير الطويل... مع أنّ التاريخ يؤكّد أنّ أُسلوب الدعوة وطريقتها كان يختلف عن ذلك تماماً، وأنّ الانطلاق إلى المجالات الأُخرى بشكل تدريجي، مع ما كان يتخلّل ذلك من ركود وانقطاع في الوحي.

٢) المحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية يناقض نظرية الوحي النفسي

إنّ لسعة النظرية القرآنية وآفاقها المتعددة ومجالاتها المتشبعة، أهمّية كبرى في رفض نظرية الوحي النفسي؛ إذ أنّ هذا الاتّساع والشمول لا يتّفق مع طبيعة المصادر التي تفرضها النظرية. ويتضح ذلك عندما نلاحظ الأُمور التالية:

الأول: أنّ الموقف العام للقرآن الكريم تجاه الديانتين اليهودية والمسيحية، هو موقف المصدّق لهما والمهيمن عليهما. فقد صدّق القرآن الكريم الأصل الإلهي لهاتين الديانتين وارتباطهما بالمبدأ الأعلى، كما جاء مهيمناً ورقيباً وحاكماً على ما فيهما من ضلالات. وجاءت هذه الرقابة دقيقة شاملة، فلم تترك مفهوماً أو حكماً أو حادثة إلاّ ووضعت المقياس الصحيح فيه. ولا يمكن أن تتصور محمّداً ﷺ ـ وهو يأخذ عن أهل الكتاب ـ يتمكن من أن يصفهم بالجهل والتحريف والتبديل بمثل هذا اليقين والثبات، ويوضح الموقف الصحيح في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها أو خالفوا الواقع الصحيح للديانة، ثم تأتي نظريته بعد ذلك كلمة شاملة ودقيقة ليس فيها تناقض ولا اختلاف. ولكنّ محمّداً لم يكن قد أخذ منهم شيئاً، وإنّما تلقى كلّ ذلك عن الوحي الإلهي الذي جاء مصدّقاً لما سبقه من الوحي ومهيمناً على الانحراف والتحريف معاً.

الثاني: ونجد القرآن أيضاً يخالف التوراة والإنجيل في بعض الأحداث التاريخية، فيذكرها بدقّة متناهية ويتمسّك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أنّ يتجاهل على الأقل، تفادياً للاصطدام بالتوراة والإنجيل.

ففي قصّة موسى يشير القرآن إلى أنّ التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أنّ سفر الخروج يؤكّد أنها كانت ابنته. كما أنّ القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق لا يتجاهل، حتى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه ﴿**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**﴾[1].

في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم. ويتكرّر نفس

١ ـ سورة يونس: ٩٢.

الموقف في قضية العجل، حيث تذكر التوراة أنّ الذي صنعه هو هارون، ويتكرّر أيضاً في قصّة ولادة مريم للمسيح عليه السلام وغيرهما من القضايا...

ولا يصحّ لمحمّد صلى الله عليه وآله وهو الإنسان الصادق الأمين الذكي أن يذكر هذه التفاصيل، فيصطدم بالتوراة والإنجيل دون سبب معقول، لولا أن يكون قد تلقّى ذلك عن طريق الوحي الإلهي الذي لا يستطيع مخالفته.

الثالث: أنّ سعة التشريع الإسلامي وعمقه وشموله للمجالات المختلفة من الحياة، مع دقّة التفاصيل التي تناولها، والانسجام الكبير بين هذه التفصيلات، برهان واضح على تلقّيه ذلك عن طريق الوحي، إذ لم يكن لمحمّد صلى الله عليه وآله ـ وهو الإنسان الأُمّي، الذي كان يعيش في ذلك العصر المظلم، كما أنّه قضى أكثر حياة دعوته في خضمّ الصراع الاجتماعي... ـ ليتمكّن كإنسان أن يفعل ذلك، لولا أن يكون قد تلقّى ذلك عن طريق الوحي والسماء.

٣) موقف النبي من الظاهرة القرآنية شاهد على رفض نظرية الوحي النفسي[١]

لقد كان النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله يدرك بشكل واضح، الانفصال التام بين ذاته المتلقّية والذات الإلهية الملقية من أعلى، وهذا الادراك هو حقيقة الوحي الذي أشرنا إليه سابقاً. وقد صوّر الرسول صلى الله عليه وآله هذا الوعي والادراك في مناسبات متعددة، وأوضحه للمسلمين فيما رُوي عنه حيث قال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليّ فيفصم عنّي وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثّل لي الملك رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول»[٢].

---

١ ـ لخصنا هذا الموضوع عن الدكتور صبحي الصالح في كتابه (مباحث علوم القرآن): ٢٨ ـ ٣٨ وهو بدوره أخذه كما يظهر من الدكتور محمّد عبدالله دراز في كتابه «النبأ العظيم» ومالك بن نبي في كتابه «الظاهرة القرآنية».

٢ ـ صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي الحديث رقم٢.

أشكال الشعور الواعي

وقد انعكس هذا الشعور الواعي بالانفصال في الوحي ـ بين الذات الآمرة المعطية والذات المخاطبة المتلقّية ـ على الظاهرة القرآنية.

وكان له مظاهر عديدة نذكر منها الأشكال الثلاثة التالية:

الشكل الأول: الصورة التي يبدو فيها النبيّ صلى الله عليه وآله من خلال الظاهرة القرآنية عبداً ضعيفاً لله سبحانه، يقف بين يدي مولاه يستمدّ منه العون، ويطلب منه المغفرة ويمتثل أوامره ونواهيه، ويتلقّى منه العقاب بمختلف مراتبه واشكاله. والأمثلة القرآنية على ذلك كثيرة. فالقرآن يصوّر محمّداً صلى الله عليه وآله في صورة الإنسان المطيع الذي لا يملك لنفسه شيئاً، ويخاف ربَّه إن عصاه، فيلتزم الحدود التي وضعها له ويرجو رحمته، وليس من شيء يأتيه إلاّ من قبل ربّه، فهو يعترف بالعجز المطلق تجاه إرادة الله أو تبديل حرف من القرآن.

﴿وإذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآن غَيْرِ هَذَا أو بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ من تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[1].

﴿قُلْ إِنّما أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنّما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[2].

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ...﴾[3].

---

١ ـ سورة يونس: ١٥ ـ ١٦.

٢ ـ سورة الكهف: ١١٠.

٣ ـ سورة الاعراف: ١٨٨.

﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عندي خزَآئنُ اللّه ولَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ولَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ...﴾[١].

ومن يقرأ هذه الآيات القرآنية ونظائرها ويترك لوجدانه الحكم، لا يسعه إلاّ أن يقتنع من أعماق قلبه ونفسه بالفرق بين الذات الإلهية الآمرة الملقية والذات المحمّدية المطيعة المتلقّية.

ثم يزداد هذا الفرق وضوحاً بين ذات الله المتكلّم منزل الوحي وصفاته، وبين ذات رسوله المخاطب متلقّي الوحي وصفاته، في الآيات التي يعتب الله على نبيّه عتاباً خفيفاً أو شديداً، أو يعلمه فيها بعفوه عنه وغفرانه ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر.

فمن العتاب الخفيف المقترن بالعفو خطابه لرسوله في شأن من أذن لهم بالقعود عن القتال في غزوة تبوك: ﴿عَفَا اللّهُ عنكَ لمَ أَذنتَ لَهُمْ حتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذينَ صَدَقُواْ وتَعْلَمَ الْكَاذبينَ﴾[٢]، ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنبكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[٣].

وأشدّ من هذا ما يوجّهه إلى الرسول ﷺ من الإنذار والتهديد في مثل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزلَ إِلَيْكَ من رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رسَالَتَهُ واللّهُ يَعْصمُكَ منَ النَّاسِ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتنُونَكَ عَنِ الَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَليلاً ۞ ولَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَليلاً ۞ إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضعْفَ الْحَيَاة وضعْفَ الْممَات ثُمَّ لاَ تَجدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصيراً﴾[٥].

---

١ ـ سورة الأنعام: ٥٠.

٢ ـ سورة التوبة: ٤٣.

٣ ـ سورة الفتح: ٢.

٤ ـ سورة المائدة: ٦٧.

٥ ـ سورة الاسراء: ٧٣ ـ ٧٥.

وهذا الإنذار يبلغ القمة، فيستصغر بعده كلّ تهديد وكلّ وعيد حين يقول الله: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ۞ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**﴾[١].

ومن خلال هذه الآيات المتوعدة المنذرة، وتلك العاتبة المؤدبة، يبدو لنا رسول الله ﷺ مخلوقاً ضعيفاً بين يدي ربه ذي القدرة الظاهرة.

ويبدو لنا أيضاً كامل الوعي، للفرق بين ذاته المأمورة وذات الله الآمرة، وبوعيه الكامل هذا كان يفرّق بوضوح بين الوحي الذي ينزل عليه وبين أحاديثه الخاصّة التي كان يعبّر عنها بإلهام من الله، لذلك نهى أول العهد لنزول الوحي عن تدوين شيء منه سوى القرآن؛ لكي يحفظ للقرآن صفته الربّانية، ويحول دون اختلاطه بشيء ليست له هذه الصفة القدسية، بينما كان عند نزول الوحي ـ ولو آية أو بعض آية ـ يدعو أحد الكتبة فوراً ليدوّن ما نزل من القرآن.

الشكل الثاني: يبدو النبيّ في القرآن الكريم بمظهر الخائف من ضياع بعض الآيات القرآنية ونسيانها، الأمر الذي كان يدعوه إلى أن يعجل بقراءة القرآن، قبل أنّ يقضى إليه وحيه، ويأخذ بترديده، ويجهد نفسه وفكره من أجل أن لا يفوته شيء من ذلك[٢]، ويتّضح هذا في قوله تعالى: ﴿**... وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[٣].

---

١ ـ سورة الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.

٢ ـ انظر: التبيان (الطوسي) ٧: ٢١٢ ـ ٢١٣.

٣ ـ سورة طه: ١١٤.

﴿لا تُحرِّكْ به لسَانَكَ لتَعْجَلَ به ۞ إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ ۞ فَإذَا قَرأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[1].

ولا يسعنا إزاء هذه الحقيقة إلاّ أن نعترف باستقلال ظاهرة الوحي عن ذات النبي ﷺ استقلالاً مطلقاً، وتفرّدها عن العوامل النفسيّة تفرّداً كاملاً، فالنّبي لا يملك حتى حقّ استخدام ذاكرته في حفظ القرآن، بل الله يتكفّل بتحفيظه إيّاه. وقانون التذكر نفسه بطل الآن سحره وعفا أثره تجاه إرادة الله، فكيف لا يعي النبيّ ـ بعد هذا كله ـ الفرق العظيم بين ذاته المأمورة وذات الله الآمرة، وهو يرى بنفسه أنّه لا يملك من أمر نفسه شيئاً؟!

الشكل الثالث: يبدو النبيّ من خلال تاريخ نزول القرآن أنّه كان مقتنعاً بأنّ التنزيل القرآني مصحوب بانمحاء إرادته الشخصيّة، وأنّه منسلخ عن الطبيعة البشرية، حتى ما بقي له ـ عليه الصلاة والسلام ـ اختيار فيما ينزل إليه أو ينقطع عنه. فقد يتتابع الوحي ويحمى حتى يشعر أنّه يكثر عليه، وقد يفتر عنه ويشعر أنّه أحوج ما يكون إليه. فقد كان الوحي ينزل على قلبه ـ صلوات الله عليه ـ في أحوال مختلفة، فإنّه ليأوي إلى فراشه فما يكاد يغفو إغفاءة حتى ينهض ويرفع رأسه مبتسماً، فقد أوحيت إليه سورة الكوثر (الخير الكثير).

وإنّه ليكون وادعاً في بيته وقد بقي من الليل ثلثه، فتنزل عليه آية التوبة في الثلاثة الذين خُلّفوا: ﴿حَتَّى إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إليه ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2]. إنّ الوحي لينزل على قلب النبيّ في الليل الدامس

١ ـ سورة القيامة: ١٦ ـ ١٩.

٢ ـ سورة التوبة: ١١٨.

والنهار الاضحيان، وفي البرد القارس أو لظى الهجير، وفي استجمام الحضر أو أثناء السفر، وفي هدأة السوق أو وطيس الحرب.

ثم ها هو ذا الوحي ينقطع عن النبيّ، وهو أشدّ ما يكون إليه شوقاً وله طلباً، فبعد أن نزل عليه جبريل بأوائل سورة العلق: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾، فتر الوحي ثلاث سنوات فحزن النبيّ، ثم الوحي تتابع فاستبشر النبيّ وتبدّل انتظاره الحزين فرحة غامرة، وأيقن أنّ هذا الوحي الذي استعصى عليه ولم يوافه طوع إرادته مستقل عن ذاته خارج عن فكره، فاستقرَّ في ضميره الواعي أنّ مصدر هذا الوحي هو الله علاّم الغيوب.

ومن ذا الذي ينسى كيف أبطأ الوحي بعد (حديث الافك) الذي رمى به المنافقون زوج النبيّ صلى الله عليه وآله، وأثاروا به حولها الفضيحة حتى عصفت بقلب الرسول الريبة.

من ذا الذي لا يدرك أنّ هذه المدّة التي تصرّمت على الحادثة من غير أن يتلقَّى النبيّ خلالها وحياً، كانت أثقل عليه من سنين طويلة، بعد أنّ خاض المنافقون في زوجه خوضاً باطلاً ؟

فما بال النبيّ الذي كان فريسة للشك والقلق يظلّ صامتاً ينتظر واجماً يتربّص، حتى نزلت آيات النور تبرّىء أُم المؤمنين؟

وما له لا يسرع إلى التدخل في أمر السماء، فيرتدي مسوح الرهبان، ويهيء الأسجاع ويطلق البخور ويبرّئ زوجه من قذف القاذفين؟

ولقد كان النبيّ يتحرى شوقاً إلى تحويل القبلة إلى الكعبة[1]، وظلّ يقلّب وجهه في السماء ستّة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، لعلّ الوحي ينزل عليه

١ ـ انظر: من لا يحضره الفقيه ١: ٢٧٤ ـ ٢٧٦ ح٨٤٥

بتحويل القبلة إلى البيت الحرام، ولكن ربّ القرآن لم ينزل في هذا التحويل قرآناً، رغم تلهّف رسوله الكريم إليه، إلاّ بعد قرابة عام ونصف العام، ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾[1].

فلماذا لم يُسعف النبيّ نفسه بوحي عاجل يحقّق ما يصبو إليه ويتمنّاه؟!

إنّ الوحي ينزل ويكثر على محمّد ﷺ حين يشاء ربّ محمّد ﷺ، ويفتر إذا شاء له ربّ محمّد ﷺ الانقطاع، فما تنفع التعاويذ والأسجاع، لا تقدّم عواطف محمّد ﷺ ولا تؤخر في أمر السماء.

وحين نلتفت إلى هذه الأشكال الثلاثة بصورها المختلفة، ونضيف إليها الجانبين الآخرين، لا يبقى لدينا مجال لأيّ تردّد في شأن حقيقة الظاهرة القرآنية، وانفصالها عن الذات المحمّدية، وبطلان الوحي النفسي وما إليه من شبهات قد تثار.

١ ـ سورة البقرة: ١٤٤.

القسم الثالث:
حول التفسير والمفسرين

الفصل الأول: التفسير واهتمام المسلمين به

الفصل الثاني: نحو تفسير علمي للقرآن

الفصل الأول:
التفسير واهتمام المسلمين به

اهتمام المسلمين

وقد اهتم المسلمون منذ صدر الإسلام بهذا الأمر أكثر من أي موضوع آخر ليرسم القرآن الكريم مسيرتهم العقلية والفكرية ويوضح لهم معالم مسيرتهم الحضارية إلى الأبد.

فهرس أهم التفاسير (حسب تواريخ وفيات أصحابها مع ذكر مذاهبهم ومناهجهم).

التسلل	اسم التفسير	اسم المفسر	سنة الوفاة	المذهب	المنهج
١	عبدالرزاق	عبدالرزاق	القرن الثاني	سني	روائي
٢	الشافعي	الشافعي	٢٠٤	سني	روائي
٣	ابن أبي حاتم	ابن أبي حاتم	الولادة٢٤٠	سني	روائي
٤	التفسير المعروف بتفسير القمي	علي بن إبراهيم القمي	٣٠٧	شيعي	روائي
٥	الطبري	محمد بن جرير بن يزيد الطبري	٣١٠	سني	روائي
٦	العياشي	محمد بن مسعود	٣٢٠	شيعي	روائي؛ سورةالحمد إلى آخر سورة الكهف
٧	الجصاص	أبو بكر أحمد بن علي الرازي	٣٧٠	سني حنفي	روائي
٨	الكشف والبيان	أبو إسحاق الثعلبي	٤٢٧	سني	فيه نقل الاسرائيليات
٩	التبيان في تفسير القرآن	الطوسي	٤٦٠	شيعي	روائي
١٠	الكياهراسي	علي بن محمد الطبري	٥٠٤	سني	
١١	المحرر الوجيز	البغوي	٥١٠	سني	
١٢	الكشاف	الزمخشري	٥٢٨	سني	عقلي

التسلل	اسم التفسير	اسم المفسر	سنة الوفاة	المذهب	المنهج
١٣	ابن العربي	كمال الدين عبدالرزاق الكاشاني	٥٤٣	سني	عرفاني
١٤	المحررالوجيز لابن عطية	ابن عطية	٥٤٨	سني	
١٥	مجمع البيان في تفسير القرآن	الطبرسي	٥٤٨	شيعي	نظرة تقريبية
١٦	الراوندي	قطب الدين سعيد الراوندي	٥٧٣	شيعي	متأثر بالتبيان
١٧	تفسيرالكبير ـ مفاتيح الغيب	فخر الدين الرازي	٦٠٦	سني	الاشكال على الفلاسفة نقل أقوال تناسب السور
١٨	القرطبي	محمد بن أحمد الأنصاري	القرن السابع	سني مالكي	اتجاه فقهي نقل الاسرائيليات
١٩	أنوار التنزيل واسرار التأويل	البيضاوي	٦٥٨	سني شافعي	خلاصة الكشاف؛ ذكر فضائل السور
٢٠	مدارك التنزيل	النسفي	٧٠١	سني	خلاصة الكشاف والبيضاوي؛ فيه فضائل السور

التسلل	اسم التفسير	اسم المفسر	سنة الوفاة	المذهب	المنهج
٢١	غرائب القرآن	النيسابوري	٧١١	شيعي	
٢٢	لباب التأويل في معاني التنزيل	علي بن محمد الخازن	٧٤١	سني	روائي
٢٣	القرآن العظيم	ابن كثير الدمشقي	القرن الثامن	سني	
٢٤	كنز العرفان في فقه القرآن	المقداد السيوري	٨٢٦	شيعي	
٢٥	الثلاثي الزيدي	الزيدي	٨٣٢		
٢٦	جواهر الحسان	الثعالبي	٨٧٦	سني	مختصر بدون زوائد
٢٧	الجلالين	جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي	٨٦٤	سني	روائي
٢٨	الدر المنثور	السيوطي	٩١١	سني	
٢٩	السراج المنير	الشربيني	٩٧٧	سني	نقل ارجع الأقوال مع بعض الاسرائيليات
٣٠	ارشاد العقل السليم	أبو السعود	٩٨٢	سني	إلى مزايا الكتاب الكريم

التسلل	اسم التفسير	اسم المفسر	سنة الوفاة	المذهب	المنهج
٣١	الصافي	ملا محسن فيض الكاشاني	١٠٩١	شيعي	روائي نقلي
٣٢	البرهان في تفسير القرآن	سيد هاشم البحراني	١١٠٧	شيعي	يحوي روايات أهل البيت
٣٣	نور الثقلين	عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي	١١١٢	شيعي	روائي
٣٤	الجزائري	أبو بكر الجزائري	١١٥٩	سني	
٣٥	روح المعاني	شهاب الدين الالوسي	١٢٧٠	سني	
٣٦	المنار	سيد رشيد رضا	١٣٥٥	سني سلفي	تقرير دروس الشيخ محمد عبده
٣٧	اضواء البيان	الشنقيطي	١٣٩٣	سني	تفسير القرآن بالقرآن
٣٨	الميزان في تفسير القرآن	السيد محمد حسين الطباطبائي	١٤٠٠	شيعي	جامع

التفسير حسب القرون

أوائل المفسرين

ويذكر المؤرخون الشخصيات التالية	سنة الوفاة
عبدالله بن عباس	٦٨ هجرية
سعيد بن جبير	٩٤ أو ٩٥
مجاهد بن جبير	١٠٤
الفراء النحوي	٢٠٧
عكرمة	١٠٥
ابن جريج	١٠٥

أما حسب القرون فيذكرون ما يلي:

في عصر الصحابة:

الإمام علي عليه السلام

ابن عباس

ابن مسعود

أبي بن كعب

في عصر التابعين:

مدرسة مكة:

سعيد بن جبير

مجاهد بن جبير

طاووس بن كياس	ت ١٠٦
عطاء بن أبي رباح	ت ١١٤

مدرسة المدينة:

سعد بن المسيب	٩٤
أبو العالية الرياحي	٩٠
محمد بن كعب القرضي	
زيد بن أسلم العدوي	١٣٦

مدرسة العراق

قتادة السدوسي	١١٧
جابر الجعفي	١٢٨
السدّي الكبير	١٢٧
مسروق بن الأجدع	٦٣
علقمة بن قيس	٦١
مرة الهمداني	٧٦
عامر الشعبي	١٠٩
الحسن البصري	١١٠
أبو صالح باذان	١٢٠

ويجب أن لا نغفل هنا دور أهل البيت عليهم السلام العظيم في نشر الثقافة التفسيرية بين المسلمين وله حديث مفصل.

في القرن الثالث

الإسفراييني	٢٠١
هشام الكلبي	٢٠٤
يونس بن عبدالرحمن	٢٠٨
ابن فضّال	٢٢٤
البطائني	٢٢٤

في القرن الرابع

علي بن إبراهيم القمي	ت ٣٢٩
فرات الكوفي	
العياشي	ت ٣٢٠
النعماني	
الطبري	ت ٣١٠
بحر العلوم السمرقندي	

في القرن الخامس

السيد المرتضى	٤٣٦
السيد الرضي	٤٠٦
المفيد	٤١٣
الطوسي	٤٦٨

السلمي	٤١٢
الثعلبي	٤٢٧
الواحدي النيشابوري	٤٥٠
الاندلسي	٤٨١
المروزي	٤٨٩
القشيري	٤٤٨

في القرن السادس

الطبرسي	٥٤٨
الرازي	٥٥٦
الراوندي	٥٧٣
ابن شهر آشوب	٥٥٨
الزمخشري	٥٣٨
البغوي	٥١٦
الجوزي	٥٩٧
الميبدي	بعد ٥٣٠

في القرون ٧ و٨ و٩

الشيباني	بعد ٦٤٠
الواعظ	ق ٧
الآملي	٧٨٧
الجرجاني	ق ٨
ابن طاووس	٦٦٤

المقداد السيوري	٨٢٦
الفخر الرازي	٦٠٦
القرطبي	٧٦١
البيضاوي	٦٨١
النسفي	٧١٠
الخازن	ت بعد ٧٢٥
النيشابوري	٧٣٠
أبو حيان الاندلسي	٧٤٥
ابن كثير	٧٧٤
الثعالبي	٨٧٦
البقاعي	٨٨٥

القرون ١٠، ١١، ١٢

الكاشاني	٩٨٨
الفيض الكاشاني	١٠٩١
البحراني	١١٠٧
الحويزي	١١١٢
الملا صدرا	١٠٥٠
السيوطي	٩١١
الحقي	١١٢٧

القرنان ١٣، ١٤

السيد عبدالله شبر	١٢٤٢

الشوكاني الزيدي	١٢٥٠
الآلوسي	١٢٧٠
الطنطاوي	١٣٥٨
رشيد رضا	ت ١٣٥٥
الطباطبائي	ت ١٤٠٠

وغيرهم[١].

مناهج المفسرين

وقد اختلف المفسرون والمؤرخون للتفسير في تقسيم هذه المناهج؛ فقسمها الذهبي إلى تفسير بالمأثور أو بالرأي (وذكر له أحد عشر نموذجاً) وقسمها خالد عبدالرحمن إلى التفسير بالمأثور أو باللغة أو بالعقل أو بالاجتهاد أو بالاشارة وقسمها الشيخ السبحاني إلى العقل والنقل.

أما العقل فهو يشتمل:

١ـ العقل الصريح.

٢ـ وفق المدارس الكلامية.

٣ـ طبق السنن الاجتماعية.

٤ـ طبق العلم الحديث.

٥ـ طبق تأويلات الباطنية.

٦ـ طبق تأويلات الصوفية.

وأما النقل فيشمل:

١ ـ راجع: كتب طبقات المفسرين للادندوي والداوودي والعقيقي والعلوي والقيسي وكتاب (التفسير والمفسرون) في ثوبه القشيب للشيخ معرفت وغيرها.

١ـ تفسير القرآن بالقرآن.

٢ـ التفسير التبييني البلاغي.

٣ـ التفسير باللغة والقواعد العربية.

٤ـ التفسير بالمأثور عنه صلى الله عليه وآله أو عنهم عليهم السلام

أما الشيخ معرفت فيقسمه إلى النقلي والاجتهادي.

والنقلي قد يكون مع توضيح (كالطبري) وقد يكون بدونه (كالسيوطي والبحراني) والاجتهادي: كتفاسير الباطنيين.

أو ما يجمع بين العقل والنقل وهو الشائع وهو بدوره ينقسم إلى الفقهي والأدبي واللغوي والموجز والعرفاني الرمزي.

وهناك تقسيمات أخرى التقسم المختار:

أن يقال باختلاف الحيثيات فيقسم:

أ ـ من حيث السير التفسيري إلى:

١ـ التفسير الترتيبي (آية فآية).

٢ـ التفسير الموضوعي بالتركيز على الموضوعات القرآنية كلها أو بعضها.

ب ـ من حيث التفصيل إلى مطول وموجز ومتوسط.

ج ـ من حيث الجامعية ينقسم إلى:

١ـ الجامع لكل الأبعاد (كتفسير الميزان وتفسير مفاتيح الغيب للرازي).

٢ـ التركيز على جانب واحد من قبيل:

ـ تفسير المفردات (للراغب الاصفهاني).

ـ الإعراب والقواعد (كالسيوطي).

ـ بعض الآيات أو السور أو الأجزاء.

ـ بعض الأبعاد وتشمل:

البعد التاريخي، البعد الفلسفي، البعد العرفاني، العبد الاجتماعي، أسباب النزول، البعد الكلامي، البعد الفقهي (بالتركيز على آيات الأحكام)، البعد الروائي، البعد العلمي الحديث، العبد الباطني، أقوال المفسرين، وغير ذلك.

ملاحظات تعريفية لبعض التفاسير المختارة

١ـ تفسير القرآن العزيز المعروف بتفسير عبدالرزاق والمؤلف هو الصنعاني في أوائل القرن الثاني.

وقد اختلف في مذهبه، وقيل إنه كان يحفظ ١٧ الف حديث.

وهو تفسير روائي يحوي ٣٧٥٩ حديثاً وربما خلا من الاسرائيليات إلا قليلاً.

٢ـ تفسير الإمام الشافعي (ت٢٠٤) وهذا التفسير جمعه الحافظ البيهقي النيشابوري صاحب السنن الكبرى (ت ٤٥٨).

٣ـ تفسير ابن أبي حاتم وفيه (١٩٥٤١) حديثاً وينقل حتى عن أتباع التابعين بعبارة (حدثنا) وقد حاول أن يذكر أصح الأسانيد إلاّ أن فيه أحاديث ضعيفة.

٤ـ تفسير علي بن إبراهيم بن هاشم وكان من أصحاب الإمام العسكري عليه السلام وكان حياً سنة ٣٠٧ وهو ثقة له كتب ومن مشايخ المرحوم الكليني وربما كان التفسير من تأليف تلميذه أبي الفضل العباس ولا ذكر لهذا في كتب الرجال، كما أن الإسناد إليه مجهول وفيه ضعاف وفيه غلو أيضاً.

٥ـ تفسير (العياشي) ومؤلفه سني متشيع توفي عام ٣٢٠ وهو من أهالي سمرقند يحوي تفسيره على ٢٧٢٢ رواية بلا سند (ربما لحذف النساخ). وقد فقد الجزء الثاني ولكن صاحب مجمع البيان والحاكم الحسكاني ينقلان عنه وقد اتهم بالقول بالتحريف.

٦ـ تفسير (جامع البيان) مؤلفه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ولد في مدينة آمل سنة ٢٢٤ وتوفي سنة ٣١٠ في بغداد ودفن ليلاً لأنه اتهم بالتشيع رغم أنه كان شافعياً.

ويعد تفسيره مرجعاً للمفسرين ويقع في ثلاثين مجلداً ويحوي ٢٩٦٨٤ حديثاً وهو تفسير اجتهادي نقلي فيه ترجيح للأقوال والروايات ويتعرض للقراءات. ولم يخل من الاسرائيليات.

٧ـ تفسير التبيان لشيخ الطائفة الطوسي. وقد ولد بخراسان (طوس)[1].

ولد الشيخ عام ٣٨٥ وهاجر إلى بغداد عام ٤٠٨ زمن الشيخ المفيد فتتلمذ عليه ثم على السيد المرتضى (٢٣ سنة) وكان زعيم الشيعة ولما هاجم طغرل بك زعيم السلاجقة بغداد عام ٤٤٨ هاجر إلى النجف بعد أن احرقت داره ومكتبته وأسس الحوزة العلمية الكبرى في النجف. وتوفي عام ٤٦٠هـ وما زال مسجده إلى اليوم محلاً لتدارس العلماء. وكان الشيخ من أعظم العلماء وله خمسون كتاباً منها (التبيان) وكتب تفسيرية أخرى كالرجبية ولعظمته وعمق مؤلفاته فقد أغلق باب الاجتهاد طوعاً بعده إلى أن برز المرحوم ابن إدريس الحلي وراح ينتقد آراء الشيخ. ويتعرض تفسير (التبيان) في المقدمة إلى أنواع التفسير وعلوم القرآن ثم يشرح الهدف منه ثم يذكر معاني القرآن فمنها ما اختص الله تعالى به كعلم الساعة. ومنها ما يطابق معناه ظاهره كقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾.

١ ـ ومن الملاحظ أنه خلافاً لما يشاع من أن التشيع فارسي والتسنن عربي، فإن التشيع ولد بشكل منظم في الكوفة والمدينة ويوم سيطر على العالم الإسلامي تقريباً في القرنين الرابع والخامس كان علماء خراسان من قبيل الغزالي، وإمام الحرمين الجويني والزمخشري والنسائي والبيهقي هم الذين حموا التسنن ونشروه.

ومنها ما هو مجمل في ظاهره مثل ﴿**وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ**﴾. ومنها ما يشترك بين معنيين ولعله المتشابه.

ويعتمد في تفسيره على القرآن وأقوال المعصومين والسلف وقواعد العربية والعقل والإجماع والتاريخ وأسباب النزول. هذا ورغم انتقادات ابن إدريس للشيخ إلاّ أنه ـ كما يقول السيد بحر العلوم[١] ـ اعترف بعظمة (التبيان) وذكر الشيخ شحاذة المصري أن الشيخ كان من رواد التفسير العقلي[٢].

٨ ـ تفسير أحكام القرآن للرازي الجصاص الحنفي الذي رفض تقلد المناصب وقد توفي عام ٣٧٠ وهو يدعم رأي الحنفية ويستطرد أحياناً ويذم مخالفيه وخصوصاً الشافعي. وقد تأثر بآراء المعتزلة.

٩ـ أحكام القرآن للكياهراسي الشافعي الرازي: درس في المدرسة النظامية ببغداد وتوفي ٥٠٤ وقد تعصب لمذهبه ورد على الجصاص.

١٠ـ أحكام القرآن لابن العربي المالكي الأندلسي وكان من الجامعين للفنون وألف كتباً كثيرة منها: (المسالك في شرح موطأ مالك) يقل تعصبه لرأي مذهبه وربما هاجم المخالفين كالشافعي. كره الاسرائيليات ونفر من الأحاديث الضعيفة.

١١ـ المحرر الوجيز لابن عطية المتوفى سنة ٥٤٨ وهو تفسير ممدوح يميل إلى الاعتزال.

١٢ـ تفسير قطب الدين الراوندي الشيعي توفي سنة ٥٧٣ وهو صاحب (منهاج البراعة في تفسير نهج البلاغة) وقد اعتمد عليه ابن أبي الحديد.

---

١ ـ الرجال ج ٣: ص ٢٢٨.

٢ ـ القرآن والتفسير ص ٢٣١.

١٣ـ تفسير (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي المالكي وكان زاهداً عابداً له مؤلفات، توفي عام ٦٧١ وقد تحدث عن أسباب النزول، والغريب، ورد على المعتزلة والشيعة والفلاسفة والصوفية فهو أقرب إلى السلفيين اليوم. وكان حراً في البحث وربما انتقد المالكية.

١٤ـ تفسير (مجمع البيان) للشيخ الفضل بن فضّال الطبرسي التفريشي توفي عام ٥٤٨. وهو عالم جامع على وزان الطبري، وكان تلميذاً لأعلام القرنين الخامس والسادس. والمعروف عنه أنه كان أسوة في التقريب بين المذاهب ويروى عنه أنه بعد الفراغ من كتابة (المجمع) عثر على كتاب (الكشاف) للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ فرآه جامعاً فسعى التأليف كتاب بعنوان (جوامع الجامع) ومن كتبه التقريبية (المؤتلف من المختلف) وتفسيره جامع قوي العبارة. وقد مدحه العلماء الكبار؛ فقال عنه الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الأزهر في تقديمه للكتاب: حلاّل معظلات كشاف مبهمات.

وقال فيه العلامة شلتوت: نسيج وحده؛ سعة في البحوث مع الترتيب والتبويب الذي لم نعهده من قبل... أول كتب التفسير الجامعة.

وقال عنه صاحب (التفسير والمفسرون): كتاب عظيم في بابه يجيد في كل ناحية تناولها.

وتأليفات الشيخ الطبرسي كثيرة ومقدمة تفسيره جديرة بالقراءة والظاهر أن تفسير (التبيان) يشكل أصلاً لـ (مجمع البيان) وإن كان المجمع أحسن ترتيباً وأكثر مطالب وتفريعات. وهو تفسير اجتهادي جامع يذكر الآراء بموضوعية ويتعرض لعلوم القرآن وغيرها بالمناسبة.

ومصادره القرآن والسنة والعقل والتاريخ واللغة. وفيه بعض الإسرائيليات.

١٥ـ تفسير (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي ويسمى إمام المشككين. وقد دفعت تشكيكاته الفلسفية ليجيب عليها الفلاسفة مما طور العلوم العقلية.

أتقن علوماً كثيرة، وقام برحلات كثيرة أيضاً، وتمرس في العلوم كالفلسفة والكلام والأصول والطب والتفسير.

يبدو أنه كان محباً لأهل البيت عليهم السلام ويظهر ذلك من مواضع في تفسيره من قبيل تفسيره لسورة الكوثر، وحديثه عن الجهر بالبسملة في الصلاة وقوله: (من اقتدى بعلي فقد اهتدى) وقوله: (آل محمد كان لهم أشد التعلقات برسول الله).

إلاّ أنه يتحامل على شيعتهم أحياناً. ولعل ذلك من دس النسّاخ.

وتفسيره اجتهادي روائي جامع (استغرق منه ١٠ سنوات) وهو كلامي يرى أن الله كوناً منظوراً وآخر مقروءاً (القرآن) وأنه يمكن أن يكتشف من سورة الحمد أكثر من عشرة آلاف مسألة.

وكان له اعداء الفوا ضده كالسرمباحي حيث ألف فيه مجلدين.

وكان يقدر مذهب خصمه بما لا يقدر هو عليه.

يلتزم بذكر تناسب الآيات والسور وأول السورة مع آخرها وهو ما نشهده عند بعض المفسرين الآخرين كسيد قطب في (الظلال).

يستفيد في تفسيره من القرآن والسنة والفلسفة والكلام والعرفان والعلوم التجريبية واللغة والتاريخ. وذكر الذهبي أنه لم يتم تفسيره وقد اختلفوا في من أتمه والظاهر أنه أكثر من واحد.

١٦ـ تفسير (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للشيخ ناصر الدين البيضاوي الشافعي الآذربايجاني، توفي عام ٦٨٥ بتبريز وكان قاضياً بشيراز. تأثر بتفسير الكشاف بل يقال أنه اختصره، وذكر فضائل كل سورة رغم أن الكثيرين ينكرونها واستمد من مفاتيح

الغيب ومفردات الراغب. وهو تفسير اجتهادي جامع يذكر مذهب أهل السنة والمعتزلة ويقلل من ذكر الإسرائيليات، ويدخل في مباحث الكون والطبيعة، حشى عليه أربعون من أمهات كتب التفسير.

١٧ـ تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي الحنفي صاحب المؤلفات توفي عام ٧٠١ وقد اختصر تفسير البيضاوي والكشاف، ولم يذكر فضائل السور، وخاض في النحو والحديث والفقه، وقلل من الإسرائيليات.

١٨ـ تفسير غرائب القرآن لمحمد بن الحسين النظامي الأعرج النيسابوري. وأصله من مدينة قم وهو من كبار الحفاظ، زاهد ورع، متصوف له مؤلفات. وهومنسوب إلى التشيع ولا يبعد ذلك وان دافع احياناً عن رأي أهل السنة.

وهذا التفسير يختصر (مفاتيح الغيب) والكشاف يناقشه، ويذكر القراءات العشر والآراء ويدخل في الكونيات والفلسفة والعرفان. وقد رد فضائل السور.

١٩ـ تفسير الجلالين وهما المحلي والسيوطي والأسلوب واحد إلاّ في بعض الجوانب.

٢٠ـ تفسير كنز العرفان للمقداد السيوري الحلي الشيعي توفي عام ٨٢٦ ولقد درسناه فوجدناه قوي الحجة واسع المعرفة وهو مؤلف (التنقيح الرائع فس شرح الشرائع) ويهاجمه الذهبي هجوماً غير موضوعي.

٢١ـ تفسير (السراج المنير) للخطيب الشربيني القاهري الشافعي توفي عام ٩٧٧.وقد اقتصر على ارجح الأقوال لديه، ولم يذكر إلا ما تواتر من القراءات، وركز على الأحاديث القوية، ورد أحاديث فضائل السور، واهتم بالنكت التفسيرية والمشكلات والمناسبات بين السور، والفقه إلا أن فيه إسرائيليات.

٢٢ـ تفسير (إرشاد العقل السليم) لأبي السعود محمد العمادي الحنفي المتوفى

سنة ٩٨٢ في استانبول والمدفون جوار قبر الصحابي أبي أيوب الانصاري. وفيه أسرار البلاغة، وقد كتبت تعليقات عليه. وقد مدح الكشاف والبيضاوي وذكر بعض فضائل السور.

٢٣ـ تفسير (زبدة البيان) للشيخ أحمد الأردبيلي الشيعي مؤلف (مجمع الفائدة في شرح الإرشاد) وهو من تفاسير آيات الاحكام الجيدة.

٢٤ـ تفسير ابن كثير وقد قيل عنه أنه خير كتب التفسير.

٢٥ـ تفسير الجواهر الحسان للثعالبي المتوفى عام ٨٧٦ وهو تفسير موجز وليس فيه حشو.

٢٦ـ تفسير (الصافي) للفيض الكاشاني التوفى عام ١٠٩١ وهو نسيب الفيلسوف الملا صدرا الشيرازي.

وكان أخبارياً صلباً، استفاد من تفسير البيضاوي. تفسيره روائي اجتهادي، مقدمته طويلة مفيدة، يشتمل على بعض الإسرائيليات والموضوعات. واكبر ضعفه احتمال التحريف. وقد نسب خطأ للمرحوم الكليني ذلك فقام بعض علماء السنة بتكفيره دون تروٍ وقد حققنا الأمر في هذا الكتاب فوجدنا النسبة باطلة[1] غفر الله له.

٢٧ـ تفسير (الدر المنثور في التفسير بالمشهور) لعبدالرحمن بن الكمال الأسيوطي الإيراني الأصل المتوفى سنة ٩١١. فيه أكثر من ١٠٠٠٠ حديث مع ذكر الراوي الأول والمصدر فهو مرجع لأهل السنة، وكثيراً ما استند العلامة الطباطبائي إليه في تفسيره (الميزان)، وفيه إسرائيليات.

---

١ ـ راجع بحث (التحريف)، ص ١٥٦.

٢٨ـ تفسير (نور الثقلين) للشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي الشيعي وهو من محدّثي القرن الحادي عشر ومعاصر للمرحومين البحراني والحر العاملي وكلهم أخباريون. توفي عام ١١١٢ وقد مدحه العاملي. نقل أحاديث أهل البيت عليهم السلام. وفيه أكثر من ١٣ الف حديث وفيها الضعيف وهو بنفسه يقول: (فيه الغث والسمين).

٢٩ـ تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا تقريراً لدرس استاذه الشيخ محمد عبده الذي التقى بالعلامة السيد جمال الدين الأسد آبادي الأفغاني فكان يخاطبه بـ مولاي الأعظم. ناوأ الانكليز وسجن مرتين، ونفي وأصدر مع أستاذه (العروة الوثقى)، تولى القضاء بمصر عام ١٨٨٨م وعاد مفتياً لمصر. شرح نهج البلاغة وكتب كتباً كثيرة جمعت في أعماله الكاملة، توفي عام ١٣٢٣ وله تلامذة كثر.

أما رشيد رضا فاصله من سورية وعاش في مصر وأصدر مجلة المنار.

تفسيره جامع ولكنه ناقص ينتهي في م ١٢ إلى الآية (وما أبرئ نفسي) من سورة يوسف.

والغريب أن محمد عبده اعتبر من المعتزلة الجدد في حين عاد رشيد رضا سلفياً متشدداً وقد رفض الإسرائيليات. واعتمد على تفسير الجلالين، ومفردات الراغب وتفسير البيضاوي والفخر الرازي. ونجده أحياناً يراجع ٢٥ تفسيراً. ومصادره القرآن والحديث المأثور والعقل والعلوم الحديثة والأدب والتاريخ واعترض على الطبري في حادثة بختنصر مع المسيحيين مع أنها سبقت المسيح بستة قرون. وقد ألف حوله الكثيرون وقد أنكر بعض الغيبيات.

٣٠ـ تفسير (الميزان) للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي وهوتلميذ العلماء

الأجلة: الميرزا النائيني والإصفهاني الكمباني والعارف القاضي وتفسيره اجتهادي جامع نموذجي رائع، وجمع بين التفسير الترتيبي والموضوعي، والتفسير بالقرآن والحديث والفلسفة والعقل والأدب والتاريخ والعلم. وتفسيره تقريبي يستفيد من تفاسير الفريقين بشكل جميل، ويناقش بقوة ما يراه باطلاً.

الفصل الثاني:
نحو تفسير علمي للقرآن

أهداف التفسير و التفسير العلمي

وأهمّها الوصول إلى فهم المضامين التي أرادها الله تعالى في كتابه الكريم، ومعرفة ما افترض الله تعالى على عباده، وهي أهمّ الغايات بالإضافة إلى آثار هامّة أُخرى تترتب على ذلك.

ولا شكّ أنّنا في سبيل فهم مضامين القرآن نحتاج إلى التفسير باعتباره الوسيلة التي توصلنا إلى معرفة المحكم والمتشابه والمجمل والمبيّن وحكمه وعلله وفرائضه وسننه...

فالتفسير: محاولة لفهم مراد القرآن وبهذا نعرف الفرق بين التفسير القرآني الإسلامي، والتفسير المسيحي للإنجيل والتوراة المعروف بـ (الهرمنوطيقيا).

فإن التفسير القرآني يستهدف اكتشاف مراد ا لمولى جل وعلا من النص لا غير؛ وذلك لكي ينفذ أوامره أو يمتنع عن نواهيه، أو ليفهم المفاهيم والصور

القرآنية عن الكون والتاريخ والحياة والإنسان، فيحقق الاعتقاد الصحيح وينطلق منه لتكوين المفاهيم العامة والخاصة التي تترك أثرها على سلوك الأفراد والمجتمعات. في حين أن الهرمنوطيقيا جاءت في منطلقها لمعرفة قصد مؤلف النص ولكنها واجهت الكثير من الخرافات والتناقضات ليتحير (غادامير) مثلاً في إمكان فهم النص وينتهي الأمر بالمدرسة التركيبية الحديثة لتعتبر قراءة النص نشاطاً حراً وتعاملاً مطلقاً من أي قيد مع النص وعليه فمن الممكن أن نمتلك قراءات متنوعة عبر تحطيم أسس النص وبنيته وتركيبه من جديد حتى لو تطلب الأمر مخالفة مراد القائل خالق النص[١].

المراد من التفسير العلمي

وصفنا التفسير الذي ندعو إليه بالتفسير العلمي. ولإيضاح المقصود نقول: العلم كما يعرفونه هو: «حضور صورة الشيء في الذهن أو في العقل»[٢]، وهو «إدراك الشيء بحقيقته»[٣].

فالإدراك بناءً على التعريف يقع على المدرك ذاته، وهذا هو جوهر التعريف، أي لا غير المدرك ولا أنقص في المدرك ولا أزيد منه، فإذا قال العنوان(تفسير علمي) فالمقصود: أنّ التفسير يجب أن يكون للقرآن لا لغير القرآن؛ بدعوى أنّه القرآن، ولا أزيد منه، ولا أنقص منه.

وسنحاول إيضاح الفكرة عن هذه الأقسام وهي ثلاثة: أوّلها تفسير غير القرآن بدعوى أنّه القرآن، وقد يبدو هذا غريباً، فكيف يفسّر غير القرآن بدعوى أنّه

١ ـ راجع مقالنا حول الموضوع في كتاب الحوار مع الذات والآخر ص ٢٢٤.
٢ ـ المنطق للشيخ محمّد رضا المظفر ١: ١٣.
٣ ـ مفردات غريب القرآن: ٣٤٣، مادة (علم).

القرآن ؟! بيد أنّنا بقليل من التأمّل سنرى أنّ هذا يبدو واضحاً فيما يلي من أنواع التفاسير الآتية.

أنواع التفسير اللاعلمي[١]

١ ـ التفسير الذي تدخله الايديولوجية

أو قل الذي يتأثّر بنزعة خاصة. وذلك أنّ المفسّر يفترض مسبقاً رأياً خاصّاً ثم يبدأ بتفسير الآية على ضوئه، وإذا استعصت عليه جرّها جرّاً وتعسّف في تطويعها لما افترضه من رأي سلفاً، فالآية تفسّر تبعاً لما في ذهنه من المعنى لا أنّه يتّبع ما تقود إليه الآية في مضمونها.

وحيث ذكرنا في تقسيم التفسير بأنه قسمان: تفسير بالمأثور وآخر بالجهد وإعمال الفكر والرأي، فإنّ الإيديولوجي يحصل في القسمين، أمّا في الرأي فواضح؛ لأنه يميل مع الهوى والنزعات، وأمّا في المأثور فإنّه يختار من المأثور ومايميل إليه، وإن كان غيره ألصق بالآية وأقوى ظهوراً وأكثر تمشياً مع خطوط الشريعة العامة.

ويختلف الرأي الإيديولوجي الذي يفرضه مسبقاً، فقد يكون ذا نزعة مذهبية عقائدية، أو منهجية صوفيّة أو نظرية علمية باختلاف مجالات العلم، وكون الايديولوجي يتصوّر في هذه الفروع ليس معناه أنّ القرآن الكريم يخلو من جذبات روحية صوفية، أو قابلية لتحمّل عديد من وجوه المعاني، أو إشارة إلى قانون علمي أو سنّة كونية، ولكنّه على ذلك لا يتخصّص لواحد منها، فليس هو بالمؤلّف الذي يعنى بالجدل خاصة، وبالتخصص في الطرق الصوفيّة أو بالكون

١ . هذا البحث يحاول أن يعرض آراءً ذكرت في بعض الكتب، ويراها ضرورية لتقوية ثقافة الطالب القرآنية.

ضمن نطاق المختبر يضع الأُسس للفيزياء والكيمياء ـ كما قد يتصوّر البعض من الذين ذهبوا إلى ذلك في كثير من حسن النية ـ كما سيمرّ علينا. وعلى كلٍّ فإنّ المفسّر في هذين الحقلين وباختلاف الفروع التي يمارس التفسير فيها، إنّما يفسّر ما افترضه مسبقاً وسلفاً دون ما يؤدّي إليه لسان الآية، وواضح أنّ هذا التفسير تفسير لغير القرآن بدعوى أنّه تفسير للقرآن.

٢ ـ الزائد على القرآن وليس منه

وأقسامه كالآتي:

أ) إقحام بعض النظريات العلميّة من مختلف مجالات العلم ـ كالفيزياء والفلك والأحياء وغيرها ـ في مضامين بعض الآيات استناداً لشبهة لفظية أو مضمونيّة لا تصل إلى مستوى الدليل، وسنمثّل لذلك.

ب) التوسّع فيما له منشأ انتزاع وعدم الاقتصار على مؤدّاه، يتّخذ منطلقا للتوسّع غير المشروع ومجالاً لترتيب حشد من النظريّات بدون مبرّر علميّ.

ج) تفسير بعض الآيات وترجمة مضامينها بما هو بعيد عن أهداف القرآن، استناداً إلى ما ينقدح في ذهن المفسّر عن آية ما، وليس لذلك الانقداح من صلة بالآية إلاّ دعاوي الإلهام والكشف الذي قد يعتبره البعض وجهاً من وجوه التفسير وطريقاً معترفاً به، وإنّا أدرجناه في الزائد على القرآن لهذا الاعتبار المدّعى، وإلاّ فهو في باب غير القرآن ألصق.

٣ ـ الناقص عن القرآن الذي لا يستوعب مادّته بالشرح ولا يجلّي أهدافه

وأقسامه هي:

أ) ما يغفل عنصر الأبديّة في القرآن الذي يستلزم أن يكون فيه زاداً لكلّ جيل

وعطاءً لكلّ فترة ومرونة تحفظ له جدّته وخلوده ولصوقه بحاجات المجتمع تلو المجتمع والجيل بعد الجيل، حيث يأخذ منه كلّ جيل بقدر ما تنهض به وسائله وما تحمل من استعداد للتزوّد منه، وهي خاصة موجودة في كثير من مضامين القرآن كما هو واضح من سماته؛ ذلك لأنّ القرآن يضع المفاهيم الثابتة للثابت من الحقائق الكونية، والمفاهيم المتطوّرة لغير الثابت مما يمكن أن يأخذ أطواراً وحالات مختلفة كما سنمرّ عليها.

والمفسّر هنا، وفي هذا القسم بالذات ـ أعني القسم المتطوّر ـ يقصر مداليل الآيات على معاني يقطع بأنّها هي المرادة لا غيرها، وهو بذلك يوصد باب الفكر ويحكم على المنبع الثرّ بالانقطاع وعلى دفق الشعاع بالنضوب، وبالتالي عدم استيعاب القرآن بالشرح؛ لأنّه بصورة مباشرة أهمل وجوهاً أُخرى محتملة وأبعدها عن مصدرها بدون مبرّر غير ضيق الأُفق.

ب) إغفال ما قد يتصوّره بعض المفسرين بأنّه ليس محلاً للابتلاء، أو أنّه من الأُمور الثانوية، أو أنّه ترف في أمثال هذه المواضيع ونافلة، اللهم إلاّ الشروح اللفظية أو إشارة إلى المعنى بتركيز شديد جداً، وخذ لذلك مثلاً الرفق، أو الاقتصاد، أو نظرية الحكم، وغير ذلك من الأُمور الهامّة بالفعل.

ج) إهمال كثير من مضامين القرآن بدعوى أنّها ممّا استأثر الله تعالى بعلمه، فإذا قيل: ما هو مبرّر وضعها في القرآن؟ تأتي أجوبة ليست بناهضة، وقد تكون تلك الأُمور من الأعمدة الفقرية في الكتاب العزيز.

وستأتي الإشارة إلى ذلك إن شاء الله بقدر ما يتّسع له هذا البحث المختصر[1].

١ ـ راجع: في تقسيمات التفسير ومعانيه مايلي: التفسير والمفسّرون للذهبي، ج ١، ص ١٩، ط مصر ١٩٦١، تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي، ج ١، ص ١٣ ـ ١٤، والبيان للسيد الخوئي، ص٣٩٧.

وفي نهاية هذه المقدمة القصيرة لابدّ من الإشارة إلى أُمور ذات صلة بالبحث يستحسن ذكرها، وهي:

أوّلاً: قد تبدو التفاسير في نظر البعض ناقصة من أُمور، وقد يكون ذلك ممّا ليس في وسع المفسّر؛ إمّا لأنّه قد جدّت وسائل ومعلومات لم تكن في عصره وكانت في عصر الناقد، وإمّا لأنّ المفسّر غفل عن بعض ما لم يغفل عنه الناقد، أو لأنّه أحسن الظن في من روى عنه خبراً أو رأياً ليس بالمستقيم.

وما ذلك لقصور في التنقيب أو التقييم، بل لأنّ المرويّ عنه حاذق ومتمرّس في الدسّ والحبك أو غير ذلك. كلّ ذلك لا يعني أنّ العلماء قصّروا في هذا الميدان. كلاّ، بل إنّ جهودهم أقلّ ما توصف به أنّها جبّارة، ولكن لقدرة البشر حدود والكمال لله تعالى.

ثانياً: أنّنا ننحو باللائمة على كثير من المفسّرين، لأنّه صبغ التفسير بمزاجه الذهني وما مال إليه طبعه من فلسفة أو لغة، أو بديع أو غير ذلك. وقد تكون هذه الظاهرة أحياناً تقرب من اللاإرادية ولها بجانب كونها فرض ثوب خاص على روض متنوّع، لها مزيتها التي هي كونها مقطعاً من مقاطع أُخرى تؤلف كُلاً هو عبارة عن دائرة معارف لعلوم مختلفة.

ثالثاً: لاننسى أنّ التفسير منذ وجد إلى يومنا هذا قام على ممارسة فردية ـ وإن كانت على مستويات علمية عالية أحياناً ـ ولكنّها على كلّ حل أشدّ نقصاً وأقلّ كمالاً ممّا لو كانت ممارسة جماعية في حدود التخصص بكل فرع من فروع علوم القرآن، فانها آنذاك تكون إلى الكمال أقرب بالنظر إلى أنّه يكاد يكون من المستحيل على الفرد أن يستوعب كلّ فروع المعرفة على نحو كامل. والقرآن الكريم تنوّعت معارفه وتعدّدت حقوله في أبعاد المعرفة، فكيف يتسنّى لفرد أن

يقوم ولو ببعض ما يطلب في هذا الميدان؟ ذلك أمر ليس بالمستطاع، لذلك كانت المحاولات كلها نسبية.

رابعاً: يجب أن نشير إلى أنّ أجلّ عمل يخدم القرآن الكريم، هو توفر التفسير الموضوعي الذي نتصوره بأنّه يتكوّن من حقلين:

أ) الجانب السلبي، ويتلخّص بإقصاء وإبعاد العوامل التي تؤثر على الموضوعية من شبه، أو عصبيّة أو هوى أو ما شاكلها من أُمور ذاتية تفسد الموضوعية، ذلك قدر المستطاع طبعاً، فإنّ الله تعالى ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[1] وأمر كهذا ليس من السهولة بحيث يسهل التغلّب عليه.

ب) الجانب الإيجابيّ، ويتلخّص بتقسيم المادة القرآنية إلى مضامينها العلميّة، وتوزيعها على الاختصاصيين، كلّ في مجاله؛ للتوفر على تفسيرها وشرحها، شريطة أن يكون المفسّر على مواصفات معيّنة سنعرض لها في الفصل التالي.

وذلك كما يصنع بدوائر المعارف العلميّة في عصرنا هذا، حيث تُجزّأ إلى علومها ويبحث كلّ علم من قبل ذوي الاختصاص به، وبهذا تتمّ الموضوعية المطلوبة، وبذلك نخدم القرآن ونسمو به عن الخبط والهلوسة أو التطفّل العلمي، مما يؤذي مكان القداسة في شعور المسلم، وهو يرى صنوفاً من اللاعلمية واللاموضوعية تأخذ طريقها إلى أقدس أثر بدوافع دعائيّة رخيصة.

خامساً: ومن أسلم السبل هنا أن نلجأ إلى أهل البيت عليهم السلام ونعرف تفسيرهم لأنهم الثقل الأصغر وعدل القرآن كما يؤكد حديث (الثقلين) المتواتر.

وإذا ما تمّ ذلك فستقع العين على أروع الكنوز وأصفى المنابع التي ظلّت مطمورة ومظلومة تصدّى لها أعداؤها وبعض أبنائها بالقول بأنّها وصفة محدودة

١ ـ سورة البقرة: ٢٨٦.

جاء بها محمّد ﷺ لمجتمع بدوي ذهبت بذهابه، فهي إفراز لوضع ووقت معين انتهى حيث انتهى سببه.

وحيث إنّنا نؤمن أولاً وقبل كلّ شيء، بأنّ القرآن الكريم جاء وسيظلّ نوراً يهدي الإنسانية في مسيرتها حتى لحظاتها الأخيرة، إلى ما فيه خيرها في الدنيا ونعيمها في عالمها الثاني، فإنّ كلّ غال يهون بذله في أيّ خدمة تتّصل بهذا المضمار الذي يوصلنا للأخذ من القرآن، ويؤهّل الدنيا لترى المجتمع القرآني الذي من القرآن يأخذ وبنوره يهتدي ومن نميره ينهل، كما وصفه تعالى بقوله:

﴿ذَلكَ الْكتَابُ لاَ رَيْبَ فيه هُدًى لِّلْمُتَّقينَ ۞ الَّذينَ يُؤْمنُونَ بالْغَيْب وَيُقيمُونَ الصَّلاَةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ ۞ والَّذينَ يُؤْمنُونَ بمَا أُنزلَ إلَيْكَ وَمَا أُنزلَ من قَبْلكَ وَبالآخرَة هُمْ يُوقنُونَ ۞ أُوْلَئكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ﴾[1].

العناصر والاتّجاهات الشاذّة في التفسير والأخطاء المنهجيّة فيه

أجملتُ في مقدمّة البحث أقساماً ثلاثة، ذكرتُ أنّها تتوزّع على أبعاد التفاسير الموجودة فعلاً، فقد ينال بعض التفاسير قسمٌ منها أو أكثر أو أقلّ، ولكن القدر المتيقن هو أنّه لا يخلو تفسير من بعضها. وقد آن الأوان لبيان ما أجملناه في المقدّمة، بشرح يستوعب الأقسام المذكورة وفق تسلسلها الوارد في المقدّمة مراعين الاختصار في تقديم بعض النماذج للتدليل.

القسم الأول: تفسير غير القرآن على أنّه القرآن.

وهو التفسير الذي تفترض فيه إيديولوجيّة خاصّة سبقاً وسلفاً، وتُكيِّف الآية بمضامينها وفق تلك الصفة المطلوبة.

---

١ ـ سورة البقرة: ٢ ـ ٥.

نماذج من تفسير غير القرآن على أنه قرآن

أ) افترض بعض الرواة والمفسّرين سلفاً كفر أبي طالب عليه السلام إمّا لجهل أو لعناد أو لحسن ظن بمن روى ذلك، وفي ضوء هذا الافتراض صار يفسّر بعض الآيات ومنها قوله تعالى: ﴿**وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾[1].

فذكر عن عطاء ومقاتل أنّها نزلت في أبي طالب عمّ النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنّه كان ينهى قريشاً عن إيذاء النبيّ ثم يتباعد عنه.

وهذا تفسير أملته صفة معيّنة ولم تفسّر فيه الآية، بل فسّر ما في نفس المفسّر. وسبب بطلان هذا التفسير وجوه:

أوّلاً: أنّ الآية مرتبطة بما قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ۞ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾[2].

وقد نصّ المفسّرون على أنّها نزلت في بعض مشركي قريش وهو أبو سفيان والوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهم.

ولا يخفى أنّ الوليد هو أبو القائد الإسلامي خالد، وأنّ أبا سفيان هو أبو معاوية خال المؤمنين، فلا بأس بنقلها إلى أب علي بن أبي طالب عليه السلام.

ثانياً: أنّ الآية تتحدّث عن جماعة ولم تتحدّث عن واحد، وقد يُعبّر عن الفرد

---

١ ـ سورة الأنعام: ٢٦.

٢ ـ سورة الأنعام: ٢٥ ـ ٢٦.

بصيغة الجمع في مقام التعظيم، وليس المقام هنا مقام التعظيم، وهذا قرينة على تأييد القول السابق.

ثالثاً: أنّ قوله تعالى: ﴿**وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ**﴾ راجع إلى جميع ما ذكر في صدر الآية، يعني أنّ كونهم ينهون عنه وينأون عنه سيؤدّي بهم إلى الهلاك، وقد افترضنا أنّ أبا طالب ـ كما يقول عطاء ومقاتل ـ كان يمنع قريشاً عن إيذاء النبيّ. وهذا العمل لا يستحق به هلاك النفس بل يستحق به الثواب، فكيف يحمل على الهلاك؟!(١).

وقد ناقش بعض المفسّرين هذه الدعوى وردّ القول بنزولها في أبي طالب، والبعض الآخر فسّرها على أنها نازلة في المشركين(٢).

ب) افترض جماعة من الناس لسبب من الأسباب، أنّ بعض أئمّة المذاهب الإسلامية تأخّر في بطن أمّه مدّة أكثر من مدّة الحمل الاعتيادية، وقد اختلفوا في تقديرها بالنسبة للمورد خاصّة ولبقاء الجنين في بطن أمّه بصورة عامة، حتى جوّز بعضهم بقاء الجنين في بطن أُمّه ثمان سنين أو أكثر، وهي مأساة تترتّب عليها مجموعة من المآسي والآثار؛ لأنّ معنى ذلك أنّه لو توفّي زوج امرأة وجاءت من بعد ذلك بثمان سنين بطفل فستأخذ ميراثه، كذلك لو ادّعت الحمل أو شك في أنّها حامل من بعد وفاته كأن ينقطع عنها الدم لسبب من الأسباب فلابدّ من أنّ تعتدّ هذه المدّة مادام الاحتمال موجوداً بحملها؛ لأنّ إجماع المذاهب الأربعة على أنّ عدّة الحامل المتوفّى عنها بالوضع(٣).

---

١ ـ انظر تفسير الرازي ٤: ٢٧، طبع مصر ١٣٢٤؛ مجمع البيان ٢: ٢٨٧، طهران وصفوة البيان لمعاني القرآن ١: ٢١٩.

٢ ـ راجع الميزان في تفسير القرآن ٧: ٥٧ ـ ٥٨، راجع في ظلال القرآن ٢: ١٠٦٧.

٣ ـ انظر: رحمة الأمة في اختلاف الأئمة المطبوع بهامش الميزان الكبرى، ج٢، ص٨٤ فما بعدها ،

وعلى كلّ حال، بعد أنّ افترض جماعة هذا الافتراض اضطروا لتفسير قوله تعالى ﴿**لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاء**﴾[١]، بما ينسجم مع هذا المعنى. وقالوا: إنّه قد يبقيه أقلّ مدّة الحمل، وقد يقرّه أي يبقيه في الرحم مدة تصل إلى أربع سنين أو أكثر[٢]. وهو قول لا يؤيّده العلم ولا العادة، ولم يقع بهذه المدة ولو مرة واحدة على سبيل الشذوذ.

ج) افترض بعضهم سلفاً أنّ بعض كلمات القرآن لا تؤدّي المعنى الذي وضعت له، أو تؤدّي المعنى الموضوعة له ظاهراً ولها معنى آخر، وذلك أنّها تقطّع إلى مقاطع يستقلّ كلّ مقطع بما يؤديّه من معنى، سواء كان المعنى خبراً أو معنى عرفانياً.

وفي ضوء ذلك شرع يفسّر بعض الآيات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ إلى قوله: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه**﴾[٣]، فقطّعها كما يأتي، قال: «من» اسم موصول بمعنى الذي وحذف الالف من «ذا» وجمع الذال مع لام «الذي» بعد حذف الألف من «الذي» أيضاً، فصارت «من ذلّ» و «ذي»، ثم قطّع «يشفع» إلى «يشف» وقال: معنى ذلك من ذلّ ذي يعني إشارة للنفس فمن ذلّها يشف من كلّ داءٍ نفسي «ع» أي فعل أمر من الوعي، فكأنّه قال: يا أيّها القاري انتبه: أنّ من ذل نفسه شفي من الأمراض النفسية[٤].

ولست أدري لماذا ترك باقي المقاطع؟! وأغلب الظنّ أنّه قطّعها ولكن لم يجد

الكافي (ابن عبد البر): ٢٣٩، الانصاف (المرداوي) ٩: ٧٤.

١ ـ سورة الحج: ٥.

٢ ـ انظر الكشاف، ج ٢، ص ٥٠.

٣ ـ سورة البقرة: ٢٥٥.

٤ ـ انظر مجمع البيان ١: ٣، المقدمة.

لها معنى بعد التقطيع فسكت. وإلاّ فلا موجب للاقتصار على جزء من الآية وترك باقي الأجزاء؛ لأنّه ترجيح بلا مرجّح. اللهم، إلاّ أن يكون المرجِّح هو أنّه وجد لهذا الجزء فقط معنى بعد التقطيع ولم يجد لغيره معنى.

ومن ذلك تفسير قوله تعالى ﴿**كهيعص**﴾ مطلع مريم فقد فسّرها بعضهم برواية مرسلة لا يعرف قائلها وأسندها إلى الإمام الثاني عشر، وهي أنّ الكاف كربلا والهاء هلاك العترة، والياء يزيد، والعين عطش الحسين، والصاد صبره، وذكر أنّ زكريّا سأل الله أنّ يعلّمه أسماء أهل البيت الخمسة الطيبين، فعلّمه إياهم، فكان إذا ذكر الحسين يستعبر فأنبأه عن قصّته بما مرّ من ذكره من تفسير ﴿**كهيعص**﴾[1]. مع أنّ رأي أهل البيت عليهم السلام في الحروف المقطّعة في أوائل السور معروف، وهي أنّ قريشاً لمّا كذّبوا القرآن وقالوا إنّه من محمّد صلى الله عليه وآله، أراد الله تعالى أن يبيّن لهم بأنَّ القرآن مؤلّف من نفس حروف الهجاء التي تتكوّن منها لغتكم، ومحمّد صلى الله عليه وآله بشر وأنتم بشر، فهاتوا مثل هذا القرآن إذا كان من بشر مثلكم ومن نفس حروف لغتكم. وهذا الرأي مرويّ عن الإمام العسكري في تفسيره.

ويذهب فريق آخر من المفسّرين إلى أنّ هذه الحروف هي أرقام في صورة الحروف، أو بتعبير آخر هي مدّة بقاء هذه الأُمّة في الحروف الأبجدية، ولذلك يقول مقاتل ابن سليمان: حسبنا هذه الحروف التي في أوائل السور بإسقاط المكرّر فبلغت سبعمائة وأربعاً وأربعين سنة، وهي بقية مدة هذه الأُمّة[2].

والأمة باقية بحمد الله تعالى بعد ذلك التحديد الذي حدّده مقاتل.

---

١ ـ انظر تفسير مقتنيات الدرر للحائري ٧: ٢، طبع طهران ١٣٣٨.

٢ ـ انظر مجمع البيان ١: ٣٣.

وهذه الأقوال لو صحّت روايتها عن معصوم لأمكن التعبّد بها إذا لم نجد لها وجهاً، ولكنّها والحالة هذه ترسل إرسالاً أو يرويها مجاهيل، فلا يمكن الركون إليها؛ لأنّه تفسير للألفاظ بما لا تدل عليه حقيقة أو مجازاً، وهو يفضي إلى فتح باب لا يغلق من التحكّم. ولماذا لا يكون الكاف كلام، الهاء هراء، الياء يروي، العين عي، الصاد صفصطائي... وهكذا؟!

أفيرضى إنسان مسلم أن تفتح أمثال هذه الأبواب على دستوره الذي يرتبط به دنياً وديناً وينهل منه المعارف، ويعتقد فيه أنّه أقدس رسالة هبطت من السماء؟ أجل، يجب أن يصان كتاب الله تعالى عن مثل هذا العبث. وأعتقد أنّه قد اتّضح فيما قدّمت من نماذج ما أسميته بالتفسير غير القرآني على أنّه القرآن، أو قل بتفسير ما في نفس المفسّر بزعم أنّه تفسير للقرآن.

والمتتبع للتفاسير يجد أنّ هذا اللون من التفسير شائع في كثير من سور القرآن الكريم وفي مجالات مختلفة.

القسم الثاني: الزائد على القرآن الذي يحمل على القرآن.

ونظّرت له بثلاثة أقسام:

الأول: إقحام بعض المدلولات العلميّة في الفيزياء والكيمياء والطبيعيات والأحياء أو غيرها من الفروع العلمية، وذلك بادّعاء أنّها داخلة في مضامين بعض الآيات. ومن ذلك:

١ ـ ما ذهب إليه حفني أحمد في تفسيره للآية السادسة والأربعين من سورة الأحزاب وهي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيراً**﴾[1]، فذهب إلى أنّ هذه الآية تدلّ

١ ـ سورة الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦.

على أنّ القرآن من الله تعالى وليس من محمّد ﷺ كما تقول قريش وغيرهم، وذلك بتقريب أنّنا تتّبعنا استعمالات القرآن الكريم للضوء والنور فرأيناه يستعمل لفظ الضوء لما يصدر عنه الضوء من ذاته كالشمس، ويستعمل لفظ النور لما ينعكس عليه الضياء كالقمر، فالقمر له نور لا ضوء، والشمس لها ضوء لا نور، وبناء على ذلك فالقرآن عندما يقول للنبي ﷺ بأنّا جعلناك سراجاً منيراً يعني أنّ رسالتك ليست من عندك، بل هي من الله تعالى؛ لأنّ صفة منير تعني أنّك تكتسب النور من غيرك، هذا ما ذكره وقد ذكرته بالمعنى[1].

مع أنّ المفسّرين في تفسيرهم لهذه الآية الكريمة يذهبون إلى أنّه تعالى أراد تشبيه نور النبي ﷺ ونور رسالته المعنوي بالنور الحسي في السراج، وجهة الشبه أنّ نور الرسالة يكشف ظلمات الجهل كما يكشف نور السراج الظلام الحسّي، وبعد ذلك فالآية غير ناظرة إلى كون الرسالة من النبي ﷺ أو من الله تعالى، مع أنّه قد يكون ما ذكره حفني من استعمالات القرآن للضوء وللنور صحيحاً في الجملة، ولكن النتيجة التي انتهى إليها حفني غير واردة، إما لأنّ الآية قد تكون ليست في صدد بيان هذا المعنى كما ذكر المفسّرون، أو لأنّ ما ذكره لا يطّرد دائماً، وذلك أنّا رأينا القرآن الكريم يقول واصفاً رسالة موسى وهارون في الآية الثامنة والأربعين من سورة الأنبياء وهي قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ**﴾، فجعل رسالتهما شبيهة بالضوء الذي يصدر من ذات الجسم كما يقول حفني مع أنّ رسالتهما أو كتابهما ليس منهما بل من الله تعالى. فينبغي على قوله أن يرد الإشكال لمكان جهة الشبه بين المشبّه به والمشبّه،

١ ـ انظر التفسير العلمي للآيات الكونية بالقرآن لحفني أحمد: ١٤٨.

وهي صدور الضوء من الذات. وبالعكس فقد رأينا القرآن يستعمل النور فيما يصدر عن الذات، كما في قوله تعالى في الآية السابعة عشرة من سورة المائدة واصفاً وحيه إلى أنبيائه ﴿**قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّه نُورٌ**﴾[١]، والمراد به القرآن، والآية صريحة في أنّه صادر من الله تعالى، مع أنّ حفني افترض أنّ القرآن يستعمل لفظ النور فيما ينعكس لا فيما يصدر عن الذات.

٢ ـ ومن ذلك ما فسّر به بعضهم قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿**وَالْمُرْسَلات عُرْفاً ۞ فَالْعَاصِفَات عَصْفاً ۞ وَالنَّاشِرَات نَشْراً ۞ فَالْفَارِقَات فَرْقاً ۞ فَالْمُلْقِيَات ذِكْراً ۞ عُذْراً أو نُذْراً ۞ إِنَّما تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ**﴾[٢].

فقال: هذا وصف علميّ دقيق للطائرات الحربيّة الحديثة بمختلف حركاتها وبجميع أفعالها، فهي تعصف بقنابلها كالحميم، وتترك الناس كالعصف المأكول، وفي أثناء قيامها بذلك تنشر المنشورات وتلقيها على الجنود وعلى غيرهم في ميادين الحرب وعلى الأهالي والسكّان والمدنيّين للإخبار بما تريده الدولة المحاربة، وتمزّق بصولتها الجبّارة بين الكتائب والفصائل والتجمّعات مزقا، حيث إنّه لا يستقرّ تحتها ولا يثبت أيّ جمع، بل لمجرّد رؤيتها يتفرّق الناس ويختفون في الكهوف والملاجئ والمخابئ، «فالملقيات ذكرا» يعني ما تذكره وما تقصد منشوراتها وما تريد ذكره، «عذراً أو نذراً» تعتذر عن إلقاء الدماء والتخريب على الأماكن البريئة كالمساجد والمستشفيات والأطفال...[٣].

١ ـ سورة المائدة: ١٥.

٢ ـ سورة المرسلات: ١ ـ ٧.

٣ ـ انظر الجانب العلمي في القرآن للدكتور صلاح الدين الخطاب: ١٧.

٣ ـ ومن ذلك ما ذهب إليه الشيخ طنطاوي جوهري عند تفسير قوله تعالى في آخر آية من سورة ص: ﴿**ولتعلمنّ نبأه بعد حين**﴾[١].

فقد قال: وهذه الآية شرحها طويل، فمن نبأ القرآن هذه الأُمّة الإسلامية المترامية الأكناف التي تبلغ الآن ـ في أيّامه طبعاً ـ نحو ٣٥٠ ميليوناً من المسلمين أفليس هذا من أعظم أنبائها، ومن نبأ القرآن العلوم التي اكتشفها الناس حديثاً، وكيف جاء علم الأرواح الحديث مطابقاً لهذا القرآن، وأنّ هذه الأرواح بعد الموت أحياء وأن من الأرواح من هم مغرمون بالمادّة والحياة والصيت والذكر في هذه الدنيا، وهؤلاء يتباعدون عن المادّة ويقتربون من ربهم. إلى أنّ قال: أفلا ترى أنّ هذه الأُمور المذكورة في هذه السورة قد أصبحت تقال في المجامع النفسية علنا؟ وهذا هو نفس القرآن، وبعبارة أُخرى هو ما في هذه السورة، من كان يظن أنّ نبأ بقاء الأرواح بعد الموت وحالتها يظهر في الدنيا قبل يوم القيامة؟![٢].

الثاني: ومن الزائد على القرآن ما أسميته بالتوسع فيما له منشأ انتزاع مع عدم وجود مبرر لذلك التوسع؛ لأنه يصطدم بروح الشريعة وخطوطها العامة، وبما هو من ضروریاتها أحياناً.

وإنّما يتمسك به البعض لوجود موهم من اللفظ أو المعنى، ولأنّه يوافق غرضاً للمفسّر فيتمسك بذلك. ونحن نعرف بالضرورة من استقراء أحكام الإسلام ذات العلاقة بالجوانب المختلفة أنه يمنع الاستغلال منعاً باتاً ويشنُّ عليه حرباً لا هوادة فيها، وأقصد هنا بالاستغلال معناه التعيني، أي الاستثمار بدون مبرّر شرعي.

---

١ ـ سورة ص: ٨٨.

٢ ـ انظر تفسير الجواهر للطنطاوي ١٨: ٨٥.

ومع وضوح هذا المعنى في الأحكام الإسلامية نجد بعضهم يميل إلى شبه تؤدي إلى أنّ الإسلام يجيز الاستغلال، كالموارد الآتية:

١ ـ ما ذهب إليه بعض مفكري المسلمين في موضوع حرمة الربا، فأرادوا حلا وسطا بين تعطيل المعاملات وإيقاف الحركة التجارية، وبين صراحة حرمة الربا. فالتمسوا دليلاً في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[١].

فقالوا: إنّ القرآن لم يحرّم من الربا إلاّ ما كان أضعافاً مضاعفة، أي إلاّ ما يصل إلى مثل رأس المال أو يزيد عليه. مع أنّ استنتاجهم من الآية لا يمكن أن يستقيم وما قال أحد به؛ ذلك أنّ أضعافاً وصف للربا لا لرأس المال، وإذا كان كذلك فينبغي أن لا يحرم من الربا إلاّ ما يبلغ ستمائة بالمائة ٦٠٠٪ وذلك لأنّ كلمة أضعاف جمع، والضعف يكون بقدر الأصل مرّتين، ومرّتين في ثلاثة يساوي ستة، ولا قائل بذلك قط[٢].

وبتعبير علميّ نقول: إنّ هؤلاء استدلّوا بمفهوم الوصف، إذ اعتبروا أنّ الوصف ـ وهو «أضعافاً» ـ قيد للحكم وهو المنع، بينما هو قيد للموضوع وهو الربا، وبناء على ذلك فلا مفهوم للوصف. وحتى لو سلّمنا بوجود مفهوم للوصف فهو إنّما يكون إذا لم توجد قرينة على خلافه، والقرينة هنا موجودة، وهي أنّه أُورد مورد الغالب، أي أنّ الربا ليس دائماً يكون أضعافا مضاعفة، ولذلك ذهب الطبرسي في مجمع البيان، حيث اعتبر الوجه هو تضاعف الزيادة بالتأجيل أجلاً بعد أجل[٣].

---

١ ـ سورة آل عمران: ١٣٠.

٢ ـ انظر الربا في القانون الإسلامي للدكتور محمّد عبدالله دراز، مجلة الإسلام السنة ١٣، ص ٦٨ ـ ٧٣.

٣ ـ انظر مجمع البيان ١: ٥٠٢.

٢ ـ ما ذهب إليه بعضهم في تفسير الآية الرابعة من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿**فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾، حيث ذهب إلى جواز أن يتزوّج الإنسان تسع نساء؛ لأنّ القرآن على قوله قد أجاز ذلك بعطف هذه الأعداد بعضها على بعض بالواو، بالمثنى والثلاث والرباع، ومجموعها تسعة[١].

مع أنّ القرآن الكريم لو أراد ذلك لعبّر بالرقم الموضوع لهذا العدد وهو التسعة، ولكنه تعالى أراد: انكحوا الطيبات معدودات هذا العدد اثنين اثنين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، وذلك أنّه خاطب الجميع كما تقول للجمع اقتسموا هذه الأموال بينكم درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة للدلالة على جواز كلّ هذه الوجوه. وإنّما لم يعطف بـ «أو» لأنّه حينئذٍ لا يفيد جواز الاقتسام إلاّ على أحد هذه الوجوه.

الثالث: ومن أقسام الزائد على القرآن هو ما أسميته بترجمة ألفاظ القرآن بمضامين غريبة وليست مما يستهدفه ظاهر القرآن، ولا ممّا يفهمه العرب وليس فيه نص أو رواية، إنّما هو مجرد انقداح معنى أو ومضة في ذهن المفسّر تصوّر أنّها تتصل بالآية، فبنى تفسيره على هذا التصور.

ومن ذلك ما فسّر به بعضهم الآية الثامنة والسبعين من سورة بني إسرائيل وهي قوله تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلاَةَ لدُلُوكِ الشَّمْسِ إلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً**﴾ حيث فسّر ذلك بأنّه يجب نصب الإمام عند زوال شمس النبوّة[٢].

---

١ ـ انظر مجمع البيان ٢: ٦.

٢ ـ مجلة المرشد للشهرستاني، السنة الثالثة، ص ١١٦.

وقد اتّضح فيما مرّ من النماذج التي قدمتها في القسم الثاني الذي أسميته الزائد على القرآن كيف أنَّها ليست من طبيعة القرآن وغريبة عن مادته وأسلوبه. وقد تقول: إنّ هذا القسم لا يختلف عن سابقه في كونه ليس من القرآن، فلماذا هذا التقسيم إلى غير القرآن؟ كما أسميت القسم الأول، والى الزائد على القرآن؟ كما أسميت القسم الثاني.

وللإجابة على ذلك أقول: إنّي لم أُرد أنّ أجعل من كلّ من العنوانين حدّاً جامعاً مانعاً، وإنّما أردت من كلّ عنوان منهما النظر إلى ناحية في المعنون، فالأول كان المفسّر فيه يفترض مسبقاً معنى من المعاني ويجرّ الآية، وإن كان في الآية محطّ قدم له، ولكن الملحوظ أنّه يفسر ما في ذهنه ويحمل الآية على ذلك، أمّا القسم الثاني فبالعكس، حيث يتبع منشأ الانتزاع في الآية ولكنّه يتوسّع فيه بما لا مبرر معه.

القسم الثالث: التفسير الناقص عن استيعاب محتويات القرآن الكريم وعن استيعاب خواصّه.

وقد قسّمته إلى ثلاث شعب:

الشعبة الأولى: ما يغفل عنصر الأبدية في القرآن الكريم، ومعنى ذلك أنّنا نرى بعض المفسّرين إذا فسّر آية وذكر لها وجهاً أو وجوهاً يترك الباب مفتوحاً ولا يوصده، فيقول: الله أعلم بمراده، ولا يبتّ فيما ذهب إليه، وهذا في بعض الآيات ممّا لا يصل إلى حدّ المحكم أو النص أو ما يقرب منهما في الظهور. وهذا هو الذي أردته عندما صدّرت لهذا القسم بالمقدّمة فقلت: إنّ مرونة القرآن الكريم واحتمال آياته لكثير من المعاني أو صلاحيّته للتطور ـ على حد تعبير بعضهم ـ المراد منه أنّ ذلك على نحو الإيجاب الجزئي، ولبعض الآيات التي

يكون فيها الموضوع متطوّراً كما سنمثّل له قريباً. أمّا الآيات الصريحة والقاطعة الدلالة فلا سبيل إلى وصفها بغير ذلك.

والحقيقة أنّ هذا المعنى من الأُمور المهمّة في القرآن الكريم والتي تستأهل أن يكتب فيها الكثير ولكن لا بأس من الإشارة إليها بما يتّسع له البحث فنقول: إنّ القرآن أوّلاً وقبل كل شيء هو كتاب تربية وتقويم؛ لأنّ الله تعالى رب العالمين المربيّ لهم والمقوّم، ووسيلته الأُولى في التربية التعاليم المنزلة، وأهمّها القرآن الكريم.

فهو يربّي ويسعد وينظّم العلائق لتؤهّل الفرد والمجتمع للسعادة في الدارين، وهو هدف واضح في كلّ الأحكام التي هي روح القرآن. ومن هنا يحمل المفسّرون كلّ إطلاق يوهم خلاف هذا على هذا المقيّد. يتساءل الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾[1] كيف يكون كذلك مع أنّه ليس فيه تفاصيل علم الطب والحساب والهندسة و...؟ ثم يجيب على هذا التساؤل قائلاً: إنّ من آيات القرآن دالّة بإحدى الدلالات الثلاث على أنّ القرآن المراد منه معرفة أُمور الدين ومعرفة الله تعالى وأحكامه، فإذا كان هذا التقييد معلوماً لكلّ المسلمين فيجب أن يحمل ذلك الإطلاق على هذا التقييد[2].

وحيث كان القرآن الكريم كتاب تربية بالدرجة، الأُولى فالتربية بكلّ أقسامها ـ الروحية والبدنية والاجتماعية وغيرها ـ تعتمد على نوعين من الحقائق: ثابت ومتطور. فمثلاً انّ وحدانية الله تعالى من الحقائق الثابتة في الكتاب الصريحة،

١ ـ سورة الأنعام: ٣٨.

٢ ـ تفسير الرازي ١٢: ٢١٥.

يقول تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾[١]، وصراحتها هنا في الضمان لعدم انشطار الشخصية من تعدد الآلهة وما يترتّب عليه من تهافت، ومن الوسائل التي تحقّق تربية نفسية وجسديّة صوم شهر في السنة، وقد جاء به القرآن هكذا لأنّه موضوع بإزاء حقيقة ثابتة، وهي الإنسانية بخصائصها الجسدية والروحية، فالجسد هو الجسد مهما تطوّرت الدنيا ونوازعه نوازعه مهما لبست من أثواب، لذلك كان العلاج ثابتاً وهو ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾[٢]، في حين هناك وسائل للتربية في حقول أُخرى تقتضي التطوّر، فوضع الحكم المتطوّر بإزائها. ومن ذلك قوله تعالى في الآية: ﴿**وإذا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ**﴾[٣]. فإنّ الحكم بالعدل من أفعل الوسائل في التربية، ولكن لما كان مفهوم العدل متطوّراً؛ لأنّه وضع الشيء في موضعه، وضعه الله عزّ وجلّ علاجاً لكثير من المشاكل التي تحتاج إلى مرونة وقابلية للتكيّف مع جوّ المشكلة، وليس لذلك إلاّ العدل، هذا المفهوم المتطوّر.

وأعود من بعد هذا الاستطراد إلى صلب البحث حيث قلت: إنّ بعض المفسّرين يترك الباب مفتوحاً لمعنى آخر محتمل في الآية، والبعض الآخر يوصد الباب ويذكر للآية وجهاً لا يتعدّاه إلى غيره، وذلك فيما اعتقد لأمرين:

الأول: غفلته من كون القرآن زاد الإنسانية، فلكلّ جيل منه حظّ ولكلّ زمن نصيب. **والثاني**: قصور العلم في قوته عن إلقاء الضوء على المفهوم القرآني، ومثال ذلك:

---

١ ـ الآية الأولى من سورة الإخلاص.

٢ ـ سورة البقرة: ١٨٥.

٣ ـ سورة النساء: ٥٧.

ما ذكره بعض المفسّرين عند قوله تعالى في الآية الثامنة والثلاثين من سورة الأنعام: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم**﴾[١] حيث قصر المماثلة على ما يأتي فقال: ﴿**أمم أمثالكم**﴾ طوائف مختلفة أمثالكم في الخلق والموت والحاجة إلينا في الرزق والتدبير في جميع أُمورها والدلالة على كمال القدرة وبديع الصنعة في تسخيرها وتصريفها بقدرتنا[٢]، هذا كل ما ذكره في المماثلة.

ويقول آخر عن هذه المماثلة ما يلي: أُمم أمثالكم مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها، كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم[٣].

وإذا كان الزمخشري يقتصر من المماثلة على كتابة الأرزاق والآجال والأعمال فقد يعذر لخلوّ عصره عن كثير من المعارف التي جدّت في دنيا الحيوان بكل صنوفه، ولكن مثل الشيخ حسنين لا يعذر؛ لأنّه في عصر كثرت فيه هذه العلوم وفي بلد سبق البلدان العربية الإسلامية الأُخرى إلى العلوم الحديثة، ونراه مع ذلك يقصر المماثلة على أُمور لا يختص بها الحيوان، بل تعمّ النبات كذلك، وقد تعم ما نسميه بالجماد بنحو من الأنحاء؛ لأنّه بذلك يغفل عن الجانب المشرق من جوانب الآية الكريمة وكلّ جوانب الآيات مشرقة، وذلك الجانب هو المماثلة من حيث كثير من أنماط السلوك المشتركة، ومن حيث حاجة كثير منها إلى الرعاية والحنان، ومن حيث تحمّلها للمسؤولية أحياناً، كما هو مفاد حشرها يوم القيامة و... إلى غير ذلك من وجوه المماثلة التي كشف عنها العلم والتي سينكشف منها الكثير أيضاً.

---

١ ـ سورة الأنعام: ٣٨.

٢ ـ انظر صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ حسنين محمّد مخلوف ١: ٢٢٢.

٣ ـ انظر الكشّاف للزمخشري ٢: ٢١.

ومن ذلك أيضاً ما ذهب إليه بعض المفسّرين في تفسير الآية الثانية والثلاثين من سورة الحج وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾[١].

حيث قال: أي ذكر القلوب؛ لأنّها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في غير الأعضاء[٢].

وهذا الجزم بأنّ القلب مركز التقوى يثير السخريّة في نفوس الساخرين ممّن عرف بالبراهين والتشريح أنّ القلب ليس إلاّ مضخّة للدم وأنّ مركز كل الفعاليّات الذهنيّة هو المخ. إنّ القرآن الكريم إنّما يعبّر بالقلب عن العقل؛ لأنّه يخاطب العرب بلغتهم وهم يعبّرون عن العقل بالقلب، فإنّ شاعرهم زهير يقول:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلاّ صورة اللحم والدم

وقد يعذر الزمخشري لما أسلفنا من خلوّ عصره من المعلومات، ولكن لماذا يذهب المتأخّرون إلى نفس المفارقة؟! وعلى كلّ حال أرأيت هذا الجزم والحصر من الزمخشري بقوله: إنّما ذكر القلوب؛ لأنّها مراكز التقوى، ولم يترك مجالاً لأيّ احتمال آخر قد يكون ذكر القلب لأجله.

ونظائر ذلك كثير عند المفسّرين حتى المتأخرين منهم الذين يعيشون وثبات التكنولوجيا وقفزاتها الجبّارة، وهم مع ذلك قد يُقصرون في تفاسيرهم القرآن على حضارة عصرهم غير ملتفتين إلى أنّه معدّ لكلّ الأجيال، فلا بدّ أن يأخذ كلُّ جيل منه جديداً أو يكون أخذه حسب استعداده، قال تعالى: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾[٣].

---

١ ـ انظر الكشّاف، تفسير الآية.

٢ ـ الحج: ٣٢.

٣ ـ سورة الرعد: ١٧.

الشعبة الثانية: ما أسميته إغفال ما يتصورّه بعض المفسّرين بأنّه ليس محلّ ابتلاء بذلك، فإنّ بعض الباحثين في القرآن درجوا على أن يبحثوا منه ما هو محلّ حاجةٍ في عصرهم، ومن الملاحظ الآن أنّ الفقهاء عندما يبحثون مواضيع الفقه لا يبحثون بعض المواضيع التي هي ليست محل حاجة فعليّة بغضّ النظر عمّا إذا كانت محلّ حاجة مطلقاً. والحقيقة أنّ بعض المواضيع التي لم تبحث تركت ثغرة بارزة وتساؤلاً على شفاه الكثيرين من المعنيين بشؤون الإسلام، فهم يعلمون ـ مثلاً ـ أنّ الإسلام ـ فضلاً عن الجانب النظري ـ قد حكم فعلاً وكانت له تجربة فريدة في الحكم، وقد دلّت التجربة ذاتها على كونها في منتهى النضوج والتكامل، فلماذا لم تدوّن الخطوط العامة لنظريته في الحكم والأُسس التي تمتدّ إليها النظرية؟ ولماذا أهمل المفسّرون وهم على تماس مباشر للقرآن وليس بينهم وبين النظرية من واسطة إلاّ القرآن ؟ بخلاف الفقهاء إذ أنّهم يتّصلون بمصادر التشريع الأُخرى في استدلالهم على نظريّة الحكم ولم يجلوها تجلية كاملة سوى إشارات لم تتصل حلقاتها ولم تملأ الفُرج بينها ولم تصل إلى مستوى النظرية الكاملة.

وبتعبير آخر: إن نوع نظام الحكم في الإسلام لم يجلّ تجلية كاملة فيصل إلى صيغة مقبولة من كل الأطراف.

ولهذا نجد أنَّ هذه المسألة بالذات لم تلتمس أُصولها بنحو كامل من القرآن، بل حاول البعض أن يجد مصادرها في السنّة وفي حكم العقل، مع أنَّ مسألة كهذه ليست بهذه الدرجة من البساطة حتى يُهملها القرآن، وهي من أكبر أهدافه إن لم تكن أكبرها من بعد مباحث الوجود والتوحيد؛ لأنّ النبوة والإمامة صنوان وملاكهما واحد.

والنظرية بعد ذلك توجد مقوّماتها كاملة ـ وإن أُجملت ـ في القرآن، ولكن لم تتوفر العناية الكاملة على بلورتها وشرحها.

ولعلّ ذلك من الأسباب التي أدّت إلى هذا الاختلاف في نوع نظام الحكم عند مفكّري المسلمين. فالشيعة مثلاً يذهبون إلى أنّ الإمامة لا تكون إلاّ بالنص والجعل من الله، ولهم أدلّتهم على ذلك، وبأنّ الإمام منصوص عليه ومعصوم ومسلّح بالمعجزة وأفضل أهل زمانه. وقد استدلوا لذلك بالنقل من القرآن الكريم[١]، وبالعقل والأخبار[٢].

وقد نقل عنهم رأيهم في ذلك ابن خلدون في مقدّمته حيث قال: «إنّ الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوّض إلى نظر الأُمة ويعيّن القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبي ﷺ إغفاله ولا تفويضه إلى الأُمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وأنّ علياً عليه السلام هو الذي عيّنه رسول الله ﷺ، فالإمام عندهم امتداد طبيعي للنبيّ، فشكل الحكم بالنسبة لنظريّتهم هو الإمام المعيّن من الله تعالى الذي يحكم في حدود ما رسم له الكتاب والسنة، فسمّه إن شئت ثيوقراطياً أو غير ذلك. هذا في حال وجود الإمام، وفي حالة الغيبة يذهبون إلى حكم الحاكم الفقيه العادل القائم على ضوء الكتاب والسنة، أما السنة فإنّ نظريّتهم في ذلك مرّت بأشكال وانتهت بعد ذلك إلى حكم الشورى بشكل ليس بواضح تماماً، فإن الشورى المذكورة تتأرجح بين نسب مختلفة في تعيين العدد الذي يمارس عملية الشورى

١ ـ انظر تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، البقرة: ١٢٤، في مجمع البيان ١: ٢٠١ وانظر نفس المصدر ١: ٣٥٢، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ البقرة: ٢٤٧.

٢ ـ انظر علم اليقين ملا محسن الفيض الكاشاني، ج ١، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٨؛ وأصول الكافي، باب الحجة.

ونوعيّتهم، ولكن يمكن القول اجمالاً بأنّ نظريّتهم هي نظريّة الشورى»[١].

وقد استندوا في ذلك إلى الآية الكريمة الثامنة والثلاثين من سورة الشورى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾، مع أنّ المفسّرين يذكرون أنّ هذه الآية جاءت في معرض الخبر عن صفة من صفات الأنصار مدحهم الله تعالى بها بحيث لا يستبدّ الفرد منهم برأيه في المشاكل، بل يستشير غيره، ولا يرون لها صلة بنوع الحكم[٢]، ولا يرونها ناظرة لذلك من قريب أو بعيد[٣].

في حين يذهب جماعة آخرون من الكتّاب السنّة إلى أنّ الإسلام ليس له نظرية في أيّ شكل من أشكال الحكم، ومن هؤلاء الدكتور طه حسين في كتابه «الفتنة الكبرى»، والشيخ علي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم».

وهناك نظريّات أُخرى لست بصدد استقرائها، وإنّما كان الهدف من المرور بهذه الآراء الإشارة إلى أنّ عدم تجلية المفسّرين لهذه النظرية قد ساعد مع عوامل أُخرى في عدم وضوح شكل الحكم في الإسلام، وهذه النقطة ممّا يجب أن يتوفر عليها الاختصاصيون للانتهاء فيها إلى رأي معيّن ضمن نطاق النصوص في ذلك.

ومن هذا القسم موضوع الاقتصاد الإسلامي الذي لم يجمع شتاته ولم تحص نظرياته بشكل كامل حتى من المتأخرين الذين كتبوا في التفسير والفقه، اللّهم إلاّ محاولات لم تتكامل عند الكتّاب والمفكّرين المسلمين في مختلف بقاع

١ ـ انظر التفسير والمفسّرون لمحمّد حسن الذهبي ٢: ٤، والنظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح، ص ٢٤٩.

٢ ـ انظر الكشاف للزمخشري ٢: ٢٩٩؛ مجمع البيان ٥: ٣٣، وصفوة البيان لمعاني القرآن ٢: ٢٩١.

٣ ـ تقريب الاستدلال بآية الشورى هو بما أن النبي لم ينص على أحد وبما أن القرآن مدح المسلمين بأنّهم يتشاورون في الأُمور، والخلافة من الأُمور الهامة فهي تعيّن عن طريق الشورى.

الدنيا، خصوصاً في النصف الثاني من القرن العشرين حيث كتبت في ذلك بحوث في أجزاءٍ من الاقتصاد الإسلامي كلٌّ على حده، والبعض منهم ضغطها بذكر مثال لكل فرع من فروع الاقتصاد مع لفت النظر للخطوط العامة، وأخصّ منهم الأُستاذ محمود اللبابيدي في السنة الثالثة من مجلة رسالة الإسلام. وتوّجت هذه المحاولات بتأليف كتاب «اقتصادنا»[١]. ومن هذا القسم أيضاً موضوع الرقّ في الإسلام، فإنّه بالرغم ممّا كتب فيه بشكل مجزّأ لا يزال يحتاج إلى إشباع وبحث شامل لوجهة نظر الإسلام إلى الرقيق ومعالجة تحريرهم.

وهذه النماذج الثلاثة التي ذكرتها قد يقول قائل: إنّها كتب فيها الكثير، وأنا لا أنكر ذلك وإنّما أقول: إنّ كثيراً ممّن عالجها ليس من ذوي التخصص في ذلك. هذا من ناحية ومن ناحية أُخرى أنّها عولجت خارج نطاق التفسير والذي نحن بصدده أن يكون مكان هذه المعالجات في كتب التفسير ومن ذوي الاختصاص وبشكل مشبع تتضح معه جوانب النظرية. فأنت تعلم أنّ الذي يقرأ قوله تعالى: **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾**[٢].

ثم يقرأ تفسيرها بأنّ الإنسان يجوز له أن يطأ بملك اليمين ما يشاء، تتضخم عنده المشكلة المزدوجة من جواز أن يسترقّ الإنسان أخاه الإنسان، ومن إهدار الكرامة البشرية وتشجيع ضراوة الجنس بإباحة هذا العدد.

أمّا لو عالج التفسير المشكلة بأنّها لون من ألوان تحرير العبيد وطريقة مهمّة

١ ـ للمفكر الإسلامي الشهير آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر(قدس سره).
٢ ـ سورة النساء: ٣.

في ذلك، وهي استغلال الغريزة لتعتق الأم والولد، ومدى صلة ذلك بنظرية الإسلام في المعالجة الهادئة، لكان ذلك مهمّاً في إزالة الشبه المتولدة عند قارئ القرآن الذي لم يدر في أي كتاب خارجي يبحث عن حلّ المشكلة، ولعلّه لا يدري أنّها بُحثت في مكان آخر.

الشعبة الثالثة: ما أسميته في المقدّمة بما يُهمل بدعوى أنّه ممّا استأثر الله بعلمه. وهذا القسم يقع الكلام فيه من جهتين:

أوّلاً: وجوده في القرآن. وقد ذهب جماعة إلى وجوده في القرآن الكريم وقالوا: هو ما عبّر عنه بالمتشابه، ومثّلوا له بالروح في قوله تعالى: ﴿**فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا**﴾[1]، ومثّلوا له بالساعة وبالحروف المقطّعة في أوائل السور. وقد ذهب لذلك الأحناف وبعض المفسّرين من غيرهم، وخالفهم في ذلك جمهور المسلمين من الشيعة والشافعية وغيرهم كما سيمرّ علينا.

وقد استدلوا لذلك بقوله تعالى في الآية السابقة من آل عمران: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾[2].

ووجه استدلالهم بالآية الكريمة هو أنّهم يقفون على لفظ الجلالة في المقطع الآتي من الآية ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ**﴾ ويعتبرون الواو استئنافيّة في قوله تعالى:

١ ـ سورة الأنبياء: ٩١.

٢ ـ سورة آل عمران: ٦ ـ ٧.

﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾، بينما يخالفهم الجمهور فيقفون على كلمة العلم ويعتبرون الواو عاطفة. وأكتفي بنموذج واحد من الذاهبين لهذا الرأي وأشير إلى من يشاركهم فيه.

فمن مفسّري الشيعة ذهب لذلك الطبرسي في مجمع البيان، فاعتبر الوقوف على كلمة العلم والواو عاطفة، وفسّر المحكم بالذي لا يحتمل إلاّ وجهاً من التأويل، والمتشابه الذي يحتمل أكثر من وجه، وقال: ولذلك كان الصحابة لا يتوقّفون في تفسير شيء من آي القرآن، وكان عبد الله بن عباس إذا قرأ هذه الآية يقول: «أنا من الراسخين في العلم»، وكان الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام يقول: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم، قد علم جميع ما أنزل الله عليه من التأويل والتنزيل، وما كان الله تعالى لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وهو وأوصياؤه من بعد يعلمونه كلّه»[١].

وقد فسّر الشافعية المحكم والمتشابه بهذا المعنى أيضاً، كما حكاه عنهم الشيخ حسين محمّد مخلوف في تفسيره، كما ذهبوا إلى أنَّ المتشابه يتّضح معناه بالنظر الدقيق، وهو يشمل المجمل ونحوه. وعلى هذا فالراسخون عندهم معطوفون على لفظ الجلالة، وقد مال لذلك هو أيضاً[٢].

كما ذكر نفس المضمون السابق المراغي في تفسيره[٣] ولم يمل إلى ترجيح قول على قول كما هو ظاهر بحثه.

أمّا الفخر الرازي فقد قال في تقسيمه للمحكم والمتشابه بما مؤدّاه: أنّ اللفظ

١ ـ انظر: مجمع البيان ١: ٤٠٩.
٢ ـ انظر: صفوة البيان لمعاني القرآن ١: ٩٦.
٣ ـ انظر: تفسير المراغي ٣: ٩٧.

الموضوع لمعنى إمّا أن يحتمل غير ذلك المعنى أولا، فإذا لم يحتمل إلاّ معنى واحداً فهو النص، وإن احتمل معنيين، فإمّا أن يكون احتماله لأحدهما راجحاً على احتماله للآخر أو لا، والراجح هو الظاهر، والمرجوح هو المؤوّل، وامّا إذا احتملهما على السواء كان اللفظ بالنسبة لهما مشتركاً، وبالنسبة لكل واحد منهما مجملاً، فاللفظ يكون إمّا نصّاً أو ظاهراً أو مؤولاً أو مشتركاً أو مهملاً، والمحكم هو النص والظاهر، والمجمل والمؤول هو المتشابه. هذا حاصل كلامه.

وهو يميل إلى أنّ المجمل ممّا استأثر الله بعلمه لأنّه يرجّح الوقوف على لفظ الجلالة[1].

ثانياً: بعد أن ظهر أنّ هذا الرأي موجود بالنسبة إلى بعض آ ي القرآن الكريم، يرد التساؤل: لماذا وضع المتشابه في القرآن الكريم إذا كان ممّا يستأثر الله تعالى بعلمه، وبناء على هذا ألا يستوي وضعه وعدم وضعه ؟ فما جدوى سطر حروف لا يفهمها الناس وإنّما يتلونها مجرد تلاوة ؟!

أمّا القائلون بأنّ المتشابة يعلمه العلماء ـ وهم الفرقة الثانية الذين يقفون على كلمة العلم ـ فالحكمة عندهم واضحة وملخّصها أُمور، منها: أن يشتغل أهل النظر والفقه برد المتشابه إلى المحكم، فتشحذ قرائحهم ويطول نظرهم ويتّصل فكرهم بالبحث عن معاني فيثابون على اجتهادهم ويتميّز العالم من غيره، ولو كان كله محكماً لا ستوى في معرفته العالم والجاهل ولماتت الخواطر وجمدت القرائح، إلى غير ذلك مما يذكر فالطائفة الثانية هذه حججها.

وأمّا الطائفة الأُولى فحجّتهم الوحيدة هي أنّ الله تعالى أراد أن يتعبّد العباد

١ ـ انظر تفسير الرازي ٢: ٣٩٥، ط مصر الحسينية ١٣٢٧.

بذلك[١]. وواضح أنّ هذا الرأي قائم على أنّ المتشابه هو ممّا استأثر الله تعالى بعلمه، وهو يعني ما لا سبيل للعلماء إلى معرفته.

والحقيقة أنَّ حجة الطائفة الأولى الذاهبة إلى أنّ المتشابه ممّا استأثر الله تعالى بعلمه غير ناهضة، والموارد التي مثّلوا بها من أول الكلام، كلها غير معلومة، فقد مثّلوا بالصفات، صفات الخالق تعالى وقد حدّدها العلماء واختلفوا فيها. ومن المجموع يعلم كنهها برد المتشابه منها إلى المحكم، وكذلك الحروف المقطّعة في أوائل السور، وكذلك معرفة الساعة وأنّها القيامة وهو المطلوب من فهم الآية، أمّا وقت الساعة فهو ما استأثر الله تعالى بعلمه. ولكنّ وقت الساعة والروح لا يشكّل نوعاً كبيراً يستحق هذا الاهتمام الذي يصل إلى حدّ تصنيف القرآن الكريم إلى ما يفهم وما لا يفهم؛ لأنه تعالى أراد أن لا يفهم ليتعبّد بذلك الناس، وهو بمجموعه لا يتعدّى بضع كلمات حتى لو استقام القول بأنّ هناك في القرآن الكريم قسماً قد تعبّد الله تعالى الناس به بأن استأثر بعلم مضامينه وأنزله مجرّد لفظ ليسطر بالكتاب؛ فإنّ هذه العمليّة فعل، وأفعال الله تعالى كلها موسومة بالعدل والحكمة، منزّهة عن العبث، فينبغي شرح هذا الإجمال الوارد بكلمة التعبّد، وتبيين مزايا التعبد في بعض الحالات والأهداف والآثار التي تترتب على ذلك وبشيء من التفصيل حتى يفهم القارئ أنّ هناك نظائر لهذا في الأمور التكوينية والتدوينية تعبّد الله تعالى بها عباده.

وهذه حلقة من تلك السلسلة، وبذلك تضفى إيجابية على هذا المفهوم تخرجه عن حدّ السلبية التي لا يطمئن إليها الخاطر ولا يكاد يؤمن الإنسان بأنّها مبرر لهذا الغموض المدعى في بعض آي القرآن الكريم الذي جاء معجزة

١ـ انظر المصادر الأربعة التي سبقت هذا المقطع، وهي تفسير الرازي وصفوة البيان وتفسير المراغي والمصحف المفسّر.

يتحدّى به الله تعالى الناس في أن يأتوا بمثله، وواضح أنّ التحدّي يكون بالشكل والمضمون، وهذا المعنى منسحب على كلّ كلمة وحرف في القرآن الكريم، ولا يمكن أن يتحدّى بما لا يفهم معناه، مع وجود أمكنة أُخرى للتعبد هي به أليق.

في المفسِّر

انتهيت فيما سبق في جولة مختصرة بالتفسير إلى ما يشترط في التفسير الموضوعي(١)، وسأعرض هنا بإيجاز شروط المفسّر الموضوعي.

المفسّر في الواقع هو الروح التي تمشي في التفسير، بما لهذه الكلمة من خصائص وآثار، فهو المفسّر الواعي العالم الورع البعيد الآفاق، وهو المفسّر المتعصّب الضيّق الأُفق غير الورع، وهو المفسّر المهتدي بأضواء القرآن، كما هو المفسّر الخابط في ظلام الحقد والعصبية، وهو الغواص الذي يجتني اللؤلؤ، كما هو السطحي الذي يلمّ الصدف، وهكذا.

ومن هنا رأينا أنّ الشروط التي تشترط فيه تكشف عن مدى أهمّيته في حقل هذا الفرع من العلوم، ذلك أنّ حضارة المسلمين من عطاء القرآن وآثاره، ولا يؤتمن على مثل هذا التراث إلّا القويّ الأمين.

وسأعرض الآن لأهمّ ما يشترط في المفسّر، ومنه نرى ماله من مكانة في نظر المعنيين بشؤون التفسير.

١ـ أن يكون متقناً للعلوم التالية: اللغة، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان

١ ـ يراد من الموضوعي هنا الذي يعتمد أسساً علمية وموضوعية في قبال الذي يعتمد التعصّب والشذوذ والهوى وعدم العلمية عموماً، ولا يراد من هذا الاصطلاح ما يقابل التفسير الترتيبي أو التجزيئي.

والبديع ومعرفة القراءات، ومعرفة علم الكلام بما يحتاج إليه من مقدّمات، والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول، وتاريخ قصص القرآن والأحداث الواردة فيه. وهذه هي عين شروط المجتهد زائداً بعض العلوم الأخرى. وهذه العلوم تمكّنه من فهم القرآن الكريم وما فيه من أحكام وإرشاد وقوانين كونيّة على الإجمال وبمستوى المعلومات العامّة، أمّا إذا أراد التعمّق في بعض العلوم والإلمام الكامل بها فلا بدّ أن يكون كذلك ـ بالإضافة إلى ما مرّ ـ من أهل التخصّص بذلك الفرع من فروع المعرفة.

٢ـ وذكروا له شرطاً آخر عبّر عنه بعضهم بعلم الموهبة، والعبارة تحتمل معنيين:

المعنى الأول أن تحصل عنده جرّاء معرفة العلوم السابقة ملكة الاجتهاد في التفسير، فإنّه ليس كل من ألمّ بتلك العلوم تحصل عنده تلك الملكة، كما هو المشاهد عند من درسوا العلوم الإسلامية المخصّصة لطالب الاجتهاد في الشريعة، ممّا يدلّ على أنّها ليست إفرازاً حتميّاً لمن عرف تلك العلوم بل هي هبة أُخرى.

أما المعنى الثاني المحتمل فهو أن يكون حاذقاً فطناً يلتفت إلى دقائق النكات في التعبير القرآني. وبتعبير آخر: يجب أن يكون – بالإضافة إلى ما حصل عليه بالجهد من معرفة تلك العلوم – ذكيّاً وموهوباً يقرأ ماوراء السطور ويضع يده على الخصائص الخفيّة في محتوى القرآن.

وفي عقيدتي أنّ هذين الشرطين هما الحدّ الأدنى الذي لا يعتبر المفسّر بدونهما مفسّراً، فهما أشبه شيء بصفة الإجزاء بالنسبة للعبادة، وهناك شروط أخرى هي أشبه بصفة القبول بالنسبة للعبادة في نسبتها للتفسير، وهي:

٣ـ أن يكون ممن رزق قابليّة على المعاناة الشديدة وجَسراً على تحمّل الصعاب؛ لأنّ عطاء القرآن الكريم يتضاعف كلّما تضاعفت المعاناة والصبر، وكلّما أعطيت أخذت أضعاف ذلك.

٤ـ أن يكون على ورع وتقوى تمنعه من التسرّع والحكم دون تثبّت، ونسبة أشياء لجهات هي بريئة ممّا نسب إليها، وما أكثر ذلك على ألسنة بعض المفسّرين.

٥ـ أن يكون سليماً معافىً في جسده ونفسه، فقد ثبت أنّ المصابين في هذين الجانبين تترك إصابتهم بصماتها على نتاجهم الفكري شاءوا أم أبوا، بل وحتّى من اصيب بعاهة اجتماعية ظهرت آثار إصابته في كثير مّما عمل وكتب وقال.

هذه هي أهمّ ما يشترط في المفسّر. وقد تكون هناك شروط اُخرى يشار إليها أحياناً، وكل ذلك يكشف عن أنّ المفسّر يقدّم للأجيال زاداً سوف تعيش عليه دنيا الإسلام في حضارتها، وكلّ نقص في صفة من صفات هذا الزاد هو سيّئة على المفسّر، وكلّ كمال فيه هو نور له ورحمة وذخيرة عند الله تعالى وعند الإنسان[١].

وهنا يحسن بنا ان ننقل نصاً عن الشهيد الصدر في هذا الموضوع اذ يقول فيه[٢]:

والتفسير بوصفه علماً تتوقّف ممارسته على شروط كثيرة لا يمكن بدونها أن ينجح البحث في القرآن ويوفّق المفسّر في مهمّته.

ويمكن أن نلخّص تلك الشروط في الأمور الأربعة التالية:

١ـ انظر في شروط المفسر مجمع البيان، طبع صيدا: ١ـ٦. لاحظ الشروط الأساسية والشروط الباقية مقترحة.

٢ ـ وقد نقله الشهيد آية الله الحكيم في كتابه(علوم القرآن): ٢٤٢.

أولاً: يجب على المفسّر أن يدرس القرآن ويفسّره بذهنية إسلامية، أي ضمن الإطار الإسلامي للتفكير فيقيم بحوثه دائماً على أساس أنّ القرآن كتاب إلهي أُنزل للهداية وبناء الإنسانية بأفضل طريقة ممكنة، ولا يخضع للعوامل والظروف والمؤثّرات التي يخضع لها النتاج البشري في مختلف حقول المعرفة الإنسانية، فإنّ هذا الأساس هو الأساس الوحيد لإمكان فهم القرآن وتفسير ظواهره بطريقة صحيحة.

وأمّا حين يستعمل المفسّر في دراسة القرآن نفس المقاييس التي يدرس على ضوئها أي كتاب دعوة أُخرى أو أيّ نتاج بشري، فهو يقع نتيجة لذلك في أخطاء كبيرة واستنتاجات خاطئة، كما يتّفق ذلك لبحوث المستشرقين الذين يدرسون القرآن على ضوء نفس المقاييس التي يدرسون بها أيّ ظاهرة من ظواهر المجتمع التي نشأ في داخله وترتبط بمؤثّراته وعوامله وتتكيّف بموجبها.

وهذا الشرط تفرضه طبيعة الموقف العلمي؛ لأنّ المفهوم الذي يكوّنه المفسّر عن القرآن ككلّ يشكّل القاعدة الإسلامية لفهم تفصيلاته، ودرس مختلف جوانبه، فلابدّ أن يبنى التفسير على قاعدة سليمة ومفهوم صحيح عن القرآن، يتّفق مع الإطار الإسلامي للتفكير، لكي يتّجه اتّجاها صحيحاً في الشرح والتحليل. وأمّا إذا أُقيم التفسير على أساس تقييم خاطىء للقرآن ومفهوم غير صحيح عنه فسوف ينعكس انحراف القاعدة على التفصيلات ويفرض على اتّجاه البحث انحرافاً في التحليل والاستنتاج.

وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة التي يتجلّى فيها مدى الفرق في الاتّجاه بين دراسة القرآن بوصفه كتاباً إلهياً للهداية والدراسة بوصفه ظاهرة في مجتمع تتأثر

به وتتفاعل مع عوامله ومؤثراته، وكيف تنعكس القاعدة التي يقام على أساسها التفسير في التفصيلات وطريقة التحليل والاستنتاج.

أ) ففي إقرار القرآن لعدد من الأعراف وألوان من السلوك كانت سائدة بين العرب قبل بزوغ نور الرسالة الجديدة قد يخيّل لمن ينطلق من قاعدة خاطئة ويحاول أن يفسّر القرآن بمقاييس غيره من منتجات الأرض، أنّ ذلك الإقرار يعبّر عن تأثّر القرآن بالمجتمع الذي وجد فيه، ولكن هذا التفسير لا معنى له حين ننطلق من القاعدة الصحيحة ونفهم القرآن الكريم بوصفه كتاباً إلهياً للهداية وبناء الإنسانية، بالصورة التي تعيد إليها فطرتها النقية وتوجّهها نحو أهدافها الحقيقية الكبرى.

بل نستطيع على أساس هذه القاعدة الصحيحة أن نفهم ذلك الإقرار من القرآن فهماً صحيحاً؛ إذ ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل أن يشجب كلّ الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله؛ لأنّ الإنسانية مهما تفسد وتنحرف عن طريق الفطرة والأهداف الحقيقيّة الكبرى فهي لا تفسد كلّها بل تبقى في العادة جوانب صالحة في حياة الإنسانية تمثّل فطرة الإنسان أو تجاربه الخيّرة، فمن الطبيعي للقرآن أن يقرّ بعض الجوانب ويشجب أكثر الجوانب في عمليّة التغيير العظيم التي مارسها. وحتى هذا الذي أقرّه وضعه في إطاره الخاصّ وربطه بأصوله وقطع صلته بالجاهلية وجذورها.

ب) وفي تدرّج القرآن الكريم في التشريع قد يخيّل لمن ينطلق من القاعدة الخاطئة التي تقول ببشرية القرآن، أنّ التدرّج بتكامل شخصية الرسول ﷺ أو غير ذلك من الأسباب التي تفترض أنه إيحاء بشري، غير أنّ الواقع أن هذا التدرّج يرتبط بطبيعة عملية البناء التي يمارسها القرآن؛ لأنّ القرآن لم ينزل

ليكون كتاباً علمياً يدرسه العلماء، وإنّما نزل لتغيير الإنسانية وبنائها من جديد على أفضل الأُسس، وعملية التغيير تتطلب التدرّج.

ج) وفي القرآن الكريم نجد كثيراً من التشريعات والمفاهيم الحضارية التي كانت متبنّاة من قبل الشرائع السماويّة الأُخرى كاليهودية والنصرانية. وقد يخيّل لمن يدرس القرآن على أساس القاعدة الخاطئة بأنّ القرآن قد تأثّر في ذلك بهذه الأديان فانعكس هذا الانفصال بالتالي على القرآن نفسه.

ولكن الواقع ـ وعلى أساس المفهوم الصحيح ـ أنّ القرآن يمثّل الإسلام الذي هو امتداد لرسالات السماء وخاتمها. ومن الطبيعي أن تشتمل الرسالة الخاتمة على الكثير مما احتوته الرسالات السماوية السابقة، وتنسخ الجوانب التي لا تتلائم مع التطوّرات النفسيّة والفكريّة والاجتماعيّة للمرحلة التي وصل إليها الفرد الإنساني بشكل عام؛ لأنّ مصدر الرسالات هذه كلّها شيء واحد وهو الله سبحانه، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار إيمان الإسلام بهذه الوحدة في مصدر الرسالات وتأكيده عليها.

ثانياً: وبعد سلامة القاعدة الأساسية في فهم القرآن وتقييمها يجب أن يتوفّر في المفسّر مستوى رفيع من الاطّلاع على اللغة العربية، ونظامها؛ لأنّ القرآن جاء وفق هذا النظام، فما لم تكن لدينا صورة عن النظام العامّ للّغة العربية لا نستطيع أن نستوعب معاني القرآن، فيحتاج المفسِّر إلى الاطّلاع على علم النحو والصرف والبيان وغيرها من العلوم العربية.

والقدر اللازم توفّره من هذا الشرط يختلف باختلاف الجوانب التي يريد المفسِّر معالجتها من القرآن الكريم. فحين يريد أن يدرس فقه القرآن مثلاً، لا

يحتاج إلى التعمّق في أسرار اللغة العربية بالدرجة التي يحتاجها المفسِّر إذا درس الفن القصصي في القرآن أو المجاز في القرآن مثلاً.

ثالثاً: ولا بدّ للمفسِّر أن يحاول إلى أكبر درجة ممكنة الاندماج كلّياً في القرآن عند تفسيره. ونقصد بالاندماج في القرآن أن يدرس النص القرآني ويستوحي معناه دون تقيّد سبق باتّجاه معيّن غير مستوحى من القرآن نفسه، كما يصنع كثير من أصحاب المذاهب الذين يحاولون في تفسيرهم إخضاع النصّ القرآني لعقيدتهم المذهبية، فلا يدرسون النصّ ليكتشفوا اتّجاهه، بل يفرضون عليه اتّجاههم المذهبي ويحاولون فهمه دائماً ضمن اطارهم العقائدي الخاصّ. وهذا ليس تفسيراً وإنّما هو محاولة تبرير للمذهب وتوفيق بينه وبين النص القرآني، ولهذا كان من أهمّ الشروط في المفسِّر أن يكون بدرجة من التحرّر الفكري تتيح له الاندماج بالقرآن، وجعله قاعدة لتكوين أي إطار مذهبيّ، بدلاً عن جعل الاتّجاه المذهبي المحدود قاعدة لفهم القرآن.

رابعاً: وأخيراً لابدّ للمفسِّر من منهج عام للتفسير، يحدّد فيه عن اجتهاد علمي طريقته في التفسير، ووسائل الإثبات التي يستعملها، ومدى اعتماده على ظهور اللفظ وعلى السُّنة وعلى أخبار الآحاد وعلى القرائن العقلية في تفسير النصّ القرآني؛ لأنّ في كلّ واحد من هذه الأُمور خلافاً علميّاً و وجهات نظر عديدة، فلا يمكن ممارسة التفسير دون درس تلك الخلافات درساً دقيقاً، والخروج من دراستها بوجهات نظر معيّنة تؤلّف المنهج العام للمفسّر، الذي يسير عليه في تفسيره. ولما كانت تلك الخلافات تتّصل بجوانب من الأُصول والكلام والرجال وغيرها كان لزاماً على المفسِّر لدى وضعه للمنهج ودراسته لتلك الخلافات أن يكون ملمّاً إلماماً كافياً بتلك العلوم.

نماذج من التفسير

وحيث رسمنا المفسّر المطلوب في سطور سنقدّم ـ بالاضافة لما قدّمنا في حقل التفسير من أقسام للتفاسير اعتبرناها غير موضوعية ـ نماذج اُخرى من التفسير. ومهمّة هذه النماذج أن تعكس لنا المفسّر في ضوء ما مرّ من الشروط؛ لنرى ما إذا كان موضوعيّاً أم لا؟ طويل الباع أَم لا وهكذا، وسأترك للقارىء تبيّن ملامح المفسِّر والحكم عليه.

النموذج الأوّل

﴿**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ**﴾[1] فقد دلّت هذه الآية الكريمة على أنّ ما نبت في الأرض له وزن خاص، وقد ثبت أخيراً أنّ كلّ نوع من أنواع النبات مركّب من أجزاء خاصّة على وزن مخصوص بحيث لو زيد في بعض أجزائه أو نقص لكان ذلك مركباً آخر، وأنّ نسبة بعض الأجزاء إلى بعض من الدقّة بحيث لا يمكن ضبطها تحقيقاً بأدقّ الموازين المعروفة للبشر[2].

النموذج الثاني

قال محي الدين بن العربي عند تفسير سورة القدر: ليلة القدر هي البنية المحمديّة حال احتجابه في مقام القلب بعد الشهود الذاتي؛ لأنّ الإنزال لا يمكن إلا في هذه البنية في هذه الحالة، و القدر، هو خطره وشرفه؛ إذ لا يظهر قدره ولا يعرفه هو إلّا فيها ثمّ عظّمها بقوله: ﴿**وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ**﴾[3].

---

١ ـ سورة الحجر: ١٥.

٢ ـ انظر البيان للحجة الخوئي: ٥٤ ، ط النجف.

٣ ـ انظر تفسير القرآن لابن العربي محي الدين ٢: ٨٣١.

النموذج الثالث

ما ذكره الشيخ محمود الآلوسي في تفسيره حيث قال في تفسير الآية ٥٥ من سورة المائدة وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾.

فبعد استعراض فقرات الآية وصل إلى ذكر روايات تنص على نزولها في عليّ أمير المؤمنين؛ لانه تصدّق بخاتمة حال الصلاة. ولما انتهى من ذكر أسباب النزول قال: العبرة لعموم اللفظ لا خصوص السبب، فمفاد الآية حصر الولاية لجماعة متعددين يدخل فيهم الأمير ـ يعني أمير المؤمنين علياً عليه السلام وحمل العام على الخاص خلاف الأصل لا يصح ارتكابه بغير ضرورة.

فإن قالوا: الضرورة متحقّقة هاهنا؛ إذ التصدّق على السائل في حال الركوع لم يقع من أحد غير الأمير كرّم الله وجهه.

قلنا: ليست الآية نصّاً في كون التصدق واقعاً في حال ركوع الصلاة، لجواز أن يكون الركوع بمعنى التذلّل والتخشّع لا بالمعنى المعروف في عرف أهل الشرع كما في قوله:

لاتهن الفقيـر علّـك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه[1]

ثم استشهد بموارد لمجيء الركوع بمعنى الخضوع من نمط بيت الشعر الذي استشهد به[2].

أرأيت المغالطات؟! إنّه يقول: الآية ليست نصّاً في أنّ الركوع بالمعنى الشرعي بل بمعنى الخشوع وعليه فهي لجماعة تصدقوا خاشعين، وإذا كان كذلك فمن هم هؤلاء الجماعة، أهم كلّ من تصدّق خاشعاً بقصد القربة؟ وهؤلاء عددهم كبير

١ ـ شرح ابن عقيل: شاهد ٣١٩.
٢ ـ انظر روح المعاني: ١٦٨ ح ٦.

جداً. أم هم جماعة خاصّة نصّت الروايات عليهم، فلمَ لم يذكرهم؟!

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى لو تتّبعنا موارد لفظة(الركوع) التي خوطب بها المسلمون، فهل نجد معنى للركوع غير الشرعي؟ كلّا، والموارد الثلاثة التي استشهد بها حكاية حال عن غير المسلمين.

ومن ناحية أخرى لم يدّعِ مدّعٍ أنّ أحداً تصدّق وهو راكع غيره عليه السلام، بل كلّ الروايات نصّت على أنّه هو المقصود بذلك[1].

والأعجب من ذلك أنّ بعض المفسّرين عندما مرّ بهذه الآية والتي قبلها وهي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾، وهي أيضاً نازلة في عليّ عليه السلام لم يفسّرهما بل عبرهما إلى آيات أُخرى[2].

النموذج الرابع

تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ**﴾[3].

يذهب أغلب المفسّرين إلى أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿**حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ**﴾ هو استحالة دخولهم الجنة كما يستحيل دخول الجمل في ثقب الإبرة (الذي هو سم الخياط) أو كما يعبّر عنه بعضهم: دخول ما يضرب به المثل في الكبر فيما يضرب به المثل في الصغر.

وبناء على ذلك فالجمل ـ على معناه المتبادر إلى الأذهان ـ هو الفحل من

---

١ ـ الكشاف ١: ٢١٩؛ تفسير الميزان للطباطبائي ٦: ١٥ ـ ٢٥، والدر المنثور للسيوطي٢: ٢٩٣ أوفست طبع مصر ١٣٧٧.

٢ ـ صفوة البيان لمعاني القرآن ١: ١٩٨.

٣ ـ سورة الأعراف: ٤٠.

الإبل كما ذهب لذلك الزمخشري في الكشّاف وحسنين مخلوف في(صفوة البيان) وفريد وجدي في المصحف المفسّر والطبرسي في وجه، والسيوطي في أحد الوجوه، وذلك عند تفسيرهم للآية في تفاسيرهم.

وهناك رأي آخر ذكره الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس: أنّ المراد بالجمل القلس(أي الحبل الغليظ) وهو أنسب بثقب الإبرة من البعير، وفي التفسير بذلك ذوقية في المحافظة على جوّ التناسب في تشبيهات القرآن.

وعلى العموم فإنّ الآية ـ كما أسلفنا ـ جاءت بصدد بيان استحالة دخول الكافر الجنّة. إلاّ أنّ الذين يذهبون إلى القول بالتناسخ، وهو انتقال الأرواح إلى أبدان متعدّدة سواء للتعذيب أو للنعيم، يذهبون إلى أنّ معناه كون الروح العاصية تبقى منتقلة من بدن إلى بدن ولا تزال معذّبة كذلك حتى تنتقل إلى بدن جمل ثم إلى بدن دودة صغيرة تدخل في سمّ الخياط. وعندئذ تطهر من الذنوب، وبعدها تدخل الجنة؛ لأن ما علّق عليه دخول الجنة قد حصلً فيحصل الدخول[١].

وهو قول سخيف لا يستحق الردّ، أوّلاً؛ إذ الكفر لا يغفر لصاحبه، وثانياً؛ لأنّ هذه الآراء لا سَنَد لها، وثالثاً؛ لاستلزامها كثيراً من اللوازم الفاسدة التي لا يتّسع المجال لشرحها.

النموذج الخامس

تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[٢].

انقسم المفسّرون في معناها إلى قسمين، قسم يذهب إلى أنَّ الزوجيّة هنا المراد بها المتقابلات كالأرض والسماء والليل والنهار والموت والحياة...[٣].

---

١ ـ انظر تفسير الرازي، ج ٤، ص ٢٠٩.

٢ ـ سورة الذاريات: ٤٩.

٣ ـ انظر صفوة البيان ٢: ٣٥٧؛ انظر السيوطي في الدر المنثور ٦: ١١٥ وهو وجه للطبرسي أيضاً.

وذهب الفريق الثاني إلى أنّ الزوجيّة المقصودة هنا المتكوّنة من الذكر والأُنثى، أو قُل هو قانون الزوجية العامة[١]. وقد قصر بعضهم الزوجيّة هنا على النبات، أي أنّه فسّر الآية الكريمة هكذا: ﴿**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ من النبات ﴿**خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**﴾.

في حين أنّ الآية مصدّرة بالعموم ولا موجب لتخصيص هذا العام بلا مخصص؛ لأنّه لم يذكر أيّ مخصّص سوى أنّه استبعد تصوّر معنى الزوجيّة في الجوامد.

وقد يعذر؛ لأنّ معنى الزوجيّة بمعناها الحديث بعيد عن ذهنه، ولا يعذر؛ لأنّ غيره تصور ذلك وعدّه وجهاً[٢].

وعلى العموم فالآية الكريمة صريحة في الكشف عن قانون الزوجيّة العامة الذي لم يُكشف إلا حديثاً.

النموذج السادس

قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[٣].

وقد اختلف المفسّرون في معنى قوله تعالى: ﴿**نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾ ففسّره الأكثر بأنّه إشارة إلى ما يفتحه الله تعالى على المسلمين من ديار الكافرين، فالآية تخاطب الكافرين بناء على هذا الوجه، وتلفت أنظارهم إلى منن الله تعالى على المسلمين بالفتوحات[٤].

---

١ ـ انظر فريد وجدي، المصحف المفسر: ٦٩٥، ومجمع البيان في الوجه الثاني ٥: ١٦٠ أوفست صيدا.

٢ ـ انظر الكشاف ٢: ٣٥٦.

٣ ـ سورة الرعد: ٤١.

٤ ـ انظر المصحف المفسر لفريد وجدي: ٣٢٨؛ والكشاف للزمخشري ١: ٤١٠، وهو وجه من أربعة

وذهب بعض آخر من المفسّرين إلى أنّ معناه موت الناس وخراب ديارهم[١].

ويذهب فريق ثالث إلى وجوه عدة، منها:

أولاً: ما يفتح من الكافرين من أرض ويدخل في حوزة المسلمين.

وثانياً: موت العلماء والاخيار.

وثالثاً: موت سائر الناس وخراب ديارهم.

ورابعاً: الخراب بعد العمران والنقيصة في الأرض. وقد شبهّها ابن عبّاس بالقرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية منها وتخرب باقي نواحيها[٢].

والذي يهمّني هو هذا الوجه، وقد أشار إلى هذا المعنى ـ أعني خراب بعض جهات الأرض ـ بعض الباحثين المحدثين، واستدلّ بهذه الآية على قانون التعرية والتآكل الذي يحدث في الأرض باستمرار[٣].

هذه نماذج من التفسير قدّمتها، وتركت للطالب وحده أن يستنبط منها وممّا مرّ قبلها صفات المفسّرين من العلميّة واللاعلميّة، ومن الورع وغير الورع والتعصّب وعدم التعصّب، أو قل من الموضوعيّة واللاموضوعيّة.

وجوه للطبرسي، وكذلك وجه من عدة وجوه للسيوطي في الدر المنثور.

١ ـ الطباطبائي في الميزان ١٣: ٣١٧، ط طهران ١٣٨٤ هـ، المراغي في تفسيره، ١٣: ١١٧، وصفوة البيان لحسنين مخلوف ١: ٤٠٨.

٢ ـ انظر مجمع البيان ٣: ٣٠٠، ط طهران أوفست صيدا، الدر المنثور للسيوطي ٤: ٦٨.

٣ ـ انظر التفسير العلمي للآيات لحفني أصمد: ٣٨٩.

القسم الرابع:
نماذج من التفسير الموضوعي

ما هو التفسير الموضوعي

بعض نماذجه:

النموذج الأول: الفطرة فن الله وابداعه الخالد

النموذج الثاني: سيدنا ابراهيم عليه السلام نموذج الانسان الحضاري

النموذج الثالث: سيدنا موسى عليه السلام منقذ المستضعفين في وجه فرعون

النموذج الرابع: مستقبل المجتمع الانساني

النموذج الخامس: الحوار منطق الإنسان

النموذج السادس: حقوق الإنسان في القرآن

النموذج السابع: العلاقات الدولية

القسم الرابع:
نماذج من التفسير الموضوعي

ما هو التفسير الموضوعي؟

يقسم سيدنا الشهيد الصدر التفسير إلى تجزيئي وموضوعي؛ ويلخص الفرق بينهما بما يلي:

١ـ إن المفسر التجزيئي دوره على الأغلب سلبي، فهو يتناول النص القرآني المحدّد دون أي افتراضات مسبقة ويحاول تحديد المدلول القرآني على ضوء ما يسعفه به اللفظ وقرائنه المتصلة والمنفصلة.

أما المفسر الموضوعي فانه يبدأ عمله من واقع الحياة ويركز على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستعرض تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل وحلول وما طرح من أسئلة ليطرحها

على النص القرآني، ويقوم بعملية حوار يستمع فيها لإجابات القرآن على تساؤلاته وموقف القرآن من طروحاته.

ومن هنا ترتبط نتائج التفسير الموضوعي بالمسيرة الحياتية وتحدد النظرية القرآنية بشأن الموضوع. ويمثل لذلك بقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه: ألا إن فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم»[1].

٢ـ إن التفسير التجزيئي يكتفي بإبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية الكريمة بينما يطمح التفسير الموضوعي إلى استحصال أوجه الارتباط بين هذه المدلولات التفصيلية لمعرفة المركب النظري القرآني.

بعد هذا يلخص الفرق بأن التفسير الموضوعي يبدأ من الموضوع الخارجي ويعود إلى القرآن الكريم.

ويوحد بين التجربة البشرية وبين القرآن الكريم من خلال إخضاع هذه التجربة للمدلول القرآني كما يوحد بين الآيات التي تشترك في موضوع واحد ضمن مركب نظري واحد.

وأجاب بعد هذا على سؤال عن ضرورة معرفة نظريات القرآن العامة؟ وهو سؤال هام وركز أن معرفةالنظريات ضرورية لمعرفة الرؤية القرآنية في جو مشحون بالنظريات الأخرى المتضاربة.

ونبه في النهاية إلى أن المقصود ليس الاستغناء عن التفسير التجزيئي وإنما إضافة اتجاه إلى اتجاه لأن الاتجاه الموضوعي هو خطوة إلى الأمام وليس خطوةً

١ ـ نهج البلاغة: الخطبة ١٥٨.

بديلة[١].

هذا وقد حاول الآخرون الاقتراب من هذا المستوى في شروحهم للتفسير الموضوعي[٢].

وهنا يجب ملاحظة أمور قد ينزلق إليها الباحث مما يؤدي بالنتيجة إلى خلاف المقصود وهي باختصار:

١ـ الانتباه التام إلى أن التفسير الموضوعي ـ كما قال استاذنا الشهيد ـ ليس بديلاً عن التفسير التجزيئي المتعارف، بل هو خطوة تالية له، فمن الضروري أن تتم أولاً ثم تتبعها الخطوة الثانية وإلاّ ابتلي المفسر بعواقب القفز على المراحل، وبالتالي فقدان التركيز المطلوب.

٢ـ الانتباه إلى أن الأصل الأصيل هو ما يعطيه النص من مفهوم ولا مجال لتحميل رؤية غريبة على النص وإنما يطرح السؤال على ضوء المشاكل الحياتية والحلول الإنسانية ليتم الاستماع إلى الخطاب القرآني تماماً وبالتالي استيعاب كل مدلولاته دونما أيه اضافة غريبة.

٣ـ التوجه لكل ما يثري الموضوع المطروح من مرادفات الألفاظ الموضوع ومن قرائن فعلية وسياقية وكذلك من أحكام عقلية قطعية فهي في الواقع من أقوى القرائن المرتكزة في نفوس السامعين، وكذلك من فهوم عرفية اكتنفت النص عند صرورة بل وربما أوكل الإسلام إليها على الدوام تحديد المراد على ضوء الواقع من قبيل: (النفقة، المثلية، الفقر، الإسراف، المسكنة، الاستطاعة، الإفساد) وغيرها من المفاهيم التي أوكل أمرها إلى العرف مما يعبر عن مرونة

١ ـ المدرسة القرآنية ص ١٩ ـ ٤٢.

٢ ـ يراجع كتاب (قواعد التفسير للشيخ محمد فاكر الميبدي) ص ٣٩١ ـ ٤٢٠.

الشريعة.

٤ـ ولما كان المعصومون والعلماء هم الأمناء على تفسير كتاب الله، وهم المستخلفون عليه على مستويات ثلاثة وفق ما يوحيه النص القرآني الشريف: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**﴾[1] وهي:

أـ مستوى الأنبياء فتفسيرهم قطعي.

ب ـ مستوى الأوصياء وهو قطعي أيضاً هو ومما يؤكده حديث الثقلين.

ج ـ مستوى العلماء وتفسيرهم ولا يعد قطعياً ولكنه يجب أن يراعى مهما أمكن.

فعليه يجب أن ينظر إلى المأثور بكل عناية كما ينبغي مراجعة أقوال العلماء والاستضاءة بها مهما أمكن.

وها نحن نقدم بعض النماذج لمثل هذا التفسير في ما يلي:

تمهيد

المسيرة الحضارية في الماضي والمستقبل

من المسائل التي ركّز القرآن عليها مسألة انطلاق المسيرة الإنسانية حاملة الخلافة الإلهية معطية العهد لله بفطرتها وما أودعه الله فيها من إمكانات، على أن تقوم بحق العبودية لله فتسعى نحو بناء المجتمع العابد المنزه عن الشرك بكل درجاته، فيقول تعالى في أوائل سورة البقرة الآية(٢٨ ـ ٢٩) وهو يعرض بدء

١ ـ المائدة: ٤٤.

المسيرة البشرية على الأرض: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ وهكذا يتجلى الخطان خط الهدى وخط الكفر؛ خط الخلافة وخط الإنسانية الباقية على عهدها الذي أعطته لله بفطرتها حين قال تعالى: ﴿**أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى**﴾

وراحت تطبّق شريعة يشرف عليها الشهداء، وهم الأنبياء وأوصياؤهم والعلماء الذين يحملون الأمانة من بعدهم ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾[1].

ويقف في قبال هذا الخط خط الكفر والضلالة والتجبّر والطغيان وهو خط الشيطان.

والتاريخ يحدثنا عن صراع الخطين المرير؛ فهذا عهد النماردة الطغاة في بلاد ما بين النهرين يتجبّر ويتكبّر ليسقط بالنهاية على يد إبراهيم عليه السلام شيخ الأنبياء والموحدين، ويقوم بعده عهد الفراعنة ليسقط على يد موسى كليم الله عليه السلام وبعده يأتي عهد اليونانيين لينتهي على يد عيسى عليه السلام روح الله، ويقوم بعهده عهد الرومان ليسقط على يدي حبيب الله محمّد صلى الله عليه وآله وأتباعه، وليبدأ عهد جديد من الصراع بين الحق والباطل إلاّ أنه عصر ممتد لخلود الرسالة وسينتهي بغلبة الحق وهو وعد الهي لا يتخلف ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**

١ ـ سورة المائدة: ٤٤.

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1]. وتملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً جوراً بظهور الإمام المهدي المنتظر عليه السلام.

ونحن فيما يلي سنتعرض لبعض المقاطع القرآنية المرتبطة بهذا الأمر باعتبارها نماذج للتفسير الموضوعي وهي:

١ ـ الفطرة فن الله وابداعه الخالد.

٢ ـ سيدنا إبراهيم عليه السلام نموذج الإنسان الحضاري في وجه نمرود.

٣ ـ سيدنا موسى عليه السلام منقذ المستضعفين في وجه فرعون.

٤ ـ مستقبل المجتمع الإنساني.

٥ ـ الحوار منطق الإنسان.

٦ ـ حقوق الإنسان في القرآن.

٧ـ العلاقات الدولية

١ ـ سورة النور: ٥٥.

النموذج الأول
الفطرة فن الله وإبداعه الخالد

أصل الفطرة في الثقافة القرآنية

رغم التباين الموجود بين مفاهيم «الفن في القرآن» و «الفن في ظل القرآن» و «الفن القرآني» أو «القرآن والفن» إلاّ أنَّها تلتقي في نقطة واحدة هي أنَّ لجميعها ارتباطاً وثيقاً بأصل الفطرة التي هي أساس «الإيمان الديني».

إنَّ «مبدأ الفطرة» الذي أشير إليه مراراً في القرآن الكريم وروايات المعصومين: يمثل أحد المواضيع الرئيسة والمعمقة لعلم الاجتماع حسب وجهة نظر الإسلام؛ إذ يبقى تعلم الدين ومعارفه السامية والمتجذرة بدءاً من التوحيد والمعاد وانتهاءً بالأحكام والشرائع، وكذلك الوقوف على معارف كتاب الوحي وعجائبه وجمالياتها ناقصاً دون الغوص في مكنونات الفطرة.

الفن الديني، أو بعبارة أفضل: البعد الفني وعلم جمال الروح الإنسانية له

ارتباط وثيق مع «الفطرة» ويتم تعريفه في ظل الفطرة.

وفي علم الاجتماع الإسلامي لا يعتبر الإنسان، هذا الموجود المعقد، صفحة بيضاء لا كتابة فيها بحيث لا يرى فيها أبداً أي أثر من تجسيم وتصوير ليد الخلقة الإلهية وأنَّ ماهيته بشكل عام تتبلور بعد إيجاده.

إنَّ الإنسان في الإسلام هو وجود حقيقي يمتلك مؤهلات وقدرات خاصة تمارس العوامل الطبيعية والاجتماعية والتربوية الخارجية ولعامل الإرادة دور أساسي في تجسيد ذاته، وإن العوامل الدخيلة في هذا الوجود تناور في مساحة بين أعلى عليين وأسفل سافلين ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[1].

على أنَّ نمو وتكامل وازدهار المؤهلات والمواهب الإنسانية رهن بالسير في ركاب الدين الإلهي؛ الحد الفاصل بين الإنسانية والحيوانية وعامل تسامي الإنسان وتسلّقه مراتب الكمال والتسامي الوجودي.

﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[2].

وتعد معرفة الفطرة والجوانب المتعلقة بها أمراً مفصلياً وضرورياً جداً في طي هذا المسير ومواكبته.

وعلى نحو الإجمال والعموم، فإن الجوانب المتعلقة بالفطرة يمكن تقسيمها إلى:

١ـ الإدراكات الفطرية.

---

١ ـ سورة الشمس: ٧ ـ ٨.

٢ ـ سورة الروم: ٣٠.

٢ـ الميول الفطرية.

٣ـ الارادة الحرة.

فالإدراكات الفطرية التي هي أساس العلم والفلسفة وكل أنواع المعرفة للعلوم هي عبارة عن البديهيات الأولى كمبدأ عدم التناقض وما شابهه، وهو ما يتم بحثه في محله.

أما الميول الفطرية التي لها صلة أكبر ببحثنا، فهي تشمل الأمور التالية:

١ ـ الميل نحو المعنوية وعبادة الله.

٢ ـ الميل نحو العلم وطلب الحقيقة.

٣ ـ الميل نحو الإحسان والفضائل الخلقية والعدالة وتحسينها مطلقا.

٤ ـ الميل نحو الكمال والجمال والظرافة التي هي أساس «الفن» في الحياة والتاريخ البشري. من خلال الميول أعلاه، تتألف الحياة المعنوية للإنسان... فالعلم والأدب والعدالة والدين والحقوق الإنسانية والفضيلة والأخلاق والفن قد سجلت حضورها الفطري. وعلى أساسها بني صرح الحضارة الإنسانية وبدون الإيمان بالفطرة لا يبقى لهذه الأمور أي معنى.

أما الإرادة الإنسانية الحرة فهي الميزة الإنسانية والهبة الإلهية التي شاء الله أن تكون حرة تسير نحو التكامل المنشود وهو هدف خلقة الإنسان.

رسالة الأنبياء

من الجدير الإشارة إلى أنَّ أنبياء الله تعالى، وهم رواد الحياة المعنوية للناس، لم يبعثوا من أجل إيجاد هذه الخصال في نفس الإنسان، بل إنَّ رسالتهم تمثَّلت في تربية وتعزيز وتحقيق مظاهر البعد السامي للوجود الإنساني والحؤول دون

انزلاقه في هاوية الماديات والشهوات.

لقد جسد القرآن الكريم، وهو معجزة الرسول الخاتم محمد المصطفى ﷺ بأكمل صورة ممكنة، عناصر الفطرة الأربعة وكان نقطة التقاء «المعرفة والعبودية» و«العلم والحكمة» و«الأخلاق والفضيلة» و«الجمال والظرافة».

إنَّ تعاليم هذا الكتاب تنسجم تماماً مع فطرة الإنسان وتلبّي كافة احتياجاته الفطرية، ومنها تعطش الروح الإنسانية للفن والأبعاد الجميلة.

وفضلاً عن أنَّ القرآن الكريم تبلورت في ظله كثير من الفنون وكان الأصل في ظهور أو تكامل التلاوة والتجويد، والخط، والتجليد، والتذهيب، والتصوير، وخط الرسومات، والمعرَّقات، وأنَّه ترك بصماته وتأثيره على فروع فنية أخرى كفن العمارة، وعمل الكتائب المزخرفة بالكاشي، والرسم و... فإنه بحد ذاته مخلوق فني إعجازي مدهش تجلى في صيغة(الكلام) و(البيان) وعرض المعاني السامية والمتكاملة من عالم الغيب إلى عالم الشهود، ومن الله الرحمن إلى الناس.

إنَّ بيان القرآن الكريم بيان فني وجميل ذو بناء هندسي خاص... من مختلف أنواع الصيغ الأدبية من الحقيقة والمجاز، والتشبيه والاستعارة، والكناية، والإيهام... وكذلك الأمثال والحكم، والقصص الجميلة، والموعظة والحكمة، والتاريخ، والفلسفة، والبحث والمناظرة والاستدلالات العقلية والفطرية التي جعلت الإنسان يندفع إلى التدبُّر والتفكُّر، وحرَّكت فيه قدرة التخيل، وصوَّرت له الحقائق العلمية والعرفانية بشكل فني حتى وكأن الحقائق المعنوية السامية باتت مجسدة أمام عين القارئ والسامع فأخذت منه مأخذها وصار متحيراً في مقابل تلك المناظر.

إنَّ تركيب الآيات والكلمات، وكون الحروف والحركات تخضع لقاعدة

التفخيم والترقيق، وتناسب الجمل والسياق النغمي إلى جانب التحليق المدهش في الآفاق والغور في مكنونات الآفاق الإنسانية يعدُّ من أوجه جمالية هندسة الآيات والسور.

إنّ استخدام الأوزان الشعرية في جمل منثورة، وموسيقية الآيات والبيان النغمي في صياغة الجمل القرآنية، التي تهتزُّ لصوتها أوتار قلب كلّ إنسان صاحب ذوق وناشد للحقيقة وتنفتح قريحته بإطلاق كلمات الإشادة والإطراء، تفصح عن استخدام مختلف أنواع الفنون بأجمل صورها في خلقة هذا الكتاب السماوي.

إنَّ هذه الموسيقى والنغمة المرتبطة والمتناسقة تماماً مع مضمون وفحوى الآيات الشريفة، لها تأثير سحري على روح ونفس الإنسان. حتى أنَّها تروّض أحياناً القلوب القاسية وتجذبها للكتاب العزيز، وهذا يعد بحد ذاته أحد أسس تحدي القرآن الكريم.

الوليد بن المغيرة والجاذبية السحرية للقرآن الكريم

يتم الكشف عن هذه الحقيقة في سورة المدثر ببيان إلهي جميل وشاعري من على لسان الوليد بن المغيرة.. هذا المدعو ابن المغيرة وهو أحد أعداء الإسلام والرسول الأكرم ﷺ، حينما سمع شيئاً من القرآن الكريم في أيام الوحي الأولى تأثر جداً بجاذبية القرآن الكريم إلى الحد الذي اضطر رغم أنفه إلى الاعتراف بعظمته.

لكن الكبر والعناد جعله يسمي تلك الآيات الجذابة بالسحر. ولذا فالله تعالى فضحه قائلاً:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۞ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞ إِنْ هَذَا إِلاّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[١].

إن عظم الآيات أعلاه يتجلى ببيانها السهل والشاعري والموزون والموسيقي، وفي قصر جملها وحزمها وتماسكها يميط اللثام عن الحالات النفسية للعدو المعاند والحاقد.

وبعد أن يمهّد للسامع الأمور من الناحية النفسية، ينقل له كلام المنكر للقرآن الكريم ومن ثم يجيب بقاطعية وحزم:

﴿سَأُصْلِيه سَقَرَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۞ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۞ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[٢].

لا شك أنَّ من الأهمية بمكان الوقوف على حالات التصوير القرآنية الجميلة في تجسيد ظواهر الخلقة الرائعة من أرض وسماء، وكواكب وسيارات، وصحار وبحار، وجبال، وطيور، وحيوانات أخرى وباقي مظاهر الخلقة وكذلك المشاهد المهيبة ليوم القيامة من حوادث النفخ بالصور وما يحصل للأرض والسماء وحتى الجنة والنار وجماليات الأولى وبلايا الثانية، والحوار بين أهل الجنة والنار و... وكذلك القصص القرآنية وأسلوبها الفني في رسم الشخصيات الإيجابية والسلبية وأبطال القصص وإعداد القارئ نفسياً، وتحريض وإثارة العواطف والأحاسيس واصطحاب القارئ إلى استنتاجاتها الإنسانية والإلهية؛ لا شك أنَّ مطالعة كل ذلك يحظى بأهمية بالغة.

التناسق الرائع بين الإطار والمضمون وفحوى المواضيع القرآنية لا يقتصر

١ ـ سورة المدثر: ١٨ ـ ٢٥.

٢ ـ سورة المدثر: ٢٦ ـ ٣٠.

على القصص وظواهر الدنيا والآخرة، بل إن القرآن الكريم اختار إطاراً خاصاً فيما يتعلق بالعقائد والمعارف والأحكام والشرائع وبما يتناسب مع مضمون الآيات وفحوى المواضيع، مستخدماً مناهج وأساليب مختلفة بغية المزيد من التأثير.

نماذج من البيان الفني في القرآن الكريم

إنَّ حالات استخدام فن البلاغة والصياغات الأدبية المختلفة وتناسب أشكال الكلمات ومرامي مفاهيم القرآن المجيد أكثر من أن تعدَّ وتحصى، ولا يسع هذا المقال البحث في التفاصيل إلاّ أنّنا مضطرون إلى أن نشير بصورة عابرة ومقتضبة إلى نماذج مختلفة في هذا المجال بغية المزيد من الفائدة للباحثين والراغبين بالمطالعة.

١ـ بيان فني في رسم الظواهر الطبيعية وجماليات الخلقة:

﴿الله الَّذي رَفَعَ السَّمَاوَات بغَيْر عَمَد تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَات لَعَلَّكُمْ بلقَاء رَبِّكُمْ تُوقنُونَ ۞ وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فيهَا رَوَاسيَ وَأَنْهَارًا وَمنْ كُلِّ الثَّمَرَات جَعَلَ فيهَا زَوْجَيْن اثْنَيْن يُغْشي اللَّيْلَ النَّهَارَ إنَّ في ذَلكَ لآيَات لقَوْم يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَفي الأَرْض قطَعٌ مُتَجَاورَاتٌ وَجَنَّاتٌ منْ أَعْنَاب وَزَرْعٌ وَنَخيلٌ صنْوَانٌ وَغَيْرُ صنْوَان يُسْقَى بمَاء وَاحد وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْض في الأُكُل إنَّ في ذَلكَ لآيَات لقَوْم يَعْقلُونَ﴾[1].

١ ـ سورة الرعد: ٢ ـ ٤.

﴿هُوَ الَّذي يُريكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۞ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بحَمْده وَ الْمَلَائكَةُ منْ خيفَته وَ يُرْسلُ الصَّوَاعقَ فَيُصيبُ بهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادلُونَ في اللَّه وَهُوَ شَديدُ الْمحَال﴾[1].

٢ـ البيان القرآني الفني في رسم وتصوير أحداث يوم القيامة:

﴿بسْمِ اللَّه الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ. إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۞ وَإذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۞ وَإذَا الْجبَالُ سُيِّرَتْ ۞ وَإذَا الْعشَارُ عُطِّلَتْ ۞ وَإذَا الْوُحُوشُ حُشرَتْ ۞ وَإذَا الْبحَارُ سُجِّرَتْ ۞ وَإذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۞ وَإذَا الْمَوْءُودَةُ سُئلَتْ ۞ بأَيِّ ذَنْب قُتلَتْ ۞ وَإذَا الصُّحُفُ نُشرَتْ ۞ وَإذَا السَّمَاءُ كُشطَتْ ۞ وَإذَا الْجَحيمُ سُعِّرَتْ ۞ وَإذَا الْجَنَّةُ أُزْلفَتْ ۞ عَلمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[2].

وكذلك كافة آيات سورة الحاقة المباركة ومنها:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتيَ كتَابَهُ بشمَاله فَيَقُولُ يَا لَيْتَني لَمْ أُوتَ كتَابيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حسَابيَهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَت الْقَاضيَةَ ۞ مَا أَغْنَى عَنِّي مَاليَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانيَهْ ۞ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ الْجَحيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ في سلْسلَة ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۞ إنَّهُ كَانَ لا يُؤْمنُ باللَّه الْعَظيم﴾[3].

٣ـ حوار أهل الجنة والنار:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ۞ إلا أَصْحَابَ الْيَمين ۞ في جَنَّات

١ ـ سورة الرعد: ١٢ ـ ١٣.

٢ ـ سورة التكوير: ١ ـ ١٤.

٣ ـ سورة الحاقة: ٢٥ ـ ٣٣.

يَتَسَاءلُونَ ۞ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۞ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۞ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۞ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۞ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۞ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾[1].

٤ـ وصف الجنة ونعمها:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۞ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۞ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۞ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ۞ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾[2].

٥ـ وصف جهنم وعذابها:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ۞ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۞ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۞ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۞ جَزَاءً وِفَاقًا ۞ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۞ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۞ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۞ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[3].

٦ـ البيان القرآني الفني في ذكر القسم:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[4].

---

١ ـ سورة المدثر: ٣٨ ـ ٤٧.

٢ ـ سورة النبأ: ٣١ ـ ٣٦.

٣ ـ سورة النبأ: ٢١ ـ ٣٠.

٤ ـ سورة التكوير: ١٥ ـ ١٩.

٧ ـ البيان القرآني الفني في ذكر الوقائع التاريخية والقصص القرآنية:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[١].

وفي سورة نوح يسرد القرآن الكريم الحوار بين النبي نوح عليه السلام ورب العزة على النحو التالي:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۞ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۞ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۞ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[٢].

وكذلك:

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا ۞ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۞ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۞ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالاً ۞ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ۞ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا

١ ـ سورة القصص: ٧.

٢ ـ سورة نوح: ٥ ـ ١٤.

عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا ۞ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾[١].

٨ ـ سائر الأمثال والحكم

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم دخلت الأدب العربي وفرضت لنفسها مكاناً في الحوار بين الناس بسبب قصرها وجماليتها ومعناها الوافي وتعلقها بقضاياهم الاجتماعية وخلفياتهم وحياتهم اليومية وبصفتها حكماً وأمثالاً، منها:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[٢].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[٣].

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[٤].

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[٥].

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ﴾[٦].

﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاّ الإِحْسَانُ﴾[٧].

٩ ـ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ

١ ـ سورة نوح: ٢١ ـ ٢٨.
٢ ـ سورة البقرة: ١٧٩.
٣ ـ سورة الزلزلة: ٧ ـ ٨.
٤ ـ سورة آل عمران: ٥٤.
٥ ـ سورة الانشراح: ٦.
٦ ـ سورة الإسراء: ٧.
٧ ـ سورة الرحمن: ٦٠.

شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

١٠ـ البيان الرائع في تشريع الأحكام

لا يقتصر التناسق بين الإطار وكوامن المواضيع القرآنية على قصص وأيمان وأمثال وحكم القرآن الكريم، بل إنه اختار إطاراً خاصاً عند تطرُّقه للعقائد والمعارف والأحكام والشرائع وذلك بما يتناسب مع مضامين الآيات الشريفة، واستخدم أساليب مختلفة بهدف المزيد من التأثير... من بين تلك المواضيع تشريع الصيام؛ فهذا الحكم الإلهي الداعي إلى تجنُّب الأكل والشرب وابتعاد الإنسان عن اللذائذ الأخرى كان يعدُّ عملاً شاقاً وغير مألوف بالنسبة للمسلمين الذين كانوا يعيشون في أرض الحجاز الملتهبة بحرارة الشمس وأيام الصيف الطويلة، ولذلك عمد إلى استخدام أسلوب مغاير في التشريع حيث راعى الجوانب العاطفية والنفسية أثناء تبيينه للحكم ومن ثم تطرَّق إلى التسهيلات وحالات التخفيف التي من شأنها أن تخفّض من شدّته وحدّته وبما يجعل النفوس تركن إلى الحكم وتقتنع بالعمل به. هذا فضلاً عن الفوائد المادية والمعنوية التي ترتَّبت على الحكم. إن صيغته شجَّعت المسلمين ورغَّبتهم بقبول الصيام.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[2].

إنَّ النقاط التالية تكشف عن جانب من البيان الرائع الذي استخدمه القرآن الكريم في الآيتين أعلاه من أجل تحفيز المسلمين على الصيام.

---

١ ـ سورة الحديد: ٢٠.

٢ ـ سورة البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٤.

١ – التركيز على إيمان الناس بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا**﴾، وبالتالي تمسكهم بمقوماته.

٢ – ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾؛ أي لا مجال للجدال بل هو أمر من قبل الله تعالى.

٣ – ﴿**كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾؛ أي لا تقلقوا، فلستم وحيدين والأمم التي من قبلكم كانت تصوم أيضاً.

٤ – ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾؛ إن فائدة الصيام تتمثل في التقوى والورع عن المحارم.

٥ – ﴿**أَيَّامًا**﴾؛ جاءت بصيغة النكرة؛ أي عدداً من الأيام.

٦ – ﴿**مَعْدُودَاتٍ**﴾؛ تأكيد على قلة عدد أيام الصيام.

٧ – ﴿**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾؛ تسهيل وتخفيف عن المرضى والمسافرين.

٨ – ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ**﴾؛ تخفيف عن مجموعة آخرين من الشيوخ والعجزة ومن يشق عليه الصيام.

٩ – ﴿**وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ**﴾؛ تبيين لفوائد الصيام وأنَّ هذا الحكم إنَّما هو لمصلحة الناس.

١٠ – وفي آخر هذه الآيات يقول: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾.

إنَّ هذه الآيات وعبر بيانها الرائع، والمتَّسم بالمعالجة النفسية، عرضت فلسفة وفوائد الصيام، وأوضحت حالات التخفيف والتسهيل، ولفتت الأنظار للأهمية المعنوية لشهر رمضان المبارك ونزول القرآن الكريم فيه، استخدمت أفضل أسلوب للنفوذ إلى ضمير ووجدان المخاطب مشرعة بذلك حكم الصيام الإلهي.

إنَّ الآيتين الآنفتي الذكر ما هما إلاّ نموذجين من استثمار العلم والحكمة والفن والإبداع في البيان القرآني الذي يؤلّف بمجموعه الخلقة الفنية للقرآن المجيد. وإنه لمن نافلة القول أن يستلهم كافة المسلمين من الكتاب العزيز

أدوات الفن بفروعه المختلفة نحو المزيد من إشاعة الثقافة القرآنية ونشرها بين الأجيال وفي مختلف العصور وخاصة بين الجيل الواعد، ولا يغلقوا الطريق أمام التحديث والتجديد والإبداع.

علينا أيضاً أنَّ لا ننسى أن شهر رمضان المبارك الذي هو شهر ضيافة الله تعالى وأنَّ الحضور حول مائدة رحمته الواسعة هو انطلاقة للتحرُّك في مسير التكامل الإنساني الإلهي والمعنوي نحو التقرب لله تعالى والوصول إلى(فطرة الله).

إنَّ الخروج بنجاح من امتحان محاربة هوى النفس وتسويلات إبليس وكذلك بلوغ الذروة في التقوى والزهد حيث الغاية النهائية للصيام في عيد الفطر السعيد وفيه العودة المنتصرة للصائمين إلى الفطرة الإنسانية – الإلهية الطاهرة والأصيلة. هذا الفوز العظيم يتكامل بإقامة صلاة العيد التي هي تجسيد لوحدة صف المسلمين وأخوّتهم ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۞ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾[1].

إذن: يؤصل القرآن في خلد الإنسان العودة إلى فطرته وما تقتضيه من النظر في الكون وتناسقه الكاشف بكل وضوح عن خالقه العظيم، فإذا غفل عن ذلك غفل وفسق عن فطرته نفسها. ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[2].

كما يؤصّل أيضاً فيه حسّ الفنّ والإبداع الفني باعتبارهما ميلين فطريين لينطلق الإنسان متكاملاً مجدداً ـ وهي خاصية لا يتمتع بها غيره من الحيوانات – عاملاً على إعمار الأرض وتحقيق مقتضيات خلافته لله سائراً تحت ظل الله يقوده الأنبياء مرحلة مرحلة شاهدين عليه في سفينة الحياة. وكأنَّ الآية التي تتحدَّث عن سفينة نوح تتحدَّث عن سفينة التاريخ كله إذ تقول: ﴿**وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[3].

---

١ ـ سورة الأعلى: ١٤ ـ ١٥.

٢ ـ سورة الحشر: ١٩.

٣ ـ سورة هود: ٤١.

النموذج الثاني
سيدنا إبراهيم عليه السلام

نموذج الإنسان الحضاري الكامل[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[2].

---

١ ـ بحث ألقي في مؤتمر الأديان الإبراهيمية المنعقد في قرطبة باسبانيا، بتاريخ ١٩٨٧/٢/١١ من قبل المفكر المسلم رجاء غارودي.

٢ ـ سورة الحج، ٧٧ ـ ٧٨.

يكاد يكون سيدنا إبراهيم(عليه السلام) لشخصية الوحيدة التي تجمع البشرية المتألهة على اعتبارها الأسوة الحسنة، وما نسعى إليه في هذا المقال هو دراسة نقاط الالتقاء الإنساني التي تنسجم مع أصولنا العقائدية جميعاً لنجعلها منطلقاً حيّاً لمسيرة إنسانية واحدة، ومن ثمّ لنعمل على تقريب الفرد المساهم في الحضارة الإنسانية من هذا النموذج الفريد.

وقبل استعراض ما يقرره القرآن الكريم حول هذه الشخصية العظيمة يجب أن نلاحظ بعض النقاط كمقدمات تمهيدية توضّح توجه النظرية الإسلامية للحياة أوّلاً بأبعادها العامة، ثم نستعرض الدور الذي يلعبه الفرد في هذا التوجه الحضاري الإنساني.

كما نركّز على العقبات التي تنطرح أمام مسيرة هذا التوجُّه نحو أهدافه الكبرى مشيرين إلى العلاج المتصوَّر. كل ذلك يؤكّد أنَّ الصورة القرآنية عن هذا الرجل الموحّد يمكنها أن تشبع تماماً كل الحاجات التي تفترضها تلك النظرية في الرجل الذي يصنع التقدُّم الحضاري ويترك بصماته على التطور الحقيقي ـ من وجهة نظر الإسلام ـ أي التطور المنسجم مع خط الفطرة الصاعد إلى اللّه تعالى.

أهم المبادئ للنظرية الإسلامية حول الحياة الحضارية الإنسانية

الأوّل: أنَّ الحياة الإنسانية نعمة الهية منّ بها اللّه ـ الرحمن الرحيم ـ تعالى على هذا الموجود وكرّمه بها ليوصله إلى كماله الوجودي المناسب له.

الثاني: أنَّ هذا الموجود الإنساني لا يصل إلى كماله إلاّ من خلال عمل اجتماعي حضاري تاريخي ومتدرج ومتكامل، تقوده إلى تكامله هدايتان تشكّل

إحداهما نبيّه الداخلي، وهي الفطرة بكل ما فيها من طاقات للمعرفة النظرية والعملية، ودوافع نحو استكناه المجهول، والاتّجاه للكمال والتديّن للإله المطلق، وقدرات للتعقّل والتجريد والاستدلال، وتجاوز الحدود المادية، وهذه هي الهداية الفطرية. في حين تشكل الأخرى عقله الخارجي الذي نسميه(بالوحي) وهي الهداية التشريعية التي تكمل عنصر الإرشاد لديه وتهيئه للوصول إلى الهدف.

الثالث: أنّ المسيرة الإنسانية تصادفها مشكلات جمّة يمكن تلخيصها بما يلي:

١. مشكلة عدم الإيمان بأي وجود أعلى، وبالتالي عدم التسليم لأي قيمة او قانون، وهو ما نسميه أحياناً بـ(الإلحاد).

٢. مشكلة الإيمان المفرط بآلهة وهمية تأتي نتيجة عملية تصعيد ذهني لبعض الوجودات المؤثرة حقيقة أو حتى وهماً وبالوصول بها إلى مستويات مطلقة، وجعلها موجَّهة تمام التوجيه للحياة.

٣. مشكلة التعارض بين المصالح الذاتية والمصالح الاجتماعية.

٤. مشكلة عدم وجود الدافع الذاتي للتسليم للحدود الاجتماعية وتطبيق النظام الأصلح حتى ولو كان يعارض المصالح الشخصية.

٥. مشكلة خمول الطاقات الفطرية نتيجة التخلّف الاجتماعي. وغير ذلك من المشاكل التي تترك أعظم الآثار السلبية على المسيرة الحضارية الإنسانية.

فالمشكلة الأولى: إذا تحكّمت في المجتمع ـ وكذلك المشكلة الرابعة ـ فإنهما تؤديان إلى تحلل عارم، وعدم انتماء مقيت فظيع لا تستقر معه حياة، ولا يسلم فيه قانون، وبالتالي لا تفترض معه مسيرة سالمة.

والمشكلة الثانية: إذا انتشرت مزّقت البشرية إلى جماعات متناحرة، وأوقفت عجلة التقدُّم الإنساني؛ باعتبار أنَّ هذه الآلهة الوهمية تتحوّل إلى قيود على الذهن الإنساني الحضاري؛ لأنَّها وليدة وضع متخلّف، فلا تسمح ـ إذن ـ بوضع أكثر تطوراً.

والمشكلة الثالثة: تكاد تكون هي سرّ كل هذا الظلم والحيف والجور والتعدّي على حقوق الجماعة، وما إلى ذلك من الفسق والانحراف عن المسيرة الإنسانية السلمية.

أما المشكلة الرابعة: فهي قد تحوّل الإنسان إلى مجرد حيوان وديع مسخر للطبيعة أو لمصالح الإنسان الآخر، وبالتالي تفقده القدرة على احتلال دوره الحضاري المنشود، وهنا نذكّر بأنَّ هذه المشاكل قد تكون أحياناً ناشئة من طبيعة الإنسان نفسه، كما قد تكون ناشئة من عوامل خارجية طارئة، إلاّ أنّ النظرية الإسلامية ـ والواقع يؤيدها ـ تؤكد أنّ الحلول الحقيقية لهذه المشاكل الحضارية تكمن في الدين، وهو ما تقود إليه الفطرة والطبيعة الإنسانية نفسها، وبالتالي فإذا تجسّد الدين في الرجل الحضاري استطاع أن يغيّر المسيرة.

أما كيف يتم الحل على يد الدين فهو ما يمكن تلخيصه بالأمور التالية:

أوّلاً: يعتمد الدين الإلهي مسألة الإيمان بالله العظيم، وهو المطلق الحقيقي الذي تنزع إليه الفطرة كل النزوع، ولا تستريح إلاّ بالوصول إليه والاطمئنان بذكره ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[1].

وهو الوجود الحقيقي الذي لم يصنعه الذهن القاصر بل هو خالق الوجود.

١ ـ سورة الرعد: ٢٨.

وثانياً: يعتمد مسألة الوحي وامتداد الرحمة الإلهية إلى البشرية لتستمدَّ من(العلم الإلهي) و(اللطف الرباني) ما يعطي الإنسان المخطط التفصيلي لحياته الصاعدة بعد ما أعطته فطرته المخطط الإجمالي لذلك.

وثالثاً: يعتمد مسألة الآخرة والحياة الإنسانية الممتدة إلى عوالم الخلود، وبالتالي تتحوّل الحياة من وجود محدود إلى حياة خالدة.

ورابعاً: ينظّم كل الشؤون الحياتية ويربّي النفس الإنسانية على حبٍّ يتعالى على الأمور الدنيا ليذوب في الله العظيم. ويتحوّل إلى تسليم حنيف خالص له جلّ وعلا لا يرى حقيقة في الوجود إلاّ هو، ولا مولى في الكون إلاّ هو، ولا محبوباً غيره، ولا مؤثراً سواه. جلّت قدرته وآلاؤه. وعندما يتأصل الدين في وجود الإنسان ويملأ عليه وجوده وإحساساته فسوف لن تبقى أية مشكلة من المشاكل السابقة على الإطلاق، ولا معنى لتصوّر الإلحاد، أو التأليه الكاذب، أو التغليب الجشع للمصالح الفردية، أو العصيان، أو حالات الخمود الفطري، كلاّ وإنما يعود السير طبيعياً نحو الكمال المطلق، وكادحاً نحو الله ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾[1].

الرابعة: أنَّ الإنسان الفرد يستطيع أن يغيّر نفسه ومجتمعه ومسيرته الحضارية، لا بل إنّ الإسلام يطلب من الإنسان المؤمن أنَّ يدعو ربَّه دائماً ليجعله إمام المتقين. وبهذا الإحساس نقول: إنّ النظرية الإسلامية لا تذيب الفرد في دوامة المجتمع في نفس الوقت الذي تعترف فيه بالإطار الاجتماعي النظيف مجالاً خصباً للتحول التكاملي للفرد. وبهذا يمكن أن يكون الفرد في سلوكه (أمة) على سعتها إذا امتلك تأثيرها المطلوب، وتفجرت لديه طاقات الفطرة الكامنة،

١ ـ الانشقاق: ٨٤.

وطفحت على سطح سلوكه دفائن العقل والنفس اللامادية الفاعلة، وهكذا كان إبراهيم عليه السلام [١].

إبراهيم عليه السلام نموذج الرجل الحضاري القائد

إنَّ القرآن الكريم ليركّز على شخصية إبراهيم عليه السلام تمام التركيز والتأكيد، بما لا نظير له من بين الشخصيات القيادية التي يطرحها اللهمَّ إلاّ شخصية الرسول العظيم محمد صلى الله عليه وآله التي يعتبرها تجلياً لدعاء سيدنا إبراهيم، وأسوة للبشرية الصالحة.

وقبل أنَّ نستعرض بشكل إجمالي خصائص هذه الشخصية نشير إلى نقطتين مهمتين في البين هما:

أوّلاً: إنَّ ملاحظة دقيقة لهذه الخصائص توضّح لنا أنَّ إبراهيم عليه السلام كان يتمتّع بكل الخصائص الحضارية للفرد القائد المغيِّر، وأنَّه استطاع ـ أو أنَّ القرآن الكريم استطاع من خلال إبراز هذه الخصائص ـ أن يصوّر أروع كيفية للتغلب على كل نقاط الضعف التي أشرنا إليها من قبل.

ثانياً: إنَّ القرآن الكريم يؤكّد بكل دقة على علاقة الأمة الإسلامية بإبراهيم عليه السلام وذلك بأساليب كثيرة.

فهو تارة يجعله والذين معه أسوة حسنة للمسلمين ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾[٢].

١ ـ للتعمق في هذا المجال راجع ما كتبه الإمام الشهيد الصدر في نهاية كتابه «الفتاوى الواضحة» حول دور العبادات في حياة الإنسان.

٢ ـ سورة الممتحنة: ٤.

وأخرى يجعل الأمة الإسلامية مظهر إجابة لدعائه عليه السلام ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾[١].

ويطلق عليه ـ تارة ثالثة ـ اسم (الأب) ﴿**مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾[٢].

كما أنّه يأمر هذه الأمة باتباع هذه الملة الحنيفة ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[٣].

وهكذا جاء في قوله تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾[٤]. حيث يتمّ الربط بين إبراهيم والدور الحضاري للأمة وبالتالي فإنَّ أولى الناس بإبراهيم هم أتباعه وهذا النبي والمؤمنون ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٥] .ويتجلّى هذا الربط أروع تجلٍّ بعملية الحج حيث تبدأ العملية تاريخياً برفع قواعد هذا البيت.

١ ـ سورة البقرة: ١٢٩.
٢ ـ سورة الحج: ٧٨.
٣ ـ سورة النحل: ١٢٢.
٤ ـ سورة الحج: ٧٨.
٥ ـ سورة آل عمران: ٦٨.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١].

ثم بذلك النداء التاريخي يطلقه عليه السلام منادياً كل فصائل التوحيد لتطوف حول البيت الحرام: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٢].

وبذلك يتم الربط العظيم بين إبراهيم وهذه الأمة وكل ما تقوم به من عمل حضاري (تردد نفس النشيد وتعمل نفس العمل وترفع نفس الشعار).

من الخصائص التي يذكرها القرآن لإبراهيم عليه السلام

لعل أهم الصفات التي يتحدث عنها القرآن الكريم، وأجمعها؛ هي صفة (الحنيفية) والتي تعني باختصار (صفاء الإيمان، وعمقه في النفس، وتحوله إلى تسليم مطلق للّه تعالى).

يقول تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

﴿قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٥].

---

١ ـ سورة البقرة: ١٢٧ و ١٢٨.

٢ ـ سورة الحج: ٢٧.

٣ ـ سورة البقرة: ١٣٥.

٤ ـ سورة آل عمران: ٩٥.

٥ ـ سورة النساء: ١٢٥.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّه حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

وهذه الصفة هي مقتضى المسير الفطري السليم وهو ما أكّد عليه الأنبياء جميعاً، فبعد ذكر قصة إبراهيم والتركيز على خطه يأتي هذا المقطع القرآني: ﴿صِبْغَةَ اللّه وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّه صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾(٤). ولذلك يعتبر القرآن ملة إبراهيم هي الطريق السليم، وما عداها لا يعدو السفه ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾(٥).

ويؤكّد سلامة خطه عن كل لون آخر ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٦).

ويعتبر شريعته الصراط المستقيم ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٧).

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّه حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٨).

---

١ ـ سورة الأنعام: ١٦١.
٢ ـ سورة النحل: ١٢٠.
٣ ـ سورة النحل: ١٢٣.
٤ ـ سورة النحل: ١٢٣.
٥ ـ سورة البقرة: ١٣٠.
٦ ـ سورة آل عمران: ٦٧.
٧ ـ سورة الأنعام: ١٦١.
٨ ـ سورة النحل: ١٢٠ و ١٢١.

وخلاصة الأمر أنَّ (الحنيفية) والإخلاص لله هي سر الوجود الحضاري الفاعل. بعد هذا لنستعرض بإجمال أهم الصفات التي يذكرها القرآن لهذه الشخصية وهي:

أوّلاً: الإيمان البالغ حد اليقين النافذ للقلب والوجود كله، وهو ما نلحظه في مجموع الآيات.

ثانياً: التأمل والتفكُّر والتعقل الدائب:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْه اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحبُّ الآفلينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئن لَّمْ يَهْدنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ منَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ منَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ثالثاً: الدعوة إلى التوحيد بشتى الوسائل ومنها إقامة بيت التوحيد.

رابعاً: الحجاج الفطري السليم في مجال الدعوة إلى الله:

﴿وَإِنَّ من شيعته لإِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ جَاء ربَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞ إِذْ قَالَ لأَبِيه وَقَوْمه مَاذَا تَعْبُدُونَ ۞ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۞ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۞ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۞ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ۞ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ۞ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۞ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ۞ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۞ وَالله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

---

١ ـ سورة الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩.

٢ ـ سورة الصافات: ٨٣ ـ ٩٦.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۞ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ ۞ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۞ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۞ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۞ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۞ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ۞ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۞ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۞ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[2].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا

١ ـ سورة الأنبياء: ٥١ ـ ٦٤.

٢ ـ سورة مريم: ٤١ ـ ٤٥.

نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۞ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۞ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۞ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۞ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

خامساً: التسليم المطلق للّه تعالى يقول القرآن المجيد:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ۞ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ أَمْ كُنتُمْ

---

١ ـ سورة الشعراء: ٦٩ ـ ٧٧.

٢ ـ سورة العنكبوت: ١٦ و ١٧.

شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1].

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۞ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۞ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ۞ لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ۞ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[2].

---

١ ـ سورة البقرة: ١٢٦ ـ ١٣٣.

٢ ـ سورة التوبة: ١١٣ ـ ١٢٠.

﴿الْحَقُّ من ربِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ ۞ فَمَنْ حَآجَّكَ فيه من بَعْد مَا جَاءكَ منَ الْعلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ ونَسَاءنَا ونَسَاءكُمْ وأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ الله عَلَى الْكَاذبِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا منْ إِلَه إِلاَّ الله وَإِنَّ الله لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَليمٌ بالْمُفْسدينَ ۞ قُلْ يَا أَهْلَ الْكتَاب تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَة سَوَاء بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ به شَيْئًا وَلاَ يَتَّخذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّه فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلمُونَ﴾[1].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسنٌ واتَّبَعَ ملَّةَ إِبْرَاهيمَ حَنيفًا واتَّخذَ اللّهُ إِبْرَاهيمَ خَليلاً﴾[2].

سادساً: الاهتمام بالمسيرة الإنسانية كلها والبدء بالذرية:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمنًا واجْنُبْني وبَنيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبعَني فَإِنَّهُ منِّي ومَنْ عَصَاني فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحيمٌ ۞ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ من ذُرِّيَّتي بوَاد غَيْر ذي زَرْع عند بَيْتكَ الْمُحَرَّم رَبَّنَا ليُقيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوي إِلَيْهمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۞ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفي وَمَا نُعْلنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّه من شَيْء في الأَرْض وَلاَ في السَّمَاء ۞ الْحَمْدُ للّه الَّذي وَهَبَ لي عَلَى الْكبَر إِسْمَاعيلَ وَ إِسْحَقَ إِنّ ربِّي لَسَميعُ الدُّعَاء ۞ رَبِّ اجْعَلْني مُقيمَ الصَّلاَة ومن ذُرِّيَّتي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء ۞

---

١ ـ سورة آل عمران: ٦٠ ـ ٦٤.

٢ ـ سورة النساء: ١٢٥.

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[١]

سابعاً: الصراع الفكري والعملي ضد الأصنام وإعلان البراءة الدائمة من خطها العملي:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...﴾[٢].

ثامناً: عدم التخوّف من الشرك وآلهته المزيفة وتهديداته:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

تاسعاً: التضحية التامة في سبيل الهدف، وكل حياة إبراهيم عليه السلام تضحية بالنفس والأهل والولد في سبيل الهدف....

عاشراً: توفير البيئة الصالحة لتلقّي الرحمة والبركة الإلهية:

﴿قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[٤].

حادي عشر: امتلاك الصفات الإنسانية العليا:

---

١ ـ سورة إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١.

٢ ـ سورة الممتحنة: ٤.

٣ ـ سورة الأنعام: ٨٠ و ٨١.

٤ ـ سورة هود: ٧٣.

﴿وَمَن يَعْمَلْ منَ الصَّالحَاتَ من ذَكَر أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمنٌ فَأُوْلَئكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقيراً ۞ وَمَنْ أَحْسَنُ دينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسنٌ واتَّبعَ ملَّةَ إبْرَاهيمَ حَنيفًا واتَّخَذَ الله إبْرَاهيمَ خَليلاً﴾[1].

﴿إنَّ إبْرَاهيمَ لَحَليمٌ أَوَّاهٌ مُّنيبٌ﴾[2].

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بمَا في صُحُفَ مُوسَى ۞ وَإبْرَاهيمَ الَّذي وَفَّى ۞ ألاّ تَزرُ وَازرَةٌ وزْرَ أُخْرَى ۞ وَأَن لَّيْسَ للإنسَانَ إلاّ مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى﴾[3].

﴿وَاذْكُرْ عبَادَنَا إبْرَاهيمَ وَإسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلي الأَيْدي وَالأَبْصَار ۞ إنَّا أَخْلَصْنَاهُم بخَالصَةَ ذكْرَى الدَّار ۞ وَإنَّهُمْ عندَنَا لَمنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَار ۞ وَاذْكُرْ إسْمَاعيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَار ۞ هَذَا ذكْرٌ وَإنَّ للْمُتَّقينَ لَحُسْنَ مَآب﴾[4].

ثاني عشر: الدعاء واللجوء الدائم إلى اللّه:

﴿رَبَّنَا إنِّي أَسْكَنتُ من ذُرِّيَّتي بوَاد غَيْر ذي زَرْع عندَ بَيْتكَ الْمُحَرَّم رَبَّنَا ليُقيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئدَةً مِّنَ النَّاس تَهْوي إلَيْهمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۞ ربَّنَا إنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفي وَمَا نُعْلنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّه من شَيْءٍ في الأَرْض وَلاَ في السَّمَاء﴾[5].

---

١ ـ سورة النساء: ١٢٤ و ١٢٥.

٢ ـ سورة هود: ٧٥.

٣ ـ سورة النجم: ٣٦ ـ ٤١.

٤ ـ سورة ص: ٤٥ ـ ٤٩.

٥ ـ سورة إبراهيم: ٣٧ و ٣٨.

ثالث عشر: الجهاد المتواصل:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[1].

وبعد كل هذا ألا يحق لنا أن نعبّر عن إبراهيم عليه السلام بأنَّه النموذج الإنساني الحضاري الكامل، وأنَّه (الأمة) القائمة لوحدها، وأنَّه المحور الذي يجب أن تجتمع حوله الأديان جميعاً وتسير في ظلّه محققة هدفه وهدف الأنبياء جميعاً، وهو تعبيد الإنسانية للّه، والصراع ضد الطاغوت والاستكبار **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ...﴾**[2].

ولذا فإننا ندعو البشرية جمعاء إلى هذا المستوى الرفيع، وإلى نبذ كل الأطروحات المادية التي سلبتها وجودها الإنساني الأصيل ومقامها المكرم، وذلك رغم ما طرحته من شعارات برّاقة كالحرية والديمقراطية، والضمان والاشتراكية، والعلاقات الاقتصادية المتوازنة، وما إلى ذلك، وما هي في الواقع إلاّ جسور لتحقيق المطامع الجشعة لأرباب الكارتلات النفطية، وشركات الاحتكار العالمية، ومؤسسات النقد الدولية الجاثمة على صدور الشعوب الضعيفة.

وإننا بعد هذا لندعو البشرية إلى أن تؤطّر كل نظمها الحياتية(التربوية، والاقتصادية، والحقوقية وغيرها) بإطار أخلاقي إنساني رفيع، يعتمد عناصر الثبات الفطرية، ويتّجه نحو الكمال المطلق بفلسفة شاملة تركّز على خصائص

١ ـ سورة الحج: ٧٨.

٢ ـ سورة النحل: ٣٦.

الإنسان الأصيلة(التعقل، الاندفاع المتحرك دائماً نحو الكمال، الإرادة الواعية) والحضارة إذا فقدت هذه العناصر فقدت روحها وسارت بالبشرية إلى وديان العذاب والدموع، فإلى حياة القرآن الكريم ندعو كل الشعوب.

النموذج الثالث
سيدنا موسى عليه السلام منقذ المستضعفين

في وجه فرعون رمز الطغيان

ذكر سيدنا موسى عليه السلام في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، وكلها تركّز عليه مثالاً للإنسان المؤمن الصابر القائد المتحرّق لأمته المتألّم لاستضعافها العامل على إنقاذها من ظلم فرعون وملأه.

ويمكن أن نلخّص هذا النموذج الإنساني النبوي بالأمور التالية:

١ ـ القائد الحريص على هداية قومه ونجاتهم والمذكّر لهم دائماً بنعم الله والمحرّض على الجهاد والمربّي لهم عقائدياً وخلقياً ﴿**وإذ قَالَ مُوسَى لقَوْمه يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نعْمَةَ اللّه عَلَيْكُمْ إذ جَعَلَ فيكُمْ أَنبيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْت أَحَدًا مِّن الْعَالَمينَ ۞ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلبُوا خَاسرِينَ**﴾[1].

---

١ ـ سورة المائدة: ٢٠ ـ ٢١.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۞ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۞ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[١].

٢ ـ الإنسان الحريص على خدمة المستضعفين كما في قصة نصرته للإسرائيلي[٢]، والسقاية لا بنتي شعيب[٣]، الحريص على التعلم كما في قضيته مع العبد الصالح[٤]، والمخلص المقرَّب العابد الساجد الباكي عند سماع آيات الله[٥].

٣ ـ الإنسان الصابر المجاهد المتحمل للمشاق في سبيل دعوته، الذاكر لله كثيراً، الغاضب لله من انحراف قومه[٦].

كما تكرر أيضاً ذكر فرعون باعتباره رمزاً للطغيان وان سلوكه يعبر عن سلوك نوع الطغاة والمستكبرين فهو يسوم قومه سوء العذاب[٧]، ويكذّب بآيات الله[٨]، ويظلم بها[١]، ويتهم الرسول بالسحر[٢]، وهو يمتلك مغاليق الإيمان فلا

١ ـ سورة إبراهيم: ٥ ـ ٨.
٢ ـ القصص: ١٨ ـ ١٩.
٣ ـ القصص: ٢٣ ـ ٢٦.
٤ ـ الكهف: ٦٠ ـ ٨٢.
٥ ـ سورة مريم ٥١ ـ ٥٢.
٦ ـ سورة طه: ٩ فما بعدها.
٧ ـ سورة البقرة: ٤٩.
٨ ـ سورة آل عمران: ١١.

يمكن لأحد أن يؤمن بشيء إلاّ بعد استئذانه[٣]، وهو يفتن قومه بالأساليب الخداعة ويقودهم إلى الضلال[٤]، وهو يستعلي ويسرف في الأرض[٥]، وهو من الطاغين المتجاوزين للحدود الطبيعية[٦]، وهو من المتآمرين الكائدين[٧]، الفاسقين الخارجين عن الفطرة[٨]، الممزّقين لشعوبهم[٩]، وهو من المدعين للإلوهية المتفرّدة[١٠]، ومن المستكبرين[١١]، الذين يعذبون شعوبهم بأقسى أنواع العذاب[١٢]، ويعملون على أن تفقد الشعوب وزنها أمامهم[١٣]، إلى غير ذلك من الأوصاف التي يطلقها القرآن عليه ليكشف حقيقة الخط الذي يقف أمام خط المسيرة الإنسانية الصاعدة التي يقودها الأنبياء: مرحلة مرحلة، ويشهدون عليها وهي تطبق شرع الله فتنعم بشرف العبودية التي تعني، كلما تأصلت في الفرد، القرب من الكمال وتحقيق هدف الخلقة ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[١٤].

١ ـ سورة الأعراف: ١٠٣.
٢ ـ سورة الأعراف: ١٠٩.
٣ ـ سورة الأعراف: ١٢٣.
٤ ـ سورة يونس: ٨٩، طه: ٧٩، الزخرف: ٥١.
٥ ـ سورة يونس: ٨٨، القصص: ٤، النازعات: ١٧.
٦ ـ سورة طه: ٢٤.
٧ ـ سورة طه: ٦٠.
٨ ـ سورة النمل: ١٢.
٩ ـ سورة القصص: ٤.
١٠ ـ سورة القصص: ٣٨.
١١ ـ سورة العنكبوت ٣٩.
١٢ ـ سورة الفجر: ١٠.
١٣ ـ الزخرف: ٥٤.
١٤ ـ سورة الذاريات: ٥٦.

ولاريب أنَّ خط الإيمان سينتصر، وأنَّ خط الفراعنة والطغاة المستكبرين سينتهي إلى الضياع والهلاك. وإذا كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون تتكرر فإنَّها تعرض من جهة أخرى نماذج تاريخية متكرّرة تنبّه المؤمنين في كل عصر إلى أساليب الطغاة ليحذروها وليصمدوا أمامها.

النموذج الرابع
مستقبل المجتمع الإنساني

للقرآن الكريم تصوّره الواضح عن مستقبل الوجود الإنساني، وله أساليبه المختلفة لتركيز هذا التصوّر في ذهن الإنسان المسلم، كما أنّ له تخطيطه الأصيل في دفع البشرية نحو تحقيق هذا التصوّر وتجسيده واقعاً حياً. ولكن قبل الدخول في صميم الموضوع لابدَّ لنا من كلمتين تمهدان لنا السبيل:

الأولى: نقولها ردّاً على تساؤلات وجدت من يطرحها، وهي تقول: أليس البحث عن تصوّر كامل للمستقبل يعدُّ من ترف القول ومن الانسياق الطوبائي نحو عالم مجهول؟ ولماذا نتوقّع من القرآن بالخصوص أن يعطينا هذا التصور ونحن نعلم أنّ القرآن كتاب هداية وإيديولوجية عملية للحياة... وليس كتاباً علمياً مدرسياً. يحدّثنا عن قوانين الكون ويكشف لنا مغاليق الأسرار، تماماً كما تفعل الكتب العلمية في الفيزياء وعلم النفس والبيولوجيا؟ إنّ القرآن لا يصادر مجالات الإبداع الإنساني ويطرح نفسه بديلاً عن هذا الإبداع.

ويضيف هؤلاء بأنّ القرآن لو كان كتاباً علمياً لاختص بمجموعة من العلماء والفلاسفة ولم يعد كتاب هداية. إذاً فنحن لا نتوقع من القرآن حديثاً عن المستقبل الإنساني وما يتطلّبُهُ هذا الحديث من كشفٍ لقوانين الحياة الاجتماعية وسنن التاريخ الجارية؟

ونقول في جواب هؤلاء المتسائلين: إنّنا لو لاحظنا الحقائق التالية لأدركنا أنّ هذه العملية الكاشفة لما كانت تتعلّق بالساحة التاريخية فإنّها تكاد تكون من أهمّ الخطوات المحقّقة للهدف الإيديولوجي العادي للبشرية، وأنّ الكشف عن هذه الحقيقة العلمية هنا له دوره الأكبر في تحقيق الهدف الإنساني الأقصى بلا ريب. وهذه الحقائق باختصار هي:

أولاً: وجود الترابط المنطقي الطبيعي بين نظرة الفرد والأُمة إلى الكون والحياة والإنسان، وبين نوع الايديولوجيا العملية التي تحكم سلوكه وسلوكها. أمّا محاولات إنكار هذا الترابط فما هي إلا شبهاتٌ لا غير.

ثانياً: أنَّ القرآن الكريم إذ يصوّر مستقبل الإنسان، فإنّه يعمل على أن يحققه الإنسان بإرادته وفكره لا عن كراهة وانغمار في موجة الجبر التاريخي، بل إنّما باعتباره المصير الطبيعي للمسيرة الفطرية.

ثالثاً: أنّ تصوّر المستقبل الإنساني الأكمل والإنشداد إليه بفعل وجود الميول الطبيعية الفطرية للكمال والمعرفة لهما أثرهُما المهم في إندفاع الإنسان نحو تحقيقه... إنّ الساحة التاريخية الإنسانية هي الساحة الوحيدة التي يؤثّر فيها التنبؤ العلمي بالحادثة والظاهرة المستقبلية في تحقيق هذه الظاهرة نفسها. وأخيراً يجب أن نلاحظ أنّ قضية المستقبل الإنساني ليست مما يختصّ به إنسان أو يتخصّص له آخر، بل الحديث عنها حديث للجميع.

فالقرآن على هذا لا يصادر إبداع الإنسان بل يفجّره في مجال صنع هذا المستقبل وعبر إعطائه النظرة الكونية الشاملة بما فيها صورته عن المستقبل، وعبر دفعه لصنعه بكل اختيار وإرادة مؤثراً بتنبؤه على سير الإنسان نحوه.

والكلمة الثانية: تدور حول بعض التصوّرات الإنسانية لمستقبل الإنسانية نفسها، ولكن قبل عرض هذا البعض نودّ أن نؤكّد على أنّها لا تعدو كونها تنبؤات وأحلاماً لا كاشف علمياً لها، بل قد لا يستطيع الدليل العلمي بمعناه الدقيق المصطلح (أي الدليل التجربي) أن يكشف لنا عن مثل هذا القانون والقوانين التي ترسم لنا المستقبل بوضوح. أمّا القرآن الكريم فباعتباره كلام خالق الكون والحاضر لديه كل المخلوقات والقوانين ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[1].

القرآن يمتلك مطلق الحقّ في الحديث عن ذلك، ولك أن تتابع الأدلّة التي تسوقها الرأسمالية والماركسية لتصوّرها المستقبلي ليتوضّح لديك ما قلناه بالفعل، وعلى أي فإنَّ الرأسمالية عندما اشتدّت صورتها تصوّرت الجنة الإنسانية الموعودة في مجتمع تسوده الحريات الفردية الكاملة، سواء السياسية منها أو الاقتصادية أو الشخصية أو الفكرية، وبنت ذلك على أساس من التصوّر الأوماني للمجتمع والأيديولوجية الليبرالية ـ وهي الأساس الفكري لكل الرأسمالية ـ مدعية أنّها بذلك قد أشبعت طموحات الإنسان بهذا التصوّر، وأنّ الإنسانية لابدّ سائرة نحو بناء مجتمع الجنّة الرأسمالية.

---

١ ـ سورة يونس: ٦١.

ولكن الواقع كذَّب هذا التصوّر أيَّما تكذيب، وكشف عن عقبات كثيرة أمامه، ونتائج فظيعة له، الأمر الذي دفع الكثير من المجتمعات للارتماء في أحضان النظام المقابل للرأسمالية وهو النظام الاشتراكي الماركسي لاحبّاً فيه ـ في كثير من الأحيان ـ بل تخلّصاً من الرأسمالية وويلاتها.

أمّا التصوّر الماركسي للمستقبل فهو أبعد خيالاً؛ إذ يصوّر القمة العليا للمجتمع الإنساني في شكل مجتمع تفنى فيه أكثر الغرائز الإنسانية أصالةً (وهي غريزة حب الذات). وحينئذ فلا داعي للدولة ولا داعي لتوابعها بل الناس يتحرّكون بشكل طبيعي نحو المصلحة الاجتماعية دون أن يفكروا بالمصلحة الشخصية أو يعرفوا لها معنىً في قاموسهم النفسي. ولكن قبل الوصول إلى هذا المجتمع يجب أنّ تمرّ البشرية بمرحلة ستار حديدي تذوب فيه الحريّات، وتقتلع فيه من النفوس كل الرواسب الرأسمالية. ويكفي في ردّ هذا التصور أنّه يستبطن مخالفة لأعمق أصالة فطرية في الإنسان، وأنَّ الواقع الإنساني الذي نعيشه أو ندرسه يوضّح بطلان هذا التصوّر، وأنّه لا يملك أيّ دليل علمي يُثبته. ذلك أنّ أساسه قائم على نظرية المادية التاريخية وهي نظرية أوهتها حتى مقاييسها هي، فالتجربة أثبتت البطلان، والتاريخ يكذّب هذه القولبة الاقتصادية، إضافة إلى الأدلّة الفلسفية القاطعة على بطلان المذهب المادي نفسه عموماً.

القرآن والمستقبل

بعد هذا، فلنعرف تصوّر القرآن عن المستقبل الإنساني عبر قراءة الآيات الشريفة التي تشير إلى هذا المستقبل ومنها الآية الشريفة: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ**

دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ منْ بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَني لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئًا ومَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلكَ فَأُولَئكَ هُمُ الْفَاسقُونَ﴾[١].

والآية الشريفة: **﴿ونُريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذينَ اسْتُضْعفُوا في الأَرْض ونَجْعَلَهُمْ أَئمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الْوَارثينَ ۞ ونُمَكِّنَ لَهُمْ في الأَرْض ونُرِيَ فرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا منْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾**[٢].

فالآية وإن كانت تتحدث عن حادثة تاريخية لكنها بملاحظة قرينة لحنها والروايات الواردة فيها تعطي حقيقة عامة.

والآية الشريفة: **﴿إنَّ الأَرْضَ للَّه يُورثُهَا مَنْ يَشَاءُ منْ عبَاده وَالْعَاقبَةُ للْمُتَّقينَ﴾**[٣].

وعبر الجمع بين الآية القرآنية الشريفة: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّي رَسُولُ اللَّه إلَيْكُمْ جَميعًا﴾**[٤].

وآيات انتصار الدين على غيره وهي توحي بشيءٍ من الصورة المستقبلية للقرآن بالإضافة إلى تصدّيها لبيان هدف الرسالة.

و**﴿هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدَى وَدين الْحَقِّ ليُظْهرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرهَ الْمُشْرِكُونَ﴾**[٥].

و**﴿هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدَى وَدين الْحَقِّ ليُظْهرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَكَفَى باللَّه شَهيدًا﴾**[٦].

---

١ ـ سورة النور: ٥٥.
٢ ـ سورة القصص: ٥ ـ ٦.
٣ ـ سورة الأعراف: ١٣٨.
٤ ـ سورة الأعراف: ١٥٨.
٥ ـ سورة التوبة: ٣٣، والصف: ٩.
٦ ـ سورة الفتح: ٢٨.

ومنها الآية الشريفة: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[1].

ومن خلال آيات أخرى ترتبط بهذا المجال نعرف أنّ الصورة المستقبلية القرآنية يمكن تلخيصها بما يلي:

قيام الحكومة العالمية الواحدة التي يقودها المؤمنون الصالحون الذين مكَّن الله لهم دينهم في الأرض، وانتشرت راياته على ربوعها، والذين ينطلقون في بناء المجتمع العابد الموحّد الذي لايلوثه شرك أو كفر أو طاغوت أو خوف ذلك المجتمع الذي يسوده عدل الإسلام، وتغمره بركات الله تعالى، المجتمع الفطري السائر في سبيله الطبيعي، الكادح إلى ربّه كدحاً، وعبر قيمومة الدين وهداية الوحي.

فالأرض كلها حكم واحد يقوده الصالحون، والدين فيه هو القيّم، والفطرة فيه هي المتجلية، والمعايير هي معايير دين الفطرة، والعبادة لله هي أجل مظاهر الفطرة، والتنافس في السير إلى الله تعالى يدفع الركب حثيثاً نحو مراقي الكمال.

ومن الطبيعي بعد هذا أن يكون الرخاء المادي في أقصاه؛ لأنّ سبب المشكلة الاقتصادية في تصور القرآن هو الظلم في التوزيع، وكفران النعمة في الإنتاج، وإذ ينتفيان تنهل نعم الله. يقول تعالى: ﴿**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾[2].

هذه هي خلاصة الصورة التي يقدّمها القرآن عن المستقبل العام، ثم يعمل على تركيزها في التصوّر بأساليب مختلفة. ومن المناسب هنا أنّ نشير إلى الأحاديث

١ ـ سورة الروم: ٣٠.

٢ ـ سورة إبراهيم: ٣٤.

الكثيرة الواردة في الإمام المهدي عليه السلام ودولته، وأنّه سيحكم الأرض ويغمرها عدلاً ويطهّرها من الظلم والجور والفتك، ويحقّق مضمون الآيات الكريمة حيث يكون الدين كله لله، فيتحكّم الإسلام في كل مرافق الحياة.

أساليب القرآن في تأكيد هذه الصورة المستقبلية

والواقع أنَّ هذه الأساليب كثيرة وينبغي أن ندرك مغزاها بعد أن نأخذ بعين الاعتبار ما قلناه من الجوانب الإجمالية للصورة المستقبلية ومنها الموارد التالية:

أولاً: التركيز القرآني على لزوم أن تؤتي المسيرة الإنسانية ثمارها، وأنّها لم تخلق عبثاً وباطلاً، وأنّ هدف الخلق لابدّ متحقق، وهو العبادة والعبودية الشاملة ـ وهي ناظرة إلى الدنيا قبل الآخرة ـ وأنّ الأصلح هو الباقي في الأرض، يقول تعالى: ﴿**فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ۞ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۞ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۞ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۞ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ**﴾[1].

والظاهر أنّها تتحدّث عن فناء الباطل في هذه الدنيا فتذكر احدى السنن التاريخية وكيف أنّ الإنحراف يؤول إلى الفناء في النهاية، وأنّ الهدف الإلهي، سيتحقق في الأرض. وهنالك آيات أخر تؤكّد هذا المعنى، منها قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ**

١ ـ سورة الأنبياء: ١٥-١٩.

النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾[١].

ثانياً: التأكيد القرآني على إعطاء المجتمع الإنساني والأمم حياةً لها كل خصائص الحياة الإنسانية، فلها أجل وكتاب واضمحلال، ولها سنن تسلك بها إلى التكامل، على أنّ الفطرة هي العامل المشترك بين أفراد الإنسان.

وبالتالي فهي العامل الذي يترك اكبر الأثر في المسيرة والذي لا يحذف بتاتاً من حياة الإنسان ـ رغم محاولات تشويهه وإخفائه ﴿**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**﴾[٢]. كل ذلك بشكل لا يفقد معه الإنسان إرادته كما يفقدها أمام القوانين الطبيعية، وإنّما تشكّل هذه السنن أرضيّةً مساعدةً لإتّجاه الإرادة الإنسانية نحو صنع المستقبل الأفضل، أو فلنعبّر بأنّ الإرادة الإنسانية تحفّز نحو تحقيق موضوع القانون التاريخي الذي يصنع الأفضل (ذلك بأن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم) فبإرادة الناس يبدأ التغيير المطلوب.

ثالثاً: يؤكّد القرآن على وحدة المسيرة الإنسانية ووحدة المسؤوليّة التاريخية ووحدة الخلافة الإنسانية، ووحدة الشريعة الالهية، ووحدة المسيرة النبوية باعتبارها خطّ الشهادة على المسيرة الإنسانية.

والآيات التالية تركّز ما قلناه:

﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[٣].

﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ**﴾[٤].

---

١ ـ سورة الرعد: ١٧.

٢ ـ سورة الروم: ٣٠.

٣ ـ سورة البقرة: ٣٠.

٤ ـ سورة الأنعام: ١٦٥.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[١].

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٢].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾[٣].

وروى الترمذي أنّه ﷺ قال: إنّما مثلي ومثل الأنبياء قبلي كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلاّ موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجّبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة[٤].

رابعاً: يؤكّد القرآن الكريم أنّ الكون بُني على الحقّ والعدل والهدفيّة الدقيقة، وأنّ أي حركة باتجاه الحق والعدل ستحظى بمعونة تكوينية ـ قد لا نعلم نحن تأثيرها ـ ولكنها على أي حال حقيقة قرآنية كاملة.

فالكون كله يسبّح الله، وإذا سبّح الإنسان والمجتمع وعبدا الله فقد انسجما مع الكون، والكون يقوم على ميزان عادل، فينبغي للإنسان أن لا يطغى في الميزان، بل ينسجم مع الكون. وهكذا يوالي القرآن في آيات متفرقة تأكيد حقيقة الإنسجام حتى يشعر المسلم بأنه إذ يكبّر يسمع تكبير الكون معه، وهذا ما تؤكّده

١ ـ سورة الأحزاب: ٧٢.
٢ ـ سورة الشورى: ١٣.
٣ ـ سورة المائدة: ٤٥.
٤ ـ سنن الترمذي ٥: ١٤٧.

بعض الروايات. ومن هذا الباب الآيات التي تربط بين الأُمور المعنويّة والظواهر الماديّة ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾[١].

وكذا القانون الذي ذكره الله تعالى للمسيرة الإنسانية عند بدئها ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾[٢]. ومن الواضح أنّ هذا الربط يعني أنّ المنتصر في الأرض هو العدل والحق في النهاية.

كما يمكننا أنّ نعدّ من ذلك الآيات التي تؤكّد حبّ الله للمحسنين، والتوّابين والمتطهّرين والمتّقين والصابرين، والمتوكّلين، والمقسطين، و﴿**الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ**﴾[٣] وغيرهم، وذلك إذا لاحظنا أنّ الحبَّ هنا لا يمتلك بعداً عاطفياً بقدر ما يعبّر عن فيض إلهي ورحمة بهؤلاء، وهي تنعكس في الدنيا نصراً على أعدائهم وتحكيماً لهم ولدعوتهم بلا ريب، وفي الآخرة جنة وحريرا.

كما أن القرآن الكريم يؤكّد على عنصر الإمداد الغيبيّ للرعيل المؤمن العامل في سبيل الله، وهذا ما نلاحظه في كثير من الآيات الشريفة ومنها قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٤].

و﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[٥].

---

١ ـ سورة الأعراف: ٩٦.

٢ ـ سورة طه: ١٢٤.

٣ ـ سورة الصف: ٤.

٤ ـ سورة العنكبوت: ٦٩.

٥ ـ سورة غافر: ٥١.

و ﴿**بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾[١].

خامساً: تأكيد القرآن الكريم على أنّ الأنظمة الوضعية البشرية صائرة إلى الفشل حتماً، وأنّها مهما بدت عميقة الجذور، قويّتها؛ فستنتهي إلى الفناء حتماً. ذلك أنها- في تصوّر القرآن – غير منسجمة مع المسيرة الكونية من جهة، وتحمل في وجودها عناصر فنائها؛ باعتبار أنّ التماسك الحقيقي داخل أي نظام لا يمكن ان يتمّ إلاّ عبر عقيدة واقعية حيّة لا غير.

أمّا التماسك الوطني والقومي والمصلحي والجنسي والعقائدي المادي فما هو إلاّ عاملٌ وقتي ـ لا يمتلك إلاّ جذوراً عاطفيّة أو وهميّة ـ لبس لبوس الواقع وسرعان ما تكشف الفطرة خداعه وزيفه.

ومن جهة ثالثة، فإنّ الولاء العقائدي الحقيقي هو الذي يضمن لوحده وحدة الهدف حقيقة، وينفي تعدّد الولاءات أو ما يعبَّر عنه بالشرك في الولاء فلا إله إلاّ الله، ولا مقياس إلاّ رضاه، وهذا ما تفقده الأنظمة الوضعية بكل وضوح.

﴿**وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ**﴾[٢].

و﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾[٣].

و﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا**

١ ـ سورة آل عمران: ١٢٥.

٢ ـ سورة يونس: ٦٦.

٣ ـ سورة الزمر: ٢٩.

جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[١].

و﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾[٢].

وفي سياق استعجال الناس أيام الرسول للعذاب الذي أصاب المكذّبين من قبل تقول الآية الكريمة:

﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**﴾[٣].

كما يستفاد منها أنّها ناظرة إلى عذاب الدنيا والهلاك الحضاري فيها.

وهنا أساليب أخرى يسلكها القرآن لتأكيد إيمان المسلم بالنصر النهائي وذلك بملاحظة الإخبار الإلهي الحق بأنّ النتيجة الحتميّة لتطبيق الإسلام بكل عناصره في أيّ مجتمع هي دفعه إلى الامام، وجعله الأعلى في الأرض، وضمان انتصاره على باقي النظم، فإذا انضمَّ إلى هذا إيمان المسلم بلزوم تحقيق الوعد الإلهي عبر علمه الحضوري بالمستقبل، وقدرته المطلقة على تحقيق مشيئته البالغة.

بعد هذا لا يبقى مجال للتشكيك في ايمان الفرد والمجتمع المسلم بضرورة حصول تلك الصور القرآنية المستقبلية.

ولكن يبقى في علمه حقيقةُ أنّ تحقّق هذه الصورة يحتاج إلى تهيئة واستعداد ومقدمات، ولا يتم إلاّ عبر جهود مضنية تغيّر بها الأُمة ما بأنفسها ليغيّر الله ما بها، ويتحقّق الأمل الكبير واليوم الموعود.

---

١ ـ سورة النور: ٣٩.

٢ ـ سورة العنكبوت: ٤١.

٣ ـ سورة الحج: ٤٧.

وسائل تحقيق الصورة القرآنية عن المستقبل الإنساني

بعد أن عرفنا وسائل التركيز القرآني للصورة المستقبلية، ينبغي أن نستعرض بإجمال شديد ـ يناسب المقام- الوسائل التي يسلكها القرآن للتحريض والتحريك نحو تجسيد هذه الصورة وتحقيق مقدماتها الضرورية وذلك على النحو التالي:

أولاً: يعمل القرآن ـ كما رأينا قبل قليل ـ على تركيز هذه الصورة في الأذهان وتوضيحها، والتركيز أسلوب مقدَّمي للتحقيق، فالتاريخ هو الحقل الذي يؤثر فيه التنبؤ العلمي في تحقيق النتائج كما قلنا من قبل.

ثانياً: يطلب القرآن الكريم من الطليعة الإنسانية ـ ومن ثم الجميع ـ أن يعملوا على تحقيق التغيير الداخلي، وتنفيذ عملية الجهاد النفسي الأكبر؛ بالتأمُّل في أبعاد النفس ومعرفة عناصرها وميولها وكواشفها الفطرية، وتقوية جانبها المسيطر على مجمل التحرّك، وهو جانب الفكر والإرادة، وإطلاق الصرخة الوجدانية، وبالتالي إيجاد الاستعداد لتقبُّل المدد الإلهي، وتحقيق موضوع الوعود الإلهية بالنصر. ونعني به (الصبر والتقوى) وإنزال الإسلام إلى واقع التطبيق.

وإذا كان تعبير الجهاد الأكبر ينصرف إلى تطهير الفرد نفسه؛ فإنّه يمكن أن يأتي بنفس المستوى على صعيد الأمة نفسها، إذ عليها أن ترجع إلى نفسها لتعرف مكنوناتها، وتدرك نقاط ضعفها وقوّتها، ومن ثم تعمل على استرجاع خصائصها التي أرادها الإسلام لها بعد أن تنفي مظاهر الشرك والطاغوت من حياتها.

وخلاصة الأمر أنّ القرآن يؤكّد أنَّ الإسلام وحده هو سبيل تحقيق الصورة المستقبلية الأمثل، وأنّ البشرية إذا أرادت لنفسها ان تحيا بعد الموت فليس

أمامها إلا سبيل الإسلام لا غير. والحقيقة هي أنّ الإسلام والقرآن يعملان على إعادة الحياة الى الحالة الطبيعية لتستكمل مسيرتها التكاملية، وهذه الحالة تتطلب عودة العقلانية والجوار المنطقي، وهو ما لا يريده أعداء البشرية، ومن هنا نجد التأكيد القرآني على عنصر التعقُّل وضرورة الالتزام بشروط الحوار . كما نجد التأكيد القرآني الشديد على العدالة واعطاء كل ذي حقٍّ حقّه باعتبار ذلك من مقومات السير الاجتماعي الطبيعي المتكامل.

فإذا توفرت هذه الأمور ضمنا تحقّق المستقبل الإنساني المطلوب قرآنياً، وتحقّق الوعد الإلهي للمؤمنين بوراثة الأرض وكون الدين كله لله.

النموذج الخامس:
الحوار منطق الانسان

إذا كان الإسلام قد سمح بالاجتهاد واعتمد العقل والبرهان سبيلاً منطقياً للإقناع، فمن الطبيعي أن يحبذ الحوار ويدعو إليه على كل الأصعدة، وهي من قبيل:

أ – الحوار بين المسلمين المختلفين في الشؤون الشخصية.

ب – الحوار بين المختلفين في القضايا الاجتماعية.

ج – الحوار بين الفقهاء.

د – الحوار العقائدي.

هـ – الحوار بين الأديان.

و – الحوار بين الحضارات.

وفي كل هذه الأنماط نجد النصوص الإسلامية تركّز على بعض الشروط الضرورية، وقد تحدَّث علماؤنا القدامى عن آداب الحوار والجدال، ولكننا ندخل ما ذكروه جميعاً في

منطقة الشروط الضرورية، لأنّها جميعاً إن لم تتوفر عرَّضت النتائج لخطر التمويه. وما نريد التحدّث عنه من الشروط المهمة هو ما يلي:

أولاً: تحرير محل الحوار أو امتلاك البصيرة في الحوار

وهو أول شرط وأهمه، فإن الحوار قد يكون مضيعة للوقت. إذ يتبين للمتحاورين بعد فترة طويلة أنّهما كانا يركّزان حديثهما على محورين مختلفين، أو وجهتين متفاوتتين، ولذا كان ديدن علمائنا البدء بتحرير محل النزاع وتشخيص أبعاده ليكون الاستدلال منتجاً، وهذا شرط منطقي لا نحتاج للاستدلال عليه[١]. ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[٢].

ثانياً: الموضوعية:

ونعني بها الدخول إلى مرحلة الحوار بعد التخلّي موقتاً عن كل القناعات السابقة والسعي لطلب الحق أينما كان. وهذا هو القرآن الكريم يخاطب الرسول الكريم، وهو القمة في الايمان واليقين، بان يدخل في الحوار بروح موضوعية هادفة ليقول: ﴿**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[٣].

ويقول تعالى: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[٤].

---

١ ـ راجع الكافية للجويني: ٥٤٠، وقاموس الشريعة للسعدي ٣: ٦.

٢ ـ سورة يونس: ١٠٨.

٣ ـ سورة سبأ: ٢٤.

٤ ـ سورة القصص: ٤٩.

وهو أمر أكَّده السابقون من علماء الأخلاق وغيرهم. يقول صاحب(المحجة البيضاء في إحياء الاحياء) عند التحدّث عن شروط المناظرة:

«الأول: أن يقصد بها إصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتّفق، لا ظهور صوابه وغزارة علمه وصحة نظره، فإنّ ذلك مراء منهي عنه بالنهي الأكيد. ويضيف «أن يكون في طلب الحق كمنشد ضالة يكون شاكراً متى وجدها ولا يفرق بين أن يظهر على يده أو يد غيره فيرى رفيقه معيناً لا خصماً ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر له الحق»[١].

ويقول تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾.

وممّا يذكر بهذا الصدد أنّ الخوارج احتجّوا على الإمام علي عليه السلام بأنه شك في صلاحيته للخلافة بقوله للحكمين: «انظرا فإن كان معاوية أحقّ بها فاثبتاه وإن كنت أولى بها فاثبتاني فأجابهم بأنّ ذلك لم يكن شكاً منه ولكنه أنصف في القول وذكر هذه الآية (**وإنّا أو إيّاكم** ...) ولم يكن ذلك شكاً وقد علم الله أن نبيّه على الحق[٢].

ثالثاً: الانسجام بين مؤهلات أطراف الحوار والموضوع نفسه:

فلا معنى للحوار حول موضوع لا تعلمه الأطراف أو لا يعلمه احدهم أو لا يتخصَّص فيه إن كان ممّا يحتاج للتخصص.

يقول تعالى: ﴿**هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ**

١ ـ المحجة البيضاء في شرح الأحياء للغزالي ١: ٩٩ ـ ١٠٠ والغزالي في احياء العلوم ١: ٤٣.
٢ ـ الاحتجاج: ٤٤٤ ـ طبعة قم.

فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[١].

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٢].

وهنا يقول أحد العلماء: «الثامن: أن يناظر مع من هو مستقل بالعلم ليستفيد منه إن كان يطلب الحق»[٣].

ومن هنا فنحن نعتقد أنّ طرح الاستدلالات العلمية الدقيقة في المجامع العامة مع اختلاف مستويات الحاضرين أمر يجانب شروط الحوار.

رابعاً: الانطلاق من المبادئ المتَّفق عليها:

إنَّ الحوار لن ينتج مطلقاً إذا لم تكن هناك مبادئ متَّفق عليها مسبقاً، وفرضيات مسلَّمة يرجع إليها المتحاوران. ومن هنا ردَّ الجميع عنصر المصادرة على المطلوب واعتبروه أسلوباً مخاتلاً... ولا سبيل هنا إلاّ التنبيه على بعض القضايا الوجدانية، ومن هنا نجد القرآن الكريم يردُّ على أولئك المنكرين للبديهيات بتنبيههم لخطأ ما يعتقدون وإيقافهم أمام تساؤلات فطرية؛ إذ يقول تعالى لأولئك المقلدين لآبائهم(دونما منطق):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[٤].

ويقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ

١ ـ سورة الأنعام: ٦٦.
٢ ـ سورة غافر: ٥٦.
٣ ـ المحجة البيضاء ١: ١٠١.
٤ ـ سورة البقرة: ١٧٠.

﴿مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آَبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[1].

فإنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون بشيء مشترك مع المحاور المسلم، وما عليه إلاّ أنّ ينبهّهم على بعض المشتركات الفكرية من قبيل:

«إنّ المجانين لا يُتبّعون فإذا افترضنا أن آباءهم مجانين فهم لا يُتبّعون؛ اذن عليهم التحقيق».

أو «إنّ الأفضل والأهدى هو المتَّبع فيجب التأكُّد من الأهدى».

خامساً: المنطقية

بحيث يسير البحث بشكل منطقي وتؤدي المقدمات إلى النتائج بشكل طبيعي، وذلك دونما تحايل أو مماطلة أو جدال عقيم، والنصوص التي تنهى عن الجدال والمراء كثيرة.

منها قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[3]. في حين يدعو للبرهنة المنطقية: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[4].

وقد رأينا العلماء يردّون التحايل على الطرف الآخر ويذكرون لذلك أمثلة من قبيل:

أ ـ إبهام العبارة حتى لا يفهمها الطرف.

ب ـ الاحتيال عليه حتى يخرجه من محل تساؤله.

---

١ ـ سورة الزخرف: ٥٨.

٢ ـ سورة الزخرف: ٥٨.

٣ ـ سورة الكهف: ٥٤.

٤ ـ سورة النمل: ٦٤.

ج ـ توجيه كلام السائل إلى وجوه محتملة[١].

بل تحدثوا عن الصفات التي قد يبتلى بها المتحاوران نتيجة عدم القدرة على امتلاك الموقف من قبيل الحقد والحسد والفرح بمساءة الآخرين، والاستكبار عن الحق، والرياء، ولزوم نفيها لكي تعود إلى المحاور شخصيته الطبيعية التي تحقق منطقيته في الحوار.

سادساً: الابتعاد عن جو التهويل أو ما يسمى بتأثير العقل الجمعي

ففي مثل هذا الجو يفقد الحوار جوّه المطلوب، ولا معنى فيه للاستدلال المنطقي الهادئ الحكيم. ومن خير الأمثلة على ذلك ما ذكره القرآن الكريم من جو انفعالي واجه المشركون به النبي ﷺ واتّهموه بالجنون، ولذلك طلب من الرسول ﷺ أن يدعوهم إلى نبذ هذا التهويل والعودة إلى الهدوء المطلوب ثم التفكير بما يتهمونه به، يقول تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[٢].

سابعاً: أن يكون الحوار مما يترك أثراً عملياً أو فكرياً:

فلا معنى للحوار حول افتراضات تجانب الواقع. ولا معنى للتساؤلات غير المفيدة أو التي لا يمكن الإجابة عليها **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾**[٣].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۞ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۞ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾[٤].

---

١ ـ راجع الجويني في الكافية: ٥٤٢ ـ ٥٤٩.

٢ ـ سورة سبأ: ٤٦.

٣ ـ سورة الإسراء: ٨٥

٤ ـ سورة النازعات: ٤٢.

فينبغي أن يتمّ الاهتمام بالقضايا العملية ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾[١].

يقول الغزالي: «الرابع: أن يناظر في واقعة مهمة أو في مسألة قريبة من الوقوع وأن يهتم بمثل ذلك»[٢].

ثامناً: الاتّجاه في الحوار للوصول إلى المساحات المشتركة وتوسيع هذه المساحات:

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلاّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[٣].

تاسعاً: احترام الرأي والطرف الآخر والدقة حتى في التعبير:

يقول تعالى: ﴿قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٤].

عاشراً: إتباع أحسن أسلوب:

يقول تعالى: ﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٥].

---

١ ـ سورة الرعد: ١٧.
٢ ـ المحجة البيضاء ١: ١٠٠.
٣ ـ سورة آل عمران: ٦٤.
٤ ـ سورة سبأ: ٢٥.
٥ ـ سورة النحل: ١٢٥.

﴿وَقُلْ لعبَادي يَقُولُوا الَّتي هيَ أَحْسَنُ﴾[١].

﴿وَلَا تُجَادلُوا أَهْلَ الْكتَاب إلا بالَّتي هيَ أَحْسَنُ إلا الَّذينَ ظَلَمُوا منْهُمْ وَقُولُوا آَمَنَّا بالَّذي أُنْزلَ إلَيْنَا وَأُنْزلَ إلَيْكُمْ وَإلَهُنَا وَإلَهُكُمْ وَاحدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلمُونَ﴾[٢].

١ ـ سورة الإسراء: ٥٣.

٢ ـ سورة العنكبوت: ٤٦.

النموذج السادس
حقوق الإنسان في الاسلام

قد لا نجد من الضروري التحدُّث بالتفصيل عن مناشىء الحق في تصوّرات الإسلام، ولكن نودّ أن نشير إلى أنّ الحق في اللغة هو الثبوت؛ ولذا يطلق على الباري(جلَّ و علا) فيقال: إنّه تعالى هو(الحق المطلق)، ويطلق كذلك على الخبر المطابق للواقع الخارجي. وعلى هذا الأساس نجد القرآن يؤكد على أنّ الكون قائم على الحق ومخلوق بالحق.

﴿**وَهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾[1].

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ بِالْحقِّ**﴾[2].

وعلى هذا النسق يطرح مفهوم اعتباري، وثبوت ذهني لتنظيم العلاقات الاجتماعية ويمكن أن نقول هنا: إنّ الحق إنّما ينشأ من حالة واقعية ثم يضاف إليه اعتبار عرفي أو عقلائي.

---

١ ـ سورة الأنعام: ٧٣.

٢ ـ سورة إبراهيم: ١٩.

وهنا نشير إلى أنّ نظام الحقوق في الإسلام يقوم على أساس من واقعية الإسلام ، أي رؤية الإسلام لواقع الإنسان وفطرته وأهداف خلقته، وعلاقاته بالآخرين والطبيعة.

ومن هنا فإنّ الرؤية كلها تركّز على الإنسان نفسه ولا معنى لتصوّر هذه الحقوق خارج النطاق الإنساني، ولا نقصد من هذا أنّه لا حق لغير الإنسان وإنّما نقصد أنّ أحد الطرفين في الحق هو(الإنسان) فإذا حذفناه من المعادلة لم يعد هناك مجال للحديث عن الحقوق.

نستنتج مما سبق: أنّ للحق لا زمين:

الأول: من له الحق، ولا يشترط أن يكون عاقلاً أو مريداً أو أن يكون قادراً على استيفاء الحق.

الثاني: من عليه الحق، وهنا يشترط الحرية في الإرادة والتعقُّل والذي نركّز عليه هو الثاني، وهو من نعبّر عنه في ثقافتنا الإسلامية بـ(المكلَّف)؛ فإنّ المكلفين إذا قاموا بواجباتهم وتكاليفهم فإنَّهم يوفرون للآخرين حقوقهم.

الحقوق المتشابكة:

إذا لا حظنا أنّ الحياة هي مجموعة علاقات متشابكة، واحتياجات متقابلة فمن الطبيعي أن نتصوّر التشابك في الحقوق، فإذا أضفنا إلى هذا الأمر حقيقة أنّ التخطيط الإسلامي لتنظيم الحياة هو تخطيط منسجم ومترابط بحيث لا يمكن لأي جانب أن يحقق هدفه إلاّ في إطار تطبيق الجوانب الأُخرى، تأكَّدنا من عملية التشابك في الحقوق... حتى ليكاد المرء لا يميز بين الحقوق الفردية والاجتماعية.

وهنا نذكّر بالمقولة القرآنية التي تعلن أنّه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[١].

لتؤكّد على أنّ القرآن الكريم ذكر كل هذه الحقوق وركّز عليها وطلب الالتزام بها إلى الحد الذي يُعدّ معه من لا يقوم ببعضها مكذّباً بأصل الدين ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[٢].

ومن هنا فنحن لن نستطيع استقراء كل الحقوق الفردية والاجتماعية التي ذكرها القرآن فنقتصر على الإشارة لبعض الأنواع من هذه الحقوق مع ذكر بعض المقاطع القرآنية الشريفة التي تطرحها تاركين الدراسة الشاملة لمجالات أوسع.

وبمقتضى تحديدنا السابق لمن عليهم الحق نجد هنا المحاور التالية:

الفرد؛ باعتباره جزءاً من المجتمع، وباعتباره حاكماً على المجتمع.

المجتمع؛ باعتباره يمتلك شخصيةً اجتماعية تختلف عن الشخصيات الفردية التي تكوّنه.

اما إذا لا حظنا جانب من لهم الحق أو الطرف الآخر في الحق، فإننا نجد المساحة تتسع جداً وتتشعب كثيراً بدءاً من الحقيقة المطلقة والوجود الواجب أي الله تعالى فحقوقه هي الأصل، لأنّه تعالى هو الحق وما عداه هي وجودات تعلّقية تستمد وجودها منه تعالى، فهو المنعم المفضّل ذو الجلال والإكرام.

ومروراً بكل المخلوقات (الملائكة، الرسل، القرآن، التاريخ، الزمان، المكان، الطبيعة...) ومنها المخلوقات الإنسانية أفراداً ومجتمعات.

وانتهاء بالنفس الإنسانية فحتى النفس لها حقوقها على الفرد نفسه، ومعنى

١ ـ سورة الأنعام: ٣٨.

٢ ـ سورة الماعون: ١ ـ ٣.

هذا أنّ شعب الحقوق متكثّرة ومن الصعب حصرها، فكلما تغير طرف الحق تغير الحق نفسه.

وعليه فأهم المجالات يمكن تصوّرها على النحو التالي:

حق الله تعالى على الفرد ـ بكلا الاعتبارين.

حق الله تعالى على المجتمع وما يتبع ذلك من حقوق الرسل والرسول ﷺ والقرآن الكريم وغير ذلك.

حق الفرد على المجتمع.

حق المجتمع على الفرد.

حق المسلم على المسلم.

حق النفس على الفرد.

حق الطبيعة على الفرد، وحق الطبيعة على المجتمع.

وهناك حقوق تبعية أخرى من قبيل(حق التاريخ، حق الزمان، حق المكان...) وسنعمل على الإشارة لبعض مواقعها في القرآن الكريم:

١ ـ حق الله تعالى على الفرد باعتباره إنساناً مكلفاً. والحقيقة هي أنّنا لا نستطيع أن نحدّد إطار هذا الحق إلا إذا لاحظنا:

أ ـ العظمة الإلهية؛ باعتباره تعالى الوجود الحق المطلق المنان.

ب ـ الضعف الإنساني الذي لا يمكن أن يوصف لفرطه.

ج ـ النعمة الإلهية الغامرة على الإنسان.

من هنا فلا نملك إلاّ أن نعبر عنه بـ(حق العبودية). وأسمى صفه يمنحها القرآن الكريم لأفضل البشرية هي(العبودية).

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾[١].

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾[٢].

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[٣].

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾[٤].

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٥].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٦].

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعًا﴾[٧].

وإن هذا الحق يستلزم الطاعة التامة لا في ما يطمئن إليه الإنسان من أوامر الله تعالى فحسب بل حتى فيما يحتمله احتمالاً.

ومن هنا رأى المرحوم الشهيد الصدر أنّ ما يسمى في علم الأُصول(بالبراءة العقلية) أمر غير صحيح ولا يمكن التمسك بقاعدة (قبح العقاب بلا بيان) العقلية لأن حق العبودية لله حق واسع جداً فمجرد احتمال إرادة الله لشيء تكفي للدفع نحو تنفيذه فإذا أردنا التمسك بالبراءة في مورد نشك في إلزام المولى سبحانه به، كان علينا

١ ـ سورة مريم: ٩٣.
٢ ـ سورة الفرقان: ٦٣.
٣ ـ سورة فاطر: ٣٢.
٤ ـ سورة ص: ٤٥.
٥ ـ سورة فاطر: ٢٨.
٦ ـ سورة الأنبياء: ١٠٥.
٧ ـ سورة النساء: ١٧٢.

النظر في الأدلة الشرعية فقط وهذه الأدلة بدورها تثبت لنا (براءة شرعية) حين الشك ولا مجال هنا للتفصيل[١].

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لعِبَادَته﴾[٢].

﴿إِنَّنِي أَنَا الله لا إِلَهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لذِكْرِي﴾[٣].

﴿إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٤].

ويستتبع هذا الحق العميم جوٌّ عاطفي هو الحب الإلهي والذوبان في الله تعالى بشكل ينسي الإنسان كل ملاذه في قبال هذا الحب حتى لتعود كل الأمور الأخرى عذاباً للنفس الإنسانية وحجاباً مانعاً عن رؤيته تعالى بعين القلب والحقيقة.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٥].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّه﴾[٦].

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٧].

---

١ ـ انظر: دروس في علم الاصول ١: ١٦٥ ـ ١٦٧و٣٤٨ـ ٣٦٢ و٣: ٢٨ فما بعدها.

٢ ـ سورة مريم: ٦٥.

٣ ـ سورة طه: ١٤.

٤ ـ سورة مريم: ٣٦.

٥ ـ سورة المائدة: ٥٤.

٦ ـ سورة البقرة: ١٦٥.

٧ ـ سورة التوبة: ٢٤.

يقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام في رسالته إلى بعض أصحابه:

«**اعلم أنّ لله عز وجل عليك حقوقاً محيطة بك في كل حركة تحرّكتها أو سكنة سكنتها أو حال حللتها أو منزلة نزلتها أو جارحة قلبتها أو آلة تصرَّفت فيها، فأكبر حقوق الله تبارك وتعالى عليك ما أوجب عليك لنفسه من حقه الذي هو أصل الحقوق**».

ويضيف بعد ذلك: «**فأما حق الله الأكبر عليك فأن تعبده لا تشرك به شيئاً فإذا فعلت بالإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة**»[1].

وهكذا تنتج العبودية طاعته في أوامر دينه ويتكفّل الدين التخطيط المناسب لسعادة الدنيا والآخرة.

وينبغي أن نشير هنا إلى مسألة مهمة وهي أنّ المذاهب قد اختلفت في أصل الحقوق هل هو إنسانية الإنسان أم هو القانون أم هو العرف، أم هو العقل؟!

والذي نعتقده على ضوء تعاليم القرآن هو أنّ كل شيء اعتباري جعلي يجب أن يعود إلى الوجود الحقيقي الفطري الأصيل، والحقوق الاعتبارية يجب أن ترجع إلى مقياس ومعيار، ونحن لا نتصوّر أمامنا طريقاً لمعرفة أساس الحقوق سوى الوجدان باعتباره الحقيقة الواضحة والمشتركة لدى افراد الإنسان جميعاً، وليس هناك غير الفطرة منطلقاً للمعرفة الإنسانية، وهذه الفطرة هي التي تقود إلى الله تعالى ووجوده المطلق وحقه الذي هو أصل الحقوق، فإذا أوصلت الإنسان إلى الله تعالى، وضع الإنسان يده على مفتاح الحقوق الإنسانية باعتباره سوف يؤمن بالوجود والوحدانية واللطف الإلهي والقدرة الإلهية والعلم الإلهي وبالتالي

١ ـ رسالة الحقوق ـ من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ٤: ٥١٢.

سوف يؤمن بأن الدين الثابت عن هذا الوجود الرحيم العالم القادر هو الذي سيوضح له الحقوق بالتفصيل.

﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**﴾[١].

﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾[٢].

﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[٣].

ونعود فنؤكّد على دور الفطرة ونضيف إلى ذلك القول بأنّ المذاهب التي تنكر الفطرة كالمذاهب المادية لا تستطيع أن تصل إلى أساس حقيقي للحقوق وبالتالي فلن تستطيع أنّ تحقّق معياراً إنسانياً مقبولاً في هذا الصدد.

وينتهي الأمر بالإنسان أن يرضى بما يرضى الله وأن لا يحب إلاّ في الله، قال الله تعالى: ﴿**هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[٤].

﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ**﴾[٥].

﴿**رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾[٦].

ومن هذا الحق تنطلق باقي الحقوق، وتتفرع الواجبات.

﴿**وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ**

١ ـ سورة الزخرف: ٩.
٢ ـ سورة الزخرف: ٨٧.
٣ ـ سورة الروم: ٣٠.
٤ ـ سورة المائدة: ١١٩.
٥ ـ سورة المجادلة: ٢٢.
٦ ـ سورة البينة: ٨

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[١].

حق الدين

فالدين الحق يجب أن يتبَّع لأنّه مظهر الإرادة الإلهية، ومجمع الأوامر المقدسة التي انشأها الله تعالى لسعادة الإنسان وخيره.

﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[٢].

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾[٣].

حق الأنبياء

باعتبارهم حملة الأوامر الإلهية وأفضل المقربين إلى الله فيجب الإيمان بهم واحترامهم والعمل بما جاؤوا به(في إطاره المرسوم له) ومحبّتهم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٤].

ويصف بعض الأنبياء بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[٥].

---

١ ـ سورة النمل: ١٩.
٢ ـ سورة الزمر: ٣.
٣ ـ سورة الشورى: ١٣.
٤ ـ سورة البقرة: ٤.
٥ ـ سورة الأنعام: ٩٠.

حق الرسول ﷺ

باعتباره خاتم الرسل وسيد الأنبياء وأفضل البشرية جميعاً، وباعتباره المضحّي في سبيل الإنسانية فله من الحقوق ما لا يحصى وله من المحبّة ما لا يحدّ، والقرآن الكريم يؤكّد على ذلك.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله وَالَّذينَ مَعَهُ أَشدَّاء عَلَى الْكُفَّار رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّه وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُود...﴾[1].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فيكُمْ رَسُولَ اللَّه لَوْ يُطيعُكُمْ في كَثير مِّنَ الأَمْر لَعَنتُّمْ وَلَكنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَانَ وَزَيَّنَهُ في قُلُوبكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعصْيَانَ أُوْلَئكَ هُمُ الرَّاشدُونَ﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّه وَرَسُوله وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَميعٌ عَليمٌ﴾[3].

﴿أَطيعُواْ اللّهَ وَأَطيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ منكُمْ﴾[4].

حق القرآن

وهنا لن نستطيع أن نتحدث عن فضله وعظمته وإنّما نكتفي بمقولة لأمير المؤمنين عليه السلام عنه.

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْه الْكتَابَ نُوراً لا تُطْفَأُ مَصَابيحُهُ وسرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ

---

١ ـ سورة الفتح: ٢٩.

٢ ـ سورة الحجرات: ٦.

٣ ـ سورة الحجرات: ١.

٤ ـ سورة النساء: ٥٩.

وبَحْراً لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ ومنْهَاجاً لا يُضِلُّ نَهْجُهُ وشُعَاعاً لا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ وفُرْقَاناً لا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ وتِبْيَاناً لا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ وشِفَاءً لا تُخْشَى أَسْقَامُهُ وعِزّاً لا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ وحَقّاً لا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ فَهُوَ مَعْدَنُ الإِيمَانِ وبُحْبُوحَتُهُ وينَابِيعُ الْعِلْمِ وبُحُورُهُ ورِيَاضُ الْعَدْلِ وغُدْرَانُهُ وأَثَافِيُّ الإِسْلَامِ وبُنْيَانُهُ»[١].

ومن هنا فمن الحق أن **﴿لا يَمَسُّهُ إِلاّ الْمُطَهَّرُونَ﴾**[٢].

﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣].

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٤].

حق الأئمة من أهل البيت عليهم السلام

باعتبارهم عصمة الأمة وأمانها وسفينة نجاتها، ومرجعها العلمي والمعنوي، وأحد الثقلين الذين أوصى النبي الأمة بهما.

فمودتهم هي أجر الرسالة **﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾**[٥].

وطاعتهم مفروضة على الأمة **﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾**[٦].

---

١ ـ نهج البلاغة: ٣١٥.

٢ ـ سورة الواقعة: ٧٩.

٣ ـ سورة الاعراف: ٢٠٤.

٤ ـ سورة فصلت: ٣.

٥ ـ الكافي ٢: ٤١٥.

٦ ـ سورة النساء: ٥٩.

حق الصحابة المخلصين

باعتبارهم الجيل الطليعي الأول الذي جاهد لحمل هذه الرسالة وضحى في سبيل علائها، وركّز دعائمها، فلهم منّا بطبيعة الحال الحب والتكريم.

﴿**الَّذينَ يَتَّبِعونَ الرَّسُولَ النَّبيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عندَهُمْ في التَّوْرَاةِ وَالإِنْجيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1]. وهكذا يمكننا أن نعتبر باقي الحقوق الفردية والاجتماعية مجموعة أوامر قرآنية يؤدي كلٌّ منها الدور المطلوب في إطار الحركة الإنسانية العامة نحو التكامل.

ويجب أن نذكر هنا بأنّ كلاً من الأفراد والمجتمع مكلَّفون بتطبيق شرع الله وصنع المجتمع العابد المستسلم لله، وتحقيق الشخصية الإسلامية المطلوبة.

الحقوق الفردية والاجتماعية كما يصوّرها القرآن

وكما أسلفنا فإنّ هذه الحقوق متشعبة كثيراً ولذلك فسنشير فقط إلى أهمها مع ذكر بعض النصوص الواردة بشأنها.

حق الفرد على المجتمع

والقرآن الكريم يصوّر الفرد في المجتمع المسلم يحيى أفضل حياة، فالمجتمع يوفر له ما يلي:

---

١ ـ سورة الأعراف: ١٥٧.

أ ـ الاحترام الكامل لحياته وكرامته، وحريته.

ب ـ الجوّ الأخلاقي النظيف الذي يستطيع من خلاله أن يتربى التربية الصحيحة.

ج ـ المستوى المعيشي المطلوب.

د ـ إمكان المساهمة في عملية البناء الاجتماعي والاقتصادي والحقوقي والسياسي والعائلي.

هـ ـ عدم التفرقة العنصرية والجغرافية واللغوية واللونية وغيرها من ألوان التفرقة.

يقول الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾[1].

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾[2].

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[3].

﴿**وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۞ وَالَّذِينَ**

١ ـ سورة النساء: ١.

٢ ـ سورة الحجرات: ١٢.

٣ ـ سورة الحجرات: ١٣.

اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1].

وهناك بحوث تفصيلية هنا عن حقوق الأقليات في المجتمع الإسلامي سواء منها حقوق أهل الذمة أو حقوق أهل العهد، كما أنَّ هناك حقوقاً للمجتمعات الأخرى غير المجتمع الإسلامي لا نجد مجالاً للدخول في تفاصيلها.

حق المجتمع على الفرد

وعلى ضوء التعاليم القرآنية فإنَّ على الفرد تجاه المجتمع حقوقاً كثيراً:

أ ـ أن يقدّم مصالح المجتمع على مصالح نفسه.

ب ـ أن يلتزم بعهوده الاجتماعية، وتطبيق قوانينه.

ج ـ أن يسدَّ حاجاته الأساسية والضرورية باعتبارها واجبات كفائية يعاقب جميع الأفراد لو تركت، وهذا المعنى يشمل الجوانب الاقتصادية والعلمية وغيرها.

د ـ أن يساهم في الدفاع عنه وعن استقلاله، وطهارته، بل وأن يدعم نموّه وتقدّمه.

هـ ـ أن يساعده في تحقيق خصائصه القرآنية.

يقول تعالى: **﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[2].

---

١ ـ سورة الشورى: ٣٦ ـ ٣٨.

٢ ـ سورة الحشر: ٩.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[١].

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٢].

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ﴾[٣].

حق المجتمع على الإمام

والإمام كفرد له واجباته الفردية والاجتماعية ولكنه كحاكم عليه أن يستشير وعليه أن يعدل وينصح، وعليه أن يطبّق شريعة الله وعليه أن يحترم حقوق الشعب ولا يستخفَّ به، وعليه أن يدافع عن استقلال البلد وحريته.

﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٥].

---

١ ـ سورة الماعون: ٤ ـ ٧.

٢ ـ سورة الأنفال: ٦٠.

٣ ـ سورة المائدة: ٢.

٤ ـ سورة التوبة: ١٢٨.

٥ ـ سورة آل عمران: ١٥٩.

حق الإمام على المجتمع

وفي قبال ذلك للإمام حقه على المجتمع وفي طليعة هذه الحقوق النصيحة والمشاورة والمراقبة والطاعة وعدم شقّ عصاها.

يقول تعالى: ﴿**أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[١].

وهنا يفصل الإمام علي عليه السلام وهو تلميذ القرآن هذه الحقوق المتقابلة فيقول: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلا تَجْهَلُوا وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا، وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ**»[٢].

حق الفرد المسلم على الفرد المسلم

وهو ما يعبر عنه بحقوق المؤمنين، وهي كثيرة تعرّض لها القرآن الكريم والروايات الكثيرة، وهو مما لا نستطيع أن نتعرض له بالتفصيل في هذا المقال ولكنا سنشير إلى بعض هذه الحقوق التي تعرَّض لها القرآن الكريم بالإضافة لما أشرنا إليه في مطاوي البحث سابقاً. فمنها: حق الاخوّة بما يستتبعه هذا الحق من حقوق متفرّعة، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[٣].

١ ـ سورة النساء: ٥٩.

٢ ـ نهج البلاغة: ٧٩.

٣ ـ سورة الحجرات: ١٠.

ومنها: حق التحابّ: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾[١].

ومنها: حق التناصر والتعاون: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٢].

ومنها: حق التواصي: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾[٣].

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْمَرْحَمَةِ﴾[٤].

ومنها: حق التبيُّن والتثبت، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[٥].

ومنها: حق أداء الأمانة: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...﴾[٦].

ومنها: الاحترام وحفظ الألقاب الحسنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ...﴾[٧].

ومنها: حق عدم الظن بالسوء، وإذا ما حصل ظن سوء فلا ينبغي التجسُّس، فإذا

---

١ ـ سورة الحشر: ٩.
٢ ـ سورة المائدة: ٢.
٣ ـ سورة العصر: ١ ـ ٣.
٤ ـ سورة البلد: ١٧.
٥ ـ سورة الحجرات: ٦.
٦ ـ سورة النساء: ٥٨.
٧ ـ سورة الحجرات: ١١.

حصل علم بشيء يجب الامتناع عن الغيبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

ومنها: حق التناهي عن المنكر، وقد ذمّ القرآن قوماً ﴿كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[٢].

ومنها: حق العفو: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٣].

﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[٤].

ومنها: حق السلام: ﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[٥].

ومنها: حق الوفاء ومطابقة القول للعمل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾[٦].

ومنها: حق العدالة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[٧].

ومنها: عدم إشاعة الفاحشة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[٨].

---

١ ـ سورة الحجرات: ١٢.
٢ ـ سورة المائدة: ٧٩.
٣ ـ سورة الأعراف: ١٩٩.
٤ ـ سورة الرعد: ٢٢.
٥ ـ سورة النساء: ٨٦
٦ ـ سورة الصف: ٢ ـ ٣.
٧ ـ سورة المائدة: ٨
٨ ـ سورة النور: ١٩.

ومنها: سد الحاجات الضرورية بل الطبيعية: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾[١].

﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾[٢].

ومنها: تعظيم حرمته، فإنّها من حرمات الله تعالى، وقال تعالى: ﴿**وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ**﴾[٣].

وهناك حقوق كثيرة أخرى تذكر لكل المؤمنين ولبعضهم كالجيران والضعفاء والشيوخ لا مجال للتفصيل فيها.

الحقوق العائلية

وهي حقوق فرد على فرد ومجتمع على فرد وفرد على مجتمع باعتبار أن العائلة تمثل لبنة تشكيل المجتمع في التصور الإسلامي، ويكاد الإنسان يلاحظ بشكل مطَّرد أنَّ كل النظرية الاجتماعية والقوانين والاحكام المبتنية عليها تعتمد أصل العلاقات العائلية في التخطيط الاجتماعي السليم وهذه الحقوق متشعبة نشير منها إلى الحقوق التالية.

حقوق الأرحام:

يقول تعالى: ﴿**وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾[٤].

---

١ ـ سورة الماعون: ٤ ـ ٧.

٢ ـ سورة الحشر: ٩.

٣ ـ سورة الحج: ٣٠.

٤ ـ سورة النساء: ١.

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[١].

حقوق الوالدين

يقول تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[٢].

حقوق الزوجين

والقرآن الكريم يتعرض لها بشكل تفصيلي ويعتبر عهد الزوجية ميثاقاً غليظاً ويعطي الجو العائلي معاني الرحمة والتكامل والسكون.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاته أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

حقوق الأولاد

وهي تشكل أيضاً مجموعة منسجمة تعمل على تربية الأولاد وفي الإطار العائلي النظيف، ويتم التركيز على الولد الصالح كعنصر اجتماعي ايجابي سوف يحمل أعباء المستقبل.

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ

١ ـ سورة الإسراء: ٢٦.
٢ ـ سورة الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤.
٣ ـ سورة الروم: ٢١.

وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

ويدعو إبراهيم ربَّه فيقول: **﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾**[2].

حقوق الطبيعة

وربّما يكون هذا غريباً على المذاهب الوضعية أما الإسلام، فيرى أنَّ للطبيعة حقّاً على الإنسان رغم كونها مما لا يعقل وأنّها مسخَّرة للإنسان لكي يعيش فيها ويتكامل ويحقّق الهدف من خلقته. إنَّ عليه أن لا يبذّر فيها ولا يظلم، والظلم هنا يعبّر عنه بكفران النعمة الإلهية وعدم استغلالها الاستغلال المطلوب وإهدار طاقاتها الخيرة. أمّا شكر النعمة فيعني استثمارها على أحسن وجه لخدمة الإنسانية كل الإنسانية.

يقول تعالى: **﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾**[3].

هذا بشكل عام وعندما ندخل في مرحلة التفاصيل فإنَّ كل العلاقات بين

---

١ ـ سورة الاحقاف: ١٥.

٢ ـ سورة الصافات: ١٠٠.

٣ ـ سورة إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤.

الإنسان والطبيعة يحكمها نظام تشريعي خاص يلاحظ الواقع بعلم الهي دقيق، فهناك العلاقة بين الإنسان والحيوانات من حيث إمكان الأكل، ومن حيث الطهارة والنجاسة، ومن حيث الملكية، ومن حيث نوع التعامل وأمثال ذلك، وهناك العلاقة مع الثروات الطبيعية: الأرض والمعادن والطاقات من جهات عديدة أيضاً، ونفس الشيء يقال بالنسبة للمحاصيل الزراعية، وهكذا، ويعدُّ التخلُّف عن هذا النظام أسلوباً من أساليب عدم الوفاء بالحق.

ونحن نجد الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام يعبّر مثلاً عن العلاقة بالمال قائلاً: «وأمّا حق المال فأن لا تأخذه إلاّ من حله، ولا تنفقه إلاّ في وجهه، ولا تؤثر على نفسك من لا يحمدك، فاعمل به بطاعة ربك، ولا تبخل به فتبوء بالحسرة والندامة مع السعة ولا قوة إلاّ بالله»[١].

والحقيقة هي أنَّ الإسلام يصوّر الكون كله منسجماً مع الإنسان ومسبحاً لله تعالى معه وذلك كما نراه في الآيات التالية:

﴿سَبَّحَ لِلَّه مَا فِي السَّمَاوَات وَالأَرْض﴾[٢].

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[٣].

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِه وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِه﴾[٤].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٥].

فهي إذن طبيعة واعية تشعر بواجبها وتسبّح ربّها العظيم. وفي الخبر أنَّ

١ ـ من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ٤: ٥١٢.

٢ ـ سورة الحديد: ١.

٣ ـ سورة الإسراء: ٤٤.

٤ ـ سورة الرعد ١٣.

٥ ـ سورة الإسراء ٤٤.

الرسول ﷺ عندما مرَّ على جبل أُحد قال «هذا جبل يحبنا ونحبه»[١].

حقوق الزمان والمكان والتاريخ

ويأتي في هذا الإطار حديث عن حقوق الزمان والمكان، والعمر، فكل هذه أمور يسأل عنها الإنسان وهل قضى حقها وقام بواجباته تجاهها، أم أهدر نعمها ولم يف بحقها؟

﴿**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۞ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ**﴾[٢]. وحتى التاريخ له حق على الإنسان أن يعتبر به ويستفيد منه للمستقبل.

﴿**قَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[٣].

﴿**... وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾[٤].

والحقيقة هي أنَّ الإسلام ينظر لكل المسيرة الإنسانية كمسيرة واحدة، ويعتبر الفرد والمجتمع جزءاً من هذه المسيرة الممتدَّة الصاعدة نحو الحياة الإلهية الكاملة والمجتمع الذي يحكمه الإسلام كله حيث يكون الدين كله لله، وحيث يرث الأرض عباد الله الصالحون بقيادة الإمام المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً

١ ـ بحار الأنوار ٢١: ٢٤٨.
٢ ـ سورة الدخان: ٢٥ ـ ٢٩.
٣ ـ سورة يوسف: ١١١.
٤ ـ سورة الحشر: ٢.

وعدلاً. ومعنى هذا أنَّ الإنسان مسؤول عن المستقبل، وأنَّ للمستقبل الإنساني حقاً على الإنسان فيجب أن يخطط له ويمهّد ولا يستطيع أن ينظر إلى فترته هو ويتناسى التاريخ والمستقبل.

روي أنّ علياً لما أظفره الله في أحد الحروب، قال له بعض أصحابه: وددت أنّ أخي فلاناً كان شاهدنا يرى ما نصرك الله به على أعدائك.

فقال عليه السلام له: «**أَهَوَى أَخيكَ مَعَنَا؟ فَقَالَ نَعَمْ، قَالَ فَقَدْ شَهِدَنَا، ولَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلابِ الرِّجَالِ وأَرْحَامِ النِّسَاءِ سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ ويَقْوَى بِهِمُ الإِيمَانُ**»[1].

حقوق النفس على الإنسان:

ومن الحقوق الرائعة في التصوّر الإسلامي حقوق النفس الإنسانية على الإنسان نفسه، فإنَّ النفس هبة الله تعالى للإنسان كي يقوم بتحقيق هدفه فليس له أن يفرط في نفسه.

﴿**وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾[2].

وليس له أن يذلَّ نفسه ويستخفَّ بها ويقلّل من وزنها في قبال الطواغيت، فيقول عن فرعون: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾[3].

وليس له أن يقصر بحق أي هبة عضوية أعطاه الله تعالى إياه: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾[4].

---

١ ـ نهج البلاغة: ٥٥.

٢ ـ سورة البقرة: ١٩٥.

٣ ـ سورة الزخرف: ٥٤.

٤ ـ سورة الإسراء: ٣٦.

والأحكام الإسلامية تنظّم حقوق البدن والعين والإذن واللسان والفرج والقلب والعقل بشكل دقيق باعتبارها حقوقاً يجب أن يفي الإنسان بها.

يقول الإمام زين العابدين في رسالة الحقوق المنقولة عن أبي حمزة الثمالي: «**فاكبر حقوق الله تبارك وتعالى عليك ما أوجب عليك لنفسه من حقه الذي هو أصل الحقوق ثم ما أوجب الله عزَّ وجلَّ عليك لنفسك من قرنك إلى قدمك على اختلاف جوارحك فجعل عزَّ وجلَّ للسانك عليك حقّاً ولسمعك عليك حقّاً ولبصرك عليك حقّاً وليدك عليك حقّاً ولرجلك عليك حقّاً ولبطنك عليك حقّاً ولفرجك عليك حقّاً، فهذه الجوارح السبع التي بها تكون الأفعال، ثم جعل عز وجل لأفعالك عليك حقّاً، فجعل لصلاتك عليك حقّاً، ولصومك عليك حقّاً، ولصدقتك عليك حقّاً، ولهديك عليك حقّاً، ولأفعالك عليك حقوقاً**»[1].

وهكذا يعيش الإنسان في عالم من الحقوق والواجبات الأمر الذي لا يستطيع أي مذهب وضعي مادي أن يدركه.

١ ـ من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ٤: ٥١٢.

النموذج السابع:
العلاقات الدولية

تمهيد

قبل الدخول في البحث، ينبغي أن نذكر بعض النقاط لعلاقتها الشديدة بتكوين الصورة الكاملة عن الموضوع، نطرحها بكل اختصار:

١ ـ ربّما تنطرح في الذهن شبهة قديمة تقول: ما معنى هذا البحث؟ الإسلام دين ينظّم الحياة الفردية، والجوانب الاجتماعية المتصلة بها مباشرة، اما المجموع الكلي للعلاقات داخل المجتمع فضلاً عن العلاقات الدولية فلا مجال للحديث عنه.

ولكن الجواب عنها عاد اليوم من نافلة القول بعد وضوح بطلانها، وإذعان الجميع –حتى من لم يطّلعوا اطّلاعاً كاملاً على الإسلام ـ بأنّ الشبهة قائمة على التصوّر الغربي أو الكنسي عن الدين كشأن من الشؤون الفردية وإذا كانوا

يؤمنون بالحرية الدينية ـ وهم بها لا يؤمنون في الواقع ـ فإنّ ذلك قائم على أساس أنّها شأن فردي، وإذا كان جان جاك روسو يرفض أن تمتدَّ قوانين الدين لتشمل الحياة، وعندئذ يحدث ما يسميه بالتعارض بين القوانين الدينية والمدنية، فذلك أيضاً ناشيء من هذا التصور الكنسي المرفوض.

أمَّا التصور الإسلامي الأمثل: فهو يعتبر الدين موقفاً من الكون والحياة والإنسان، تقوم على أساسه عواطف الإنسان، ويتوجَّه من خلالها سلوكه الحياتي في مختلف الشؤون.

بل إنّنا إذا تتبعنا التعاليم الإسلامية، لمسنا أنَّ الجانب الاجتماعي يحتل القسط الأكبر منها، وربّما أمكن القول بأنّ السلوك الفردي يقيم من خلال الذوبان الاجتماعي بهدف إلهي سام. ولسنا بصدد الحديث عن هذا الجانب بقدر الإشارة إلى بطلان الشبهة المطروحة.

٢ ـ باستعراضنا للعلاقات الاجتماعية المفضَّلة لدى الإسلام، ومحاولة استنباط أهم أساس تقوم عليه، لا نجد أمامنا إلاَّ(القسط) و(العدل) كأساس أول، ثم تتطوّر العلاقة لتصل إلى حد(الرحمة والمحبّة) وتواصل سيرها لتبلغ حد (الإيثار والتضحية).

وإذا أردنا أن نجد للعدل مضمونه الصحيح، فإنّنا لا نستطيع أن نستقي محتواه من مقاييس كميّة ـ كالمساواة مثلاً ـ أو مادية أخرى، لأنّنا سنقع حينئذ في مفارقات لا مناص منها، وإنّما نستطيع أن نعرّف له مضموناً صحيحاً إذا أقمناه على أساس الإيمان بالحقيقة الإلهية الكاملة المطلقة، التي تملك كل شيء؛ لأنها خلقت كل شيء، والقائمة بالقسط والعدل في الكون، وكذلك الإيمان بالفطرة والمسيرة الطبيعية للإنسان، فكل شيء يحقق لها الجو الطبيعي المناسب،

ويواكب مسيرتها الصاعدة يعدّ عدلاً، وكل سلوك يتنافى مع متطلباتها يعدّ ظلماً، هذا وقد أودعت في الفطرة نفسها، طاقة الاتجاه نحو العدل، والابتعاد عن الظلم، بل وأودعت فيها قدرة تشخيص بعض المصاديق العادلة أو الظالمة.

٣ ـ من الظواهر التي تتبع مسألة العدالة مسألة الجانب الإنساني في التشريع، فيكفي استعراض سريع لمجموعة من الأحكام الإسلامية، لتكوين نظرة تصديقية، بأنّ الشريعة الإسلامية تأخذ الجانب الإنساني العام بعين الاعتبار دائماً، لا بل نستطيع القول بأنّها بطبيعتها ـ إنسانية، وذلك من خلال تأكيدها على الفطرة وانسجامها معها، وما الفطرة إلاّ الجانب الإنساني الأصيل... .

وها هو القرآن الكريم يؤكّد على أنَّ الإنسانية كانت تعيش الحالة الفطرية الواحدة قبل أن تطرأ عليها حالة التعقيد التي احتاجت إلى نظام أصلح يوفّق بين المصالح الفردية والمصالح الاجتماعية، فبعث الله النبيين مبشّرين بالنظام المنسجم مع الفطرة. وقد ركَّز القرآن الكريم على حقيقة أخرى إلى جنب هذه الحقيقة، وهي: أنَّ ما تصوّروه من فروق يمكنها أن تؤدي إلى نوع من التفاضل الكاذب، إنّما كانت في الأصل لكي تسهل اللقاء الحضاري ويتم التعارف، وهو أرضية ضرورية للتعامل الاجتماعي السليم، أما معيار التفاضل الطبيعي فهو ـ بنفسه ـ سرّ المسيرة الموحَّدة المتناسقة، وهو معيار التقوى الإلهية الفاعلة، وسنعرف من خلال البحث شيئاً من إنسانية النظام الإسلامي.

٤ ـ انسجاماً مع فطرية الرسالة وتأكيدها على الجانب الإنساني، نجد التخطيط الإسلامي يلحظ عنصر الخلود الزماني ويتجاوز الاختلافات المكانية والعنصرية وأمثال ذلك، ولذا نجده في جانب كبير من تخطيطه مرناً مرونة حكيمة، بعيداً عن أية ميوعة، فبتركه لمنطقة المباحات بشكل أولي، ليملأها ولي الأمر طبق

مصلحة الأمة، وعبر نظام التشاور الذي يراه صالحاً للفترة الزمانية والظروف المكانية القائمة، حقَّق مرونة لا نجد مثيلها في أي نظام آخر[١].

وعلى هذا فيجب أن يلحظ هذا الجانب تماماً عند ملاحظة موقف الإسلام من تنظيم العلاقات الدولية العامة.

٥ ـ من الطبيعي كون النصوص القرآنية رغم أنَّها من أعمّ القوانين، فإنّ لظروف الآية وأسباب النزول دورها في توضيح الدلالة. كذلك نجد أن تطبيقات الرسول الأكرم ﷺ، والقادة الأوائل، وسيرة المسلمين التي تكشف عن تأييد المعصوم كل هذا يلقي أضواءً كاشفة رائعة على المدلول القرآني، وإنّ كان الظاهر القرآني يبقى هو الأصل الأساس في البين.

٦ ـ وفي خاتمة هذا التمهيد، نذكر بأننا هنا إنّما نحاول معرفة الأسس العامة التي تقوم عليها المواقف الإسلامية التفصيلية من العلاقات الدولية، اما تحديد تطبيقاتها، ومدى تفوق أي جانب على الجانب الآخر في المواقف المشخَّصة، وأنّى يمكن اتّخاذ المواقف المواجهة، فهذه أمور تقدّرها الخبرة الحاكمة في الدولة الإسلامية وتعيّنها مفردات الواقع القائم.

الإسلام والدولة العالمية

ربّما كان الحديث عن دعوة الإسلام للدولة العالمية، حديثاً عن ضروري من ضروريات الإسلام، أو على الأقل حديثاً عن ضروري فقهي واضح لدى علماء الإسلام وفقهائه.

---

١ ـ يشير بهذا إلى منطقة الفراغ التي ذهب إليها الشهيد الصدر، ولاحقاً الشيخ يوسف القرضاوي وأسماها منطقة العفو مع بعض الاختلافات راجع كتاب: الحلال والحرام للشيخ يوسف القرضاوي. انظر: اقتصادنا للشهيد الصدر: ٦٨٦ ـ ٦٩٢، دورية رسالة التقريب، العدد ١١: ١١١ ـ ١٤١.

فالإسلام جاء ليطبّق في الأرض كلها، وللناس كلهم، وعلى شؤون الحياة كلها، وذلك باعتباره السبيل الوحيد الذي يضمن السير الطبيعي للقافلة الإنسانية نحو كمالها، والحل الأصلح الذي قام على أساس من علم إلهي غير محدود، وتخطيط حكيم لهذه المسيرة من قبل خالق الإنسان والكون.

إنّه دين الحياة كلها، والحياة محورها الاجتماع، والمجتمع لا يتم بدون دولة. فهو إذن يدعو للدولة العالمية الموحَّدة، حيث يكون الدين كله لله. إنّه رسالة جاءت ناسخة لجميع الشرائع، في نفس الوقت الذي جاءت فيه مصدقة لأصولها ونظراتها الثابتة، فكل الشرائع إذن وجدت صورتها الأكمل في الإسلام، وكل البشرية رأت سبيلها الصالح فيه.

والرسول الأكرم ﷺ رسول للناس جميعاً، لا لعشيرة، ولا لفئة، ولا لعنصر، ولا لمنطقة جغرافية معينة، إنَّه رسول خالق الإنسانية لكل الإنسانية.

﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّه إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾[١].

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافّة للناس بَشِّيراً وَنَذِيراً**﴾[٢].

ولهذا نجده ﷺ دعا العالم جميعاً إلى الإسلام، وأرسل رسائله إلى زعماء الدول المعروفة آنذاك، داعياً إياهم إليه، لا بل أعلن عالمية رسالته وهي ما تزال مستضعفة في مكة، حيث جاءت الآيات القرآنية:

﴿**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۞ وَمَا هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾[٣].

---

١ ـ سورة الأعراف: ١٥٨.

٢ ـ سورة سبأ: ٢٨.

٣ ـ سورة القلم: ٥١- ٥٢.

لتؤكّد هذه الحقيقة في المراحل الأولى من الدعوة. و قد ذكر الرسول الأعظم ﷺ مضمون الآية السابقة، في إحدى رسائله وهي التي أرسلها إلى(خسرو پرويز) كسرى، حيث جاء فيها:

«**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، ويشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الإسلام فإنّي أنا رسول الله إلى الناس كافّة، لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس**».

ومن نفس هذا المنطلق بشَّر الأنبياء باليوم الموعود، حيث يعمُّ العدل، ويكون الدين كله لله، وحيث يظهر المهدي المنتظر عليه السلام. إنَّ هذا التبشير بالدولة العالمية منطلق من طبيعته العالمية بلا ريب، على أنَّ أيَّة مراجعة لجوانب التشريعات الإسلامية توضّح للإنسان ـ بما لا مراء فيه ـ أنّ الإسلام مصمم ليكون دين الإنسانية ككل، ذلك لأنّه لا ينطبع بطابع معين، ولا منطقة أو مساحة زمانية أو مكانية خاصة.كل هذا يكاد يكون من نافلة القول.

إلاّ أنَّ الذي نريد أن نؤكده هنا: هو أنَّ الإسلام بادّعائه العالمية يصدق مع ذاته، في حين تكذب كل النظم الأخرى مع أسسها، إذ أنَّ السؤال التالي ينطرح بسرعة في الذهن، بعد ادّعاء أيٍّ منها العالمية والأممية، وملخصه:

ما الذي يبرر للقائمين على النظام أن يوسعوا من أفقه وسلطته ليشمل العالم؟ ومن الذي خوّلهم ذلك؟

إنّنا حتى لو ركّزنا على أكبر المبادئ المدّعية لذلك وهي الماركسية، وجدناها لا تستطيع أن تثبت مبرراً ينسجم مع أسسها هي، على فرض قبولها وسلامتها من

المناقشة، وهو فرض محال، فليس هناك قانون ديالكتيكي واحد يفرض حكومة فئة أو شعب على العالم، بل إنَّ هذه القوانين تقضي باختلاف مسيرة الشعوب لاختلاف مستواها الاقتصادي، وتعقّد علاقاتها الاجتماعية.

وحينئذ فلن يصدق الماركسيون ـ مع ذاتهم الماركسية ـ عندما يعلنون الأممية والدولة العالمية. أما الرأسمالية فهي أعجز من أن تثبت لها أسساً فلسفية، فضلاً عن أن تجد المبرر التاريخي الحضاري لأطروحة حكومة عالمية موحَّدة. أما الإسلام فيستمد عالميته كما رأينا من الأمور التالية:

١ ـ كونه رسالةخالق الإنسان ووليه المطلق للإنسان، والأطروحة النهائية لمسيرة التكامل الإنساني.

٢ ـ وكونه دين الفطرة، والفطرة لا تختلف من إنسان إلى آخر، بل هي الحدّ الإنساني الفاصل.

٣ ـ وكون رسوله ـ رسول الله ﷺ ـ إلى البشرية جمعاء.

هذا ما أردنا الإشارة إليه، كما وددنا أن ننبه على أن الانطلاقة الإسلامية لا يمكن أن تقارن بأي حال إلى أية انطلاقة أخرى... إنّها رسالة الله، وليست ـ كما يدّعون ـ رسالة الرجل الأبيض، أو رسالة التاريخ، أو رسالة التحضير، أو ما إلى ذلك من آلهة وهمية، صاغتها العقلية الاستغلالية الاستعمارية، لتبرّر نهب الشعوب والثروات.

نعم، يمكن لأي إنسان أن يتساءل عن الدليل، أما إذا قبله فلا مناص له من التسليم بالحقيقة.

وعلى أي حال، فإن تحقق هذا الحلم الكبير، حلم الدولة الإسلامية العالمية الواحدة ـ وهو ما نعتقد بلزوم تحقّقه عاجلاً أو آجلاً ـ لم يعد هناك مجال للبحث

عن العلاقات الدولية، وإنّما تعود المسألة علاقة بين القطاعات المختلفة في داخل جسم الأمة الموحدة، وهي الحالة الطبيعية للبشرية، أو فلنعبر: هي الأصل في المسيرة.

إنَّ الإسلام يريد للأرض كلها أن تطوف حول الكعبة محور التوحيد، كما يطوف الكون حول العرش محور الخلق الإلهي، ونستطيع أن نشهد هذه المقارنة في كلمات الإمام علي عليه السلام، التي تشبّه الطائفين بالبيت، بالطائفين بالعرش، حيث يقول:

«**واختار من خلقه سمّاعاً، أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه**»[1].

الانقسام هو الاستثناء

وما يتصوره الإسلام في مرحلة الاستثناء هو أن ينقسم العالم إلى دارين، إحداهما: دار الإسلام، والأخرى: دار الكفر. والحد الفاصل بين الدارين هو السلطة الإسلامية. يقول الإستاد الشهيد عبد القادر عودة:

«الأصل في الشريعة الإسلامية أنَّها شريعة عالمية لا مكانية... ولكن لما كان الناس جميعاً لا يؤمنون بها ولا يمكن فرضها عليهم فرضاً، فقد قضت ظروف الإمكان، أن لا تطبّق الشريعة إلاّ على البلاد التي يدخلها سلطان المسلمين دون غيرها من البلاد.

... ولهذا نستطيع أن نقول: إنّ الشريعة الإسلامية في أساسها شريعة عالمية، إذا نظرنا إليها من الوجهة العلمية، ولكنها في تطبيقها شريعة إقليمية إذا نظرنا إليها

١ ـ نهج البلاغة: ٤٥.

من الوجهة العملية»[١].

وعلى هذا الأساس فتشمل هذه الدار كل بلد سكانه ـ كلهم أو أغلبهم ـ مسلمون، وكل بلد يتسلط عليه المسلمون ويحكمونه.

أما دار الكفر فتشمل مساحتين: دار الحرب ودار العهد.

والعلاقة مع دار العهد تحكمها ـ بالإضافة للقواعد العامة في التعامل مع غير المسلمين عموماً ـ مقتضيات العهد التي يلتزم بها الإسلام بشدة، ويأمر القرآن بكل وضوح بعدم نقض العهد إن كانت شروطه محقّقة ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً**﴾[٢].

في حين تقوم العلاقة مع دار الحرب على مقتضيات لغة الحرب، دون أن تخرج ـ في منطق الإسلام ـ عن الأطر الإنسانية العامة في التعامل.

عناصر مهمة في العلاقات مع الآخرين

وهنا نودُّ أن نجمل الأمر، فنذكر بعض العناصر التي تلعب دورها الكبير في تحديد نوعية العلاقات الدولية للسياسة الخارجية الإسلامية، إلاّ أنّنا قبل ذكر هذه العناصر، نشير إلى الأساسين الرئيسين، اللذين تقوم عليهما السياسة الخارجية الإسلامية، وهما:

أولاً ـ المصلحة الإسلامية العليا على ضوء الواقع القائم.

وثانياً ـ الروابط والرحمة الإنسانية، والصلات الخلقية.

والواقع أنَّ كل التشريع الإسلامي يستقي من هذين المعنيين، بل يمكننا القول

---

١ ـ التشريع الجنائي طبع طهران: ٤٤٠.

٢ ـ سورة الإسراء: ٣٤.

ـ عند التعمُّق ـ أنَّهما يعبّران عن موقف واحد، فلم يكن الإسلام ليقصد إلاّ أن يضع الإنسان على طريق تكامله، ويفجّر طاقاته، وينفي عن حياته كل المعوقات التي تقف في وجه مسيرته المستمدَّة من هدي الرسولين، الداخلي والخارجي، أي الفطرة والتشريع.

والواقع الذي لا شك فيه أنَّ الواقعية والروح المناقبية، تعتبران من أهم سمات التشريع الإسلامي في شتّى جوانبه، وما سنراه فيما يلي من أسس تنبثق عن هاتين الصفتين الرئيستين. أمّا العناصر التي وددنا التركيز عليها في نظرتنا السريعة هذه، فهي كما يلي:

أولاً ـ العمل على إبقاء الأمة نموذجاً أعلى للمجتمعات البشرية.

فالأمة الإسلامية التي يصفها القرآن: هي الأمة الوسط، والوسطية هنا بلا ريب يراد بها النموذج الأسمى[1]، وما يمكن استفادته من تعبير واسطة العقد، حيث الجوهرة الثمينة التي تتبعها الجواهر الأخرى فيه، وهي الأمة الشاهدة، وهي خير أمة أخرجت للناس، وعلى هذا فالسياسة الخارجية الإسلامية تسير بشكل منسجم مع مجموع السياسات الداخلية باتّجاه تحقيق هذا الأمر بشتّى الوسائل والسبل، أي سواء على الأصعدة السياسية، أو الإعلامية، أو الاجتماعية، أو العسكرية، أو غيرها.

إنّ هذا العنصر ـ كما ترون ـ يدفع الأمة إلى التعالي والتكامل في كل حقل، والاستفادة الأكمل من تجارب الآخرين، واستغلال كل تسابق في سبيل تحقيقه.

---

١ ـ يشير إلى الآية ١٤٣ من سورة البقرة، والتفسير الذي أورده هنا هو التفسير الدارج لكنّ العلاّمة الطباطبائي برغم اقراره بالمعنى المزبور في حدّ ذاته يذهب إلى تفسير آخر للآية، وهو كون الوسطية هنا التخلل بين البشرية، وأنّ بينها أناساً صالحين يتخللون المجتمعات البشرية يشهدون أعمالها وسلوكياتها.

إنَّه يعني الانفتاح على كل مجالات الحياة، وحمل رسالة إنسانية حضارية كبرى. نقول هذا ونحن نعترف بأنّ أمتنا ـ نتيجة عوامل كثيرة ـ قد أقصيت عن هذا الدور الطليعي الذي أُهّلت، له، ولكن هذا لا يعني أن لا تظل تلحَّ على الوصول إليه، أو تنساه عندما تحاول أن تؤصّل أية علاقة دولية.

ثانياً ـ المبدئية في التعامل.

وهي سمة عامة في كل خط سياسي، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، ذلك أنّ الدولة الإسلامية دولة عقائدية، تؤمن بمبادىء تصوّرية تقوم على أسس منها خطوط عملية تستوعب حياة الإنسان(الفرد والمجتمع).

ولهذا فهي تقترب من الآخرين بمقدار قربهم من المبدأ، وتبتعد عنهم بنفس المقياس، وهي لا تتعامل معهم إلاّ من خلال الامتدادات التي يسمح بها المبدأ... فعلى ضوء المبدأ يتحدَّد نوع العلاقات الدولية: وكونها ودّية، أو حسنة، أو سيئة، في الأصل.

اما العلاقات الأخوية: فلا تقوم إلاّ بين المؤمنين، وذلك لأنّها علاقات سامية، قد تعني وحدة الأفراد في مختلف الشؤون، وليس هناك إمكان أن يصلها أناس يختلفون على قضية الإيمان.

ثالثاً ـ نفي السبيل على المؤمنين.

وتعتبر هذه القاعدة من أروع قواعد السياسة الخارجية، وربما كانت في بعض جوانبها تطبيقاً للقاعدة الأولى، كما تعبّر عن علو الإسلام على غيره من الأنظمة، وكرامة المسلمين التي يجب أن لا تمسّ مطلقاً.

وبموجب هذه القاعدة، فإنّ أيّ تصرف أو معاهدة أو عقد يؤدي إلى تفوّق الكافرين على المسلمين، يعدُّ ملغياً من أساسه ـ وكما يعبّر الفقهاء ـ فإنّ هذه

القاعدة شأنها شأن قاعدة لا ضرر ولا ضرار في الإسلام، وقاعدة(نفي العسر والحرج) تعدُّ من القواعد الثانوية التي تستطيع أن تحكم على الأحكام الأولية بمجموعها، اللهم إلاّ تلك التي تتضمن بنفسها تحمل الضرر في سبيل تحقيق غاية أسمى كالجهاد. وتستند هذه القاعدة إلى أدلة، منها: الآية الشريفة: ﴿**وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾[١].

ومنها: الأحاديث التي تطبقها في بعض الموارد، كالحديث الذي جاء فيه: (الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، والكفار بمنزلة الموتى، لا يحجبون ولا يورثون)[٢].

كما تستند إلى إجماع الفقهاء، وربّما أمكن أن يقال: إنّ روح التوجُّهات الإسلامية، وملاحظة المناسبات بين الحكم والموضوع، تقرّر هذه الحقيقة بوضوح، ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِه وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[٣].

وينبغي أن ننبّه هنا إلى أنّ هذا التوجُّه لا يعبّر عن نوع من التكبُّر ـ كما يقول البعض – وإنّما هو تقرير حقيقة علو النظام الإسلامي على غيره، باعتباره النظام الأكمل، وبالتالي أفضلية تابعيه، فهو يعمل على أساس من معيار إنساني. نعم، يمكن أن يناقش أو يتساءل أحد عن أصل المعيار، ويتحول البحث حينئذ إلى الأدلة، إما أن يطلق القول على عواهنه، فيعتبر ذلك بشكل عام عملاً عنصرياً، فهو من أشدّ الظلم.

إنَّها قاعدة تعاملية مهمة، لها تطبيقاتها في مختلف المجالات، ومنها: المجالات السياسية. وليس هنا بأروع من تطبيقها اليوم في تعاملنا مع القوى

١ ـ سورة النساء: ١٤١.

٢ ـ من لايحضره الفقيه ٤: ٣٣٤.

٣ ـ سورة المنافقون: ٨.

العظمى، التي تعمل على ابتلاع العالم ونهب ثرواته، وعبر بعض الأساليب الخدّاعة.

وما حادثة تحريم شراء التبغ عام ١٢٦٨ هجري من قبل الميرزا الشيرازي، نتيجة المعاهدة التجارية التي عقدها الطاغوت ناصر الدين شاه مع انكلترا، والتي منح فيها امتياز شراء وبيع التبغ الداخلي والخارجي لبريطانيا، من خلال تاجر انكليزي يدعى(رجي) إلاّ تطبيقاً لهذه القاعدة، حيث سلّط الشاه الظالم، الكافرين على جانب اقتصادي إسلامي، فأصدر الميرزا الشيرازي فتواه المعروفة القائلة:

"إنّ استعمال التبغ ومشتقاته حرام اليوم، وإنه يعد بمثابة إعلان الحرب ضد الإمام المهدي عليه السلام". والتطبيق السياسي الثاني المعاصر: هو الموقف الحازم الذي وقفه إمام الأمة الخميني العظيم من معاهدة الكاپيتولاسيون(أي الحصانة) ويعني: اشتراط أن لا تطبّق على الأتباع الأجانب في إيران إلاّ قوانين دولهم التابعين لها، حيث يقوم قنصل الدولة المذكورة بتطبيقها.

وما كانت تعني إلاّ نوعاً من المصونية القضائية للأجانب، وتسليطهم على رقاب المسلمين، وقد قام نظام الشاه المقبور، بعقد هذه المعاهدة في عام ١٩٦٣، فنهض العلماء الكبار ـ وفي طليعتهم الإمام القائد ـ ضد هذا العمل المنافي للإسلام والعدالة، ممّا أدّى به أن نفاه الحكم الطاغي إلى تركية. والواقع أنّ بذرة الثورة الإسلامية الكبرى غرست في ذلك اليوم. والرائع أنَّ الإمام استهلَّ بيانه الجريء وفتواه بالآية القرآنية الشريفة: ﴿**وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾[1].

١ ـ سورة النساء: ١٤١.

ولو أنَّ الأمة الإسلامية، أو هؤلاء القائمين عليها، راعوا هذه القاعدة في تعاملهم، لما أصيبت الأمة بالحالة التي هي عليها الآن قطعاً، حتى عدنا نشهد اليوم حكّام المسلمين يتنادون إلى مجلس، يعترفون فيه بالحدود الآمنة لإسرائيل، هذا العدوّ المتسلّط على رقاب المسلمين، والمهين لشرفهم وكرامتهم. ومن الجدير بالذكر أنَّ العناصر الثلاثة الماضية تشكل أساساً لروح الاستقلال، والترفُّع على أيّ نفوذ أجنبي مذل.

رابعاً ـ التوعية قبل كل خطوة أخرى.

الإسلام دين التوعية والتربية ... وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرّر لزوم القيام بتوعية أي إنسان يراد له أن ينظمَّ إلى معسكره، وأي مجتمع يراد للإسلام أن ينفذ إلى عمقه... إنَّه يعرض جوهرته الثمينة؛ لأنَّه يعلم أنَّ قيمتها ستنكشف بكلّ وضوح للجميع... ولذا فهو يرفض أي تقليد في العقيدة، ويدعو للبحث والبرهنة، ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ**﴾[1]، وهو يرفض أي عملية إكراه عقائدي ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[2]، كما يريد من الأمة أن تكون من أولي الأيدي والأبصار، قوية في بصرها وبصيرتها...

وفي مجال التعامل مع الآخرين يأمر بالدعوة البيّنة الواضحة قبل كل شيء. يقول القرآن الكريم: ﴿**ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[3].

١ ـ البقرة: ١١١، الأنبياء: ٢٤، النمل: ٦٤.

٢ ـ البقرة: ٢٥٦.

٣ ـ سورة النحل: ١٢٥.

﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ...﴾[١].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

وفي هذا المجال يقول المجاهد شهيد الثورة الإسلامية في العراق، آية الله السيد الصدر في كتابه(اقتصادنا):

والأمر الآخر: أن يبدأ الدعاة الإسلاميون ـ قبل كل شيء ـ بالإعلان عن رسالتهم الإسلامية، وإيضاح معالمها الرئيسية، معزّزة بالحجج والبراهين، حتى إذا تمّت للإسلام حجته، ولم يبق للآخرين مجال للنقاش المنطقي السليم، وظلوا بالرغم من ذلك مصرّين على رفض النور...، عند ذلك لا يوجد أمام الدعوة الإسلامية ـ بصفتها دعوة عالمية تتبنى المصالح الحقيقية للإنسانية ـ إلاّ أن تشقَّ طريقها بالقوى المادية، بالجهاد المسلح[٤].

وقد جاء في كتاب الكافي للمرحوم الكليني عن الصادق عليه السلام قوله:

«**قال أمير المؤمنين عليه السلام: بعثني رسول صلى الله عليه وآله إلى اليمن، فقال: يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لئن يهدي الله عزّ وجلّ على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي**»[٥].

---

١ ـ سورة الشورى: ١٥.

٢ ـ سورة فصلت: ٣٣.

٣ ـ سورة يوسف: ١٠٨.

٤ ـ ص٢٩٩.

٥ ـ وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٠.

إنَّه أسلوب القرآن قبل كل شيء، الذي علّمه الله لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿**اذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾[1].

إنه الدعوة ـ حتى عند مواجهة الطواغيت ـ عسى أن يهتدوا إلى الحق. وها نحن نجد الرسول العظيم يكرر عبارة(أدعوك بدعاية الإسلام) في رسالته إلى كسرى انوشيروان، وقيصر إمبراطور الروم تطبيقاً لهذا التعليم الإسلامي السامي.

وهكذا راح الدعاة يبثّون الدعوة إلى الأقطار. وقد ذكرت أسماء بعض الدعاة الأوائل الذين أرسلوا لتحقيق واجب الدعوة إلى الله، ومنهم:

عبد الله بن حذافة السهمي ـ مبعوث الرسول إلى إيران.

حاطب بن أبي بلتعة ـ مبعوث الرسول إلى مصر لدعوة المقوقس.

دحية الكلبي ـ مبعوث الرسول إلى روما.

عمرو بن أمية ـ مبعوث الرسول إلى الحبشة.

سليط بن عمرو ـ مبعوث الرسول إلى اليمامة.

عمرو بن العاص ـ مبعوث الرسول إلى عمان.

حرملة بن يزيد ـ مع وفد معه إلى مدينة(أيلة) الواقعة على ساحل البحر الأحمر.

المهاجر بن أبي أمية ـ مبعوث الرسول إلى ملوك حمير.

خالد بن الوليد ـ مبعوث الرسول إلى همدان(مدينة قرب بحر عمان).

علي بن أبي طالب عليه السلام – مبعوثه الثاني إلى هذه المدينة.

حذيفة بن اليمان ـ مبعوث الإسلام إلى الهند.

عبد الله بن عوسجة ـ مبعوث الرسول إلى قبيلة حارثة بن قريظ.

جرير بن عبد الله البجلي ـ مبعوث الرسول إلى قبائل ذي الكلاع الحميري.

---

١ ـ سورة طه: ٤٣ ـ ٤٤.

وغيرهم ممن حمل مهمة الدعوة إلى الشعوب. وإذا أردنا أن نجد التطبيقات السياسية لهذا الأصل في التعامل الدولي، أمكننا أن نلحظها في بعثات الإيضاح المرسلة من هنا إلى هناك، وفي أساليب توضيح الحقيقة عبر الوسائل السمعية والبصرية، وفي مذكَّرات الإيضاح الموجَّهة، والمذكَّرات التفسيرية المقدَّمة إلى المؤتمرات الدولية.

وما تتميز به العلاقات الدولية الإسلامية: أنّها تنظر لعملية التوعية والإيضاح ـ كرسالة إلهية ومبدأ ضروري ـ يجب الالتزام به قبل القيام بأية خطوة عسكرية أو سياسية أو غيرها تجاه الدول الأخرى. أمّا ما نجده من السياسة الماكرة القائمة ـ بالفعل ـ فهو اعتماد هذه السياسة التوضيحية ـ باعتبارها مناورة سياسية ـ فإذا لزم الأمر، قلبت الحقائق، وتغيَّرت الموازين.

خامساً ـ مراعاة العدالة في التعامل.

يشكّل العدل أهمّ أصول التصوّر الإسلامي عن الواقع: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ...**﴾[١].

وأهمّ الأسس عند التعامل الاجتماعي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ...**﴾[٢].

ومن الطبيعي أنَّ يأتي التأكيد على العدالة حين تثور الإحن والشنآن، ويكاد العدل ينسى من البين، وحينئذ تقول الآية: ﴿**... وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى...**﴾[٣].

---

١ ـ سورة آل عمران: ١٨.

٢ ـ سورة النساء: ١٣٥.

٣ ـ سورة المائدة: ٨

وإذا لاحظنا أنَّ العدل في التعامل مع الأجانب عن دار الإسلام يلحظ فيه واقعهم القائم، أدركنا البعد الإنساني في هذا الأصل، وهذا ما تؤكّده أحكام الإسلام في الجهاد والعهد والإجارة وغيرها. وهو ما يفسّر وقوف الدولة الإسلامية إلى جانب قضايا المستضعفين والمحرومين في الأرض، ومقارعة الظلم والطغيان في كل مكان ـ حتى لو لم يكن الأمر يمسها من قريب، وعملها على نفي العلاقات الظالمة بين الدول.

فليس وقوفنا إلى جانبهم وقوفاً مصلحياً دعائياً، حتى إذا ما تسنّى لنا الأمر ومنحتنا المقادير أزمتها رحنا نسومها سوء العذاب، وهو ما نجده من القوى العظمى، شرقيها وغربيها. وإنّما هو موقف مبدئي أصيل قائم على أساس متين، متى ما خالفناه ـ وفي أية لحظة – خرجنا عن الخط الإسلامي القويم، ودخلنا في عداد المستكبرين، الذين يقول فيهم تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**﴾[1].

إن القرآن على العكس من ذلك، يعطينا صورة الجماعة المسلمة المتمكنة، بقوله: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾[2].

سادساً ـ مبدأ تأليف القلوب.

وهو مبدأ يمثل ايجابية الشريعة الإسلامية بكل وضوح، كما يعكس واقعيتها في نفس الوقت. ففي الجو الذي يتمُّ تأليف القلوب فيه، تنفتح النفوس للحقيقة،

١ ـ سورة محمد: ٢٢ ـ ٢٣.

٢ ـ سورة الحج: ٤١.

وتتقرَّب إلى الواقع، والأصل في هذا المبدأ، هو: سهم المؤلفة قلوبهم في مصارف الزكاة، حيث فتح هذا مجالاً للعمل المنظَّم لتحقيق ذلك، عبر الوقوف إلى جانب كل المستضعفين، والدفاع عن قضاياهم، وجلب القلوب إلى الإسلام.

ورغم أنّ الفقهاء يختلفون في مساحة هذه القلوب المؤلفة وما إذا كانت تختص بغير المسلمين، أم تشمل المنافقين، وتعم بعض المسلمين ضعيفي الإيمان؟[1] إلاّ أن الذي يبدو من روح الإسلام واتجاهاته الاقتصادية، ومن أقوال فقهاء الشيعة والسنة ـ ومنهم الإمام الخميني القائد ـ أنه مبدأ عام، وأصل يتيح للدولة الإسلامية أن تلحظ فيه المصلحة أينما تكون.

ومن هنا فمن الطبيعي أن يشكّل عنصراً إسلامياً، له دوره في تحديد العلاقات الدولية، وتقديم المساعدات إلى مختلف الدول والشخصيات والجمعيات على شتّى مذاهبها. ولئن كان هناك بعض البحث في لزوم العمل بهذا المبدأ في عصر معين، وبالنسبة لأشخاص معينين، بعد وفاته صلى الله عليه وآله، فإنّه لا شك في إسلاميته أصلاً، ولزومه في العصور الأخرى.

على اننا ننبه هنا إلى أنَّ هذا السهم المعطى للمؤلفة قلوبهم، لا يختص مورده بباب الزكاة، وإنّما نجد الإسلام يسمح للإمام أن يقوم بالإنفاق بما يحقق مصلحة الإسلام العليا من أموال الدولة، وتفصيل هذا يذكر في البحوث الاقتصادية الإسلامية. وبانفتاح هذا الباب، نجد المجال السياسي لتطبيقاته واسعاً جداً، يشمل كل المعونات الاقتصادية والسياسية، التي يمكن أن تقدّمها الدولة في سبيل

١ ـ بعض العلماء يعرّفهم بالكفار، وآخر بالمسلمين الذين لهم أتباع كفار، وآخر بالمسلمين في بداية دخولهم الإسلام، وآخر برؤساء العرب قبل الإسلام، انظر: المعتبر (الحلي) ٢: ٥٧٣، الحدائق الناضرة ١٢: ١٧٥ ـ ١٧٧، جواهر الكلام ١٥: ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

تقريب القلوب إليها والى مبادئها.... إلاّ أنّ من الواضح فيه ملاحظة مدى ما يعود به من نفع على القضية الكبرى بغض النظر عن أية منافع سياسية ضيقة.

سابعاً ـ احترام العهود والعقود والاتفاقيات الدولية.

وهذا الأصل هو من أهم الأصول التي تعتمدها السياسة الإسلامية الحقّة، فإنّه يستمدُّ من الواقعية التي تتسم بها النظرة الإسلامية من جهة، واحترام مقتضيات الخلق من جهة أخرى. فالقائد الإسلامي يفكّر ملياً في أي عهد أو عقد يعقده، ولكنه إذا عقد العقدة ـ مستوفية لكل شروطها ـ التزم بها تمام الالتزام. ﴿... **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً**﴾[1].

والعهود التي تعطى للدول الأجنبية أو الأجانب، تارة تدخل ضمن عقود صرَّح بها الإسلام، وحدَّد لها قوانينها العامة، فيجب الالتزام بذلك، وأخرى تسير بمنحى مستقل، يرى ولي الأمر أن يعقدها؛ لأنَّها تحقّق المصلحة الإسلامية العليا. ومثال القسم الأول: عقد الذمة، وعقد الهدنة، وعقد الأمان. ومثال الثاني: كل العقود الأخرى والتي تعقد على الصعيد العسكري والاقتصادي، وأمثال ذلك.

وتستمد التعاليم الإسلامية ـ الخاصة بهذا العقد أو ذاك ـ من نصوص القرآن الشريفة، والأحاديث المباركة، وعمل الرسول صلى الله عليه وآله.

ففي مجال عقد الذمة: تستفاد بعض الأحكام من الآية الشريفة: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾[2].

---

١ ـ سورة الإسراء: ٣٤.

٢ ـ سورة التوبة: ٢٩.

وهناك عقود الذمة التي عقدها ﷺ مع نصارى (نجران) و(بني تغلب) ومجموعات من اليهود. ولا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل هذه العقود، وإنّما نريد التأكيد على أنّ مسألة العهود تحتلُّ جانباً مهماً من الفقه الإسلامي، وتستمدُّ خطوطها العريضة من القرآن الكريم.

إلاّ أنّنا يجب أن نلحظ في البين نقطتين متقابلتين:

الأولى: أنّ الحديث هو عن عهود يقدّمها الحاكم الإسلامي الولي الشرعي، أمَّا هذه العهود والمعاهدات التي يعقدها هؤلاء المتسلطون على الرقاب بالقوة والطغيان فهي في الأصل لا تلزم أي مسلم؛ لأنَّ من عقدوها ليسوا مخوّلين إسلامياً للقيام بتقديم هذه العهود من قبل المسلمين، اللهم إلاّ إذا كان ذلك التقديم بصفتهم الفردية، وكانت التعاليم تسمح بمثل هذه العهود والعقود كما في عقد الأمان في بعض صوره. على أنَّه يجب أن يلحظ ـ في مثل هذه العقود والمعاهدات ـ مدى ما يعود على المسلمين من حصيلة.

الثانية: وكما لاحظنا جانب المسلمين، يجب أن نلحظ الجانب الآخر في البين، ومدى ايمانه وعلمه بصلاحية المسؤول الإسلامي الذي يعقد معه هذه المعاهدة، فإذا لم يثبت لدينا وضوح الموقف لديه، كان علينا أن نحتاط في مجال نقض المعاهدات الدولية بلاريب.

وهذا المعنى يبدو وبكل وضوح عندما يطرح الفقهاء فكرة الالتزام باحترام حرية المحاربين ـ الذين دخلوا الأرض الإسلامية ـ بشبهة الأمان. نعم، في كثير من الحالات، يجد المسلمون أن الدولة الأجنبية، التي دخلت في معاهدة مع حكامهم، كانت تعلم علم اليقين، أنّ هؤلاء أناس متجبّرون، لم تخولهم مبادئهم الإسلامية ولا أمتهم، حق التحدث باسمها، وحينئذ لا يجدون ما يلزمهم بمثل هذه العقود الظالمة في الغالب.

ثامناً ـ التعامل بالمثل. يقول تعالى:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

وإذا كان مبدأ القصاص من جهة، ومبدأ جزاء الإحسان بالإحسان من جهة أخرى، مبدئين واقعيين يرتضيهما المنطق الإنساني في التعامل الفردي والاجتماعي الداخلي، فإنّهما كذلك في مجال التعامل الدولي، بل ربّما عاد أحدهما من الضرورات، إمّا لردع الاعتداء أو لجلب القلوب.

فإذا كان العدو في العصور السالفة ـ مثلاً ـ يسترقّ المسلمين، فمن الطبيعي أن يعامل العدو بمثله ـ طبعاً ـ مع ملاحظة كل الجوانب الأخرى.

ذلك أنَّ حالة الاسترقاق يجب أن يحددها القائد، الذي بلغ درجة سامية من الورع والمحبة الإنسانية، ومستوىً سامياً من وعي روح الشريعة المتنافية مع أصل الاسترقاق، فإذا رأى القائد أنّ الاسترقاق يشكّل أفضل ردّ على العدو من جهة، ومن جهة أخرى أسلوباً لدخول الأسير إلى المجتمع، والاحتكاك بالمسلمين، ومن ثمّ التعرف على الإسلام، وكذلك تخلّصاً من تعطيل هذه الطاقات الخلاّقة الأسيرة، فإنّه حينئذ يأمر به كموقف لا بديل له.

هذا، في حين لا يقاس هذا بأساليب الاسترقاق الوحشية التي كانت جارية آنذاك.

يقول آية الله الشهيد الصدر: «وإذا عرفنا بهذا الصدد، أنّ ولي الأمر مسؤول عن تطبيق أفضل الحالات الثلاث (ويقصد بها: العفو، أو الإطلاق بفدية، أو الاسترقاق) على الأسير، وأوفقها بالمصلحة العامة، كما صرّح بذلك الفاضل، والشهيد الثاني،

١ ـ سورة البقرة: ١٩٤.

وغيرهما، من فقهاء الإسلام، وأضفنا إلى ذلك حقيقة اسلامية أخرى، وهي: أنّ الحرب لم يسمح بها الإسلام سماحاً عاماً، وإنّما سمح بها في ظرف وجود قائد معصوم، يتولّى قيادة الغزو وتوجيه الزحف الإسلامي في معاركه الجهادية، إذا جمعنا بين هاتين الحقيقتين.

نتج عنها: أنّ الإسلام لم يأذن باسترقاق الأسير، إلاّ حين يكون أصلح من العفو والفداء معاً، ولم يسمح بذلك إلاّ لولي الأمر المعصوم، الذي لا يخطئ في معرفة الأصلح، وتمييزه عن غيره.

وليس في هذا الحكم شيء يؤاخذ الإسلام عليه، بل هو حكم لا تختلف فيه المذاهب الاجتماعية، مهما كانت مفاهيمها؛ فإنّ الاسترقاق قد يكون أحياناً أصلح من العفو والفداء معاً، وذلك فيما إذا كان العدو يتبع مع أسراه طريقة الاسترقاق، ففي مثل هذه الحالة يصبح من الضروري أن يعامل العدو بالمثل، وتتبع معه نفس الطريقة»[1].

هذا من الجانب السلبي، والأمر كذلك، بل هو أولى في الجانب الإيجابي، حينما يحسّ الإسلام من العدو أو الطرف المقابل موقفاً حسناً، فإنّه حينئذ يأمر بمجازاته بالإحسان ويرفض مطلقاً أن لا يأبه المسلمون لمثل هذه المواقف الايجابية ﴿**وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا...**﴾[2].

﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾[3].

---

١ ـ اقتصادنا: ٣٠٠.

٢ ـ سورة الأنفال: ٦١.

٣ ـ الممتحنة: ٨

تاسعاً ـ نظام الجهاد بمختلف فروعه.

وهو باب واسع الأبعاد والفروع، حاول الإسلام فيه تنظيم الأعمال الحربية، مستهدفاً من جهة تحقيق الأهداف الإسلامية العليا، من خلال رفع الموانع في سبيل الدعوة الإسلامية، والحفاظ على محورها المتحرّك.

كل ذلك مع ضمان أكبر لالتزام الأساليب الإنسانية الممكنة، ولن نتحدّث طويلاً عن هذا الباب لسعته.

كانت هذه بعض الأسس القرآنية للتعامل الدولي، أشرنا إليها في لمحات سريعة، تاركين التفصيل فيها إلى مظانّه، وملاحظين أنّه قد يكون البعض منها داخلاً في إطار البعض الآخر، كما في مسألة المبدئية في التعامل مثلاً، أو نظام الجهاد، ولكن فصله تمّ على أساس من أهمية الدور الخاص الذي يلعبه في تحديد نوعية العلاقات الدولية.

وعلى أي حال، فإنّنا إذا استعرضنا بعض الأسس التي تقوم عليها العلاقة بين الدارين (دار الإسلام ودار الكفر)، نبقى نتصوّر الحالة المفروضة، وهي قيام الدولة الواحدة في العالم، ويبقى هذا التصوّر الإسلامي هو الذي يحكّم العلاقات الدولية، ويتحكم في نوعيتها.

هذا، ومن المناسب هنا أن نقول: إنّ سياسة الجمهورية الإسلامية في إيران كانت تسير باطّراد نحو تطبيق هذه المبادئ السامية في مجال تعاملها الدولي، وإن كانت نتيجة ذلك قد واجهت شتّى الضغوط من الاستكبار العالمي، ومنها: الحصار العالمي على الأصعدة: السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والإعلامية. ولكنها راحت تتجاوز كل المؤامرات، مرفوعة الرأس مفتخرة برسالتها الإسلامية التي حدَّدت لها المنطلقات والأهداف، والسبيل لتحقيقها، بكل وضوح.

مع الدستور الإسلامي الايراني

وعند الرجوع إلى الدستور الإسلامي، نجده يعدّ موضوع العمل على طرد الاستعمار، والحيلولة دون النفوذ الأجنبي، وكذا فكرة بناء السياسة الخارجية على أساس المعايير الإسلامية، والالتزام الأخوي تجاه كل المسلمين، والوقوف التام إلى جانب قضايا المستضعفين والدفاع عنها، يعدّ هذا من أهداف الدولة الإسلامية. في حين تجعل المادة ٤٣ موضوع الحيلولة دون التسلّط الاقتصادي الخارجي على مرافق البلاد، من مسلمات الاقتصاد الإسلامي، وأسسه.

اما المادة ١٤٦ فتمنع بتاتاً إقامة أية قاعدة عسكرية أجنبية، حتى ولو كان ذلك باسم الأغراض السلمية. وبالتالي فإن الفصل العاشر من الدستور، مخصَّص للسياسة الخارجية، حيث تقول المادة ١٥٢: «إنَّ السياسة الخارجية للجمهورية الإسلامية في إيران تقوم على أساس نفي أي نمط من فرض النفوذ أو القبول بذلك، والحفاظ على الاستقلال التام في جميع النواحي ووحدة أراضي البلاد، والدفاع عن حقوق كل المسلمين، وعدم الالتزام بأي شيءٍ تجاه القوى المتسلّطة، والعلاقات السلمية المتبادلة مع الدول غير المحاربة». كما تقول المادة ١٥٣: «تمنع كل معاهدة تؤدي إلى التسلّط الأجنبي على المصادر الطبيعية، والمرافق الاقتصادية، والثقافية، والجيش، وباقي شؤون البلاد».

أما المادة ١٥٤ فتقول: «تعتبر الجمهورية الإسلامية في إيران سعادة الإنسان في كل المجتمع البشري، هدفاً سامياً لها، وتعتبر الاستقلال والحرية وحكومة الحق والعدل، حقاً لجميع شعوب العالم. وبناءً على هذا، ومع نفي أي تدخل في الشؤون الداخلية للشعوب الأخرى، فإنها تؤيد وتدافع عن الكفاح العادل للمستضعفين في قبال المستكبرين، في أي بقعة من بقاع العالم». وأخيراً، فإنّ

المادة ١٥٥ تؤكّد أنّ: «دولة الجمهورية الإسلامية في إيران تستطيع أن تمنح حق اللجوء السياسي لكل من يطلب ذلك باستثناء الذين يعتبرون وفقاً لقوانين إيران مجرمين أو خونة».

الاستثناء الثاني:

عبّرنا عن فكرة انقسام العالم إلى دارين: دار الإسلام، ودار الكفر، بأنها حالة استثنائية في تصور الإسلام، بعد أن كانت الحالة الأولية المفروضة هي حالة الدولة العالمية الواحدة، ورأينا كيف تتم العلاقة بين المعسكرين في إطار هذا المفروض، وعلى أساس من الواقعية والأخلاقية الإسلامية. وقد افترضنا في الاستثناء الأول قيام دولة إسلامية واحدة، يقودها الإمام الذي تسلّم السلطة على أساس شرعي، وعاد وليّاً للأمر في دار الإسلام. وهذه الحالة هي الحالة الطبيعية في دار الإسلام بملاحظة الأمور التالية:

أ) وحدة التشريع الإسلامي الثابت.

ب) صلاحية الإمام غير المحدودة بمنطقة معينة، في مجال ملء منطقة الفراغ، وهي التي تعالج الجانب المتغيّر من حياة المجتمع.

ج) روح الإسلام التي تفرض الوحدة التامة، لا الشكلية في تحرُّك المسلمين. وتمنع مطلقاً من شقّ عصا المسلمين، وتعتبر ذلك من أعظم الأمور. ومن هنا فإنّنا لا نوافق على ما تفضّل به بعض الأساتذة، من القول بأنّ قيام الدول المتعددة في دار الإسلام، لا يتعارض مع أحكام الإسلام مستدلاً لذلك بأنّ عصر وضع النظريات الإسلامية هو عصر الدولة العباسية الذي شهد دولاً إسلامية متعددة، هي: (دولة العباسيين في المشرق، والعلويين في المغرب، والأمويين في الأندلس)[1].

١ ـ التشريع الجنائي الإلهي: ٤٦٤.

والغريب أنّ الاستاذ الجليل(عبد القادر عودة) يصرّح: بأنّ (الإسلام لا يتنافى مع نظام كنظام الجامعة العربية القائمة اليوم)، رغم أنّنا نشهد أنّ الجامعة العربية لا تعبّر حتى عن أقل طموح. إنّنا نعتقد كون هذا التطبيق لا يستطيع مطلقاً أن يثبت صحته، خصوصاً وأنّنا نعلم أنّ العامل الرئيس في تفتيت الأمة وتقطيعها ما كان إلاّ الأهواء، والطغيان، والاستئثار، والنفعية، لا غير، وتبقى دولة الصدر الأول الواحدة هي الأصل بلاريب، والحالة المنسجمة مع تطلعات الإسلام.

ويبدو هذا الرأي أكثر وضوحاً عندما نركّز على رأي مدرسة أهل البيت في مجال قيادة الإمام المعصوم للعالم، امتداداً لقيادة النبي ﷺ له، ومن بعد الإمام المعصوم يقوم الفقيه العادل بتولّي أمر الأمة، واكتساب صلاحياته إلى حد كبير. إلاّ أننا إذ نواجه تعدّد الدول والسلطة في دار الإسلام، علينا أن نعتبره استثناء آخر، يجب أن يعمل المسلمون على التخلُّص منه ـ مهما أمكن ـ والعودة إلى حالة الوحدة الطبيعية.

وعندما نفترض هذا الاستثناء الثاني، يضاف إلى أساسي التعامل الرئيسيين المذكورين سابقاً، أسس أخرى مثل(الأخوة الإسلامية) و(الوحدة الإسلامية) و(الالتزام بباقي أحكام الإسلام في مجال التعامل بين المسلمين)، ومقتضياتها التي تتجاوز منطق المصلحة، والربح والخسارة، إلى حيث يضع الإسلام للمسلم على المسلم حقوقاً لا يمكنه أن يتخطّاها. وحينئذ يجب أن يحسَّ كل مسلم بآلام كل مسلم آخر، ويجب أن يقيس نفسه إلى مستوى ما يعيشه المسلم الآخر، ويعمل على الدفاع عن كل شبر إسلامي أينما كان باعتباره وطنه، وأن ينسجم مع كل صرخة تنادي بتطبيق أحكام الإسلام، واعتبار كل ثروة في أعماق أي أرض إسلامية ملكاً في الأصل لكل المسلمين، وقياماً لهم، إلى ما هناك من التعاليم الإسلامية الحية.

وهنا ـ وفي خصوص هذه المساحة ـ يجب التنبيه على نقطة هامة في البين، هي: أنّنا إذا نظرنا إلى الواقع القائم اليوم على الأرض الإسلامية وجدناه، يعجُّ بأنماط مختلفة من الحكومات والسلطات، فهناك منطقة إسلامية لو قيس المسلمون إلى مجموع سكانها لشكّلوا الأغلبية الساحقة، ولكنهم مع ذلك، يرزحون تحت حكم إلحادي كافر معلن الحرب ضد الإسلام، أو تحت حكم كافر يتستَّر ببعض الأقنعة، أو تحت حكم آخر يعلن رفضه لأهم تعاليم الإسلام الحيوية، وتمسكه ـ في أسس تصوّره ـ بأفكار يرفضها الإسلام بتاتاً، أو نظام متسلّط يتقنّع بالدين، في حين يعمل جهده على بيع المسلمين وثرواتهم للعدو، وتمهيد السبيل للقوى العظمى، كي تلعب لعبتها وتستعبد المسلمين، وهكذا دواليك. إنّنا نعتقد بكل وضوح بالمضمون القرآني الكريم حيث يردد:

﴿... **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾[١].

﴿... **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[٢].

﴿... **وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[٣].

ونؤمن بأنّ أي عمالة للأجنبي الكافر، تسم الحكم كله بالكفر، وأي تفريط واضح بحقوق المسلمين، يعني الحرب ضد الإسلام والمسلمين. وإنّنا لنعد أنفسنا ـ بمقتضى إسلامنا ـ مسؤولين، وعلينا العمل المشترك لإسقاط الطاغوت بشتّى ألوانه، وإعادة الصورة الإسلامية الناصعة إلى الأمة الإسلامية الواحدة.

---

١ ـ سورة المائدة: ٤٤.

٢ ـ سورة المائدة: ٤٥.

٣ ـ سورة المائدة: ٤٧.

فهرس بعض المصادر المعتمدة

١. قرآن الكريم

٢. نهج البلاغه

٣. الاتقان في علوم القرآن، السيوطي، المكتبة الثقافية، بيروت.

٤. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، تعليقات: السيد محمد باقر الخرسان، مطبعة النعمان، النجف، ١٣٨٩ هـ ق، ١٩٦٦م.

٥. إحياء علوم الدين، ابو حامد الغزالي، نشر: دار المعرفة، بيروت.

٦. الاسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، نقله الى العربية: عمر فروخ، دار العلم للملايين.

٧. الاصول العامة للفقه المقارن، السيد محمد تقي الحكيم، مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٧٩م.

٨ اصول الفقه، الشيخ، محمد الخضري، ط ٢، الاستقامة، مصر ١٣٥٨هـ /١٩٢٨م.

٩. أصول الفقه، محمدرضا، المظفر المطبعة العلمية، النجف الاشرف، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م.

١٠. اعلام الموقعين عن ربّ العالمين، ابن قيم الجوزية، رتبه وخرج آياته: محمد عبدالسلام ابراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١، ١٩٩١م.

١١. افاضة العوائد (تعليق على درر الفوائد للشيخ عبد الكريم الحائري) آية الله العظمى السيد محمد رضا الكلبايكاني، دار القرآن، قم، ط ١، ١٤١٠ هـ

١٢. اقتصادنا، الشهيد محمد باقر الصدر، مكتب الإعلام الإسلامي، خراسان، وبوستان كتاب قم ١٣٨٢هـ. ش .

١٣. الأمالي للصدوق.

١٤. الأمالي للمرتضى

١٥. الإنسان والقدر للشهيد المطهري.

١٦. الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل، علاء

١٧. بحار الانوار، العلامة محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفا لبنان، ط ٢، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١٨. البحر المحيط، بدر الدين الزركشي، وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ط ٢، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٩. بحوث في علوم القرآن، للسيد الزرندي، نشر جامعة المدرسين.

٢٠. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ط١، ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧م، دار احياء الكتب العربية.

٢١. البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الخوئي، مؤسسة احياء آثار الامام الخوئي، قم، ط١، ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٧م.

٢٢. تاريخ دمشق

٢٣. تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام، السيد حسن الصدر، منشورات الأعلمي، طهران.

٢٤. التبيان، أبو جعفر الطوسي، تحقيق وتصحيح: حبيب قصير العاملي، مكتب الاعلام الاسلامي، ط١، ١٤٠٩ هـ ق.

٢٥. تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني، تصحيح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ط٢، ١٤٠٤ هـ ق.

٢٦. تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، من منشورات المكتبة الرضوية لاحياء التراث الجعفري.

٢٧. التشريع الجنائي الاسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، مكتبة التراث، القاهرة.

٢٨. تفسير البغوي

٢٩. تفسير الجواهر، الطنطاوي، طبعة مصطفى البابي، مصر، ١٣٥٠ هـ

٣٠. تفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني، صححه: الشيح حسين الأعلمي، منشورات مكتبة الصدر، طهران، ط٢، ١٤١٦.

٣١. التفسير العلمي للآيات الكونية بالقرآن، حفني أحمد، مصر، ١٩٩٠م.

٣٢. تفسير العياشي، محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي، وقف على تصحيحه: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الاسلامية، طهران.

٣٣. تفسير القران الحكيم الشهير بتفسر المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢.

٣٤. تفسير القرآن، محي الدين ابن العربي، بيروت، ١٣٨٧ هـ

٣٥. تفسير القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم القمي، صححه وعلق عليه: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم، ط٣، ١٤٠٤ هـ ق.

٣٦. التفسير الكبير المسمى البحر المحيط، أبي عبدالله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الاندلسي الغرناطي (أبو حيان) دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م

٣٧. التفسير الكبير، الفخر الرازي، ط ٣.

٣٨. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، مصر، ١٩٥٣م.

٣٩. التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب للشيخ معرفت.

٤٠. التفسير والمفسرون، محمد حسن الذهبي، نشر: دار الكتب، مصر، ١٩٦١م.

٤١. تلخيص التمهيد، محمد هادي معرفة، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة، ط١، ١٤١٦ هـ

٤٢. التوحيد للصدوق.

٤٣. تهذيب الاصول ، تقريرات بحوث الامام الخميني، الشيخ جعفر السبحاني، انتشارات دار الفكر، قم، ط ٣.

٤٤. جامع البيان، للطبري

٤٥. الجانب العلمي في القرآن، صلاح الدين الخطاب، مصر، ١٩٧٠م.

٤٦. جواهر الكلام، الشيخ محمد حسن النجفي، دار الكتب الإسلامية، ط٣، انتشارات خورشيد ١٣٦٧ش.

٤٧. الحدائق الناظرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم.

٤٨. الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٣٩٩ هـ ق، ١٩٧٩م.

٤٩. حول الدستور الإسلامي للتسخيري، نشر مجمع التقريب ـ طهران.

٥٠. الدر المنثور في التفسير المأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤٢٣ هـ

٥١. الدين المرداوي، صححه وحققه: محمد حامد الفقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٣٧٧هـ، ١٩٥٧م

٥٢. رحمة الامة في اختلاف الائمة، أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن الدمشقي الشافعي، المطبوع بهامش الميزان الكبرى، لعبدالوهاب بن أحمد الشعراني، شركة ومكتبة مصطفى الباني وأولاده ط١.

٥٣. روح المعاني، الآلوسي، بيروت، ١٩٧٠م.

٥٤. زاد المعاد.

٥٥. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، ط١، ١٤١٠ هـ ق، ١٩٩٠م.

٥٦. سنن الترمذي، تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٥٧. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، ١٣٧٨ هـ ١٩٥٩م.

٥٨. شواهد التنزيل.

٥٩. صحيح البخاري، دار الفكر، دار الطباعة العامرة باستانبول، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م.

٦٠. صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين محمد مخلوف، نشر: دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٠٦م، ١٣٧٧ هـ.

٦١. العقائد الإسلامية، مركز المصطف بقم.

٦٢. العقوبة للشيخ محمد أبو زهرة

٦٣. علم اليقين، محمد محسن الملقب بالفيض الكاشاني، انتشارات بيدار، قم، ايران ١٣٥٨هـ.ش.

٦٤. علوم القرآن، الشهيد محمد باقر الحكيم، نشر: مجمع الفكر الاسلامي، قم، ط٨، ١٤٢٨ق.

٦٥. العناوين الفقهية، الحسيني المراغي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ط ١، ١٤١٨هـ.

٦٦. عوالي اللئالىء العزيزية في الأحاديث الدينية، محمد بن علي بن ابراهيم الاحسائي المعروف بابن أبي جمهور، تحقيق: آقا مجتبى العراقي، مطبة سيد الشهداء، قم، ١٤٠٣ هـ ق، ١٩٨٣م.

٦٧. عوائد الأيام، المحقق المولى أحمد النراقي، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط ١، ١٤١٧هـ

٦٨. عيون أخبار الرضا، أبو جعفر محمد بن محمد بن علي الصدوق، تصحيح: حسين الأعلمي، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م.

٦٩. غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الآمدي التميمي، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

٧٠. الفتاوى الواضحة، الامام الشهيد محمد باقر الصدر، مطبعة الاداب في النجف الأشرف.

٧١. فقه القرآن، قطب الدين أبي الحسن سعيد بن هبة الله الراوندي، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، نشر: مكتبة آية الله العظمي المرعشي، ط٢، ١٤٠٥ هـ ق.

٧٢. الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، محمد البهي، ط٦، دار الفكر، بيروت.

٧٣. فهرست أسماء مصنفي الشيعة (رجال النجاشي)، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي، تحقيق: السيد موسى الشبيري الزنجاني، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بقم.

٧٤. الفهرست، محمد بن اسحاق النديم، اوفسيت مروي، تهران، ايران، الطبعة الثانية، مع مقدمة لرضا تجدُّد، ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م.

٧٥. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.

٧٦. القاموس الفقهي، الدكتور سعدي أبو حبيب، مطبعة دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ.

٧٧. القرآن في الاسلام، محمد حسين الطباطبائي، تعريب: السيد أحمد الحسيني.

٧٨. قواعد التفسير للشيخ الميبدي، نشر مجمع التقريب بقم.

٧٩. القوانين المحكمة، الميرزا القمي، نسخة حجرية قديمة.

٨٠ الكافي، ابن عبدالبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ

٨١ الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، تعليق وتصحيح: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الاسلامية، تهران، ط٣، ١٣٨٨هـ ق.

٨٢ الكافية في الجدل، الامام الجويني، تقديم وتحقيق: د. فوقية حسين محمود، ط عيسى البابي

٨٣ كتاب الوافي، المولى محسن الفيض الكاشاني، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي، قم، ١٤٠٤هـ ق.

٨٤ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله الزمخشري، تصحيح: مصطفى حسين أحمد، طبعة بولاق، ١٢٨١ هـ ق.

٨٥ كفاية الاصول، الحجة محمد كاظم الخراساني، طبع مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، ١٤٠٩هـ.

٨٦ كلمة حول الرؤية للسيد عبدالحسين شرف الدين.

٨٧ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي بن حسان الدين الهندي، ضبطه: الشيخ بكري حياني، صححه: الشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩م.

٨٨ لباب النقول، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤٢٤ هـ ق، ٢٠٠٣م.

٨٩ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي، نشر: أدب الحوزة، ١٤٠٥ هـ ق.

٩٠. مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، انتشارات الشريف الرضي، ط٢ ١٣٦٨ ش، اوفسيت عن الطبعة الخامسة لدار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م.

٩١. متشابه القرآن لابن شهر آشوب.

٩٢. مجلة رسالة الإسلام السنة ١٢.

٩٣. مجمع البيان لعلوم القرآن، أبو الفضل بن الحسن الطبرسي، دار التقريب بين المذاهب الاسلامية، القاهرة، ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨م، اوفسيت طهران، ١٣٧٩ هـ

٩٤. مجموعة كتابات الشهيد المطهري.

٩٥. المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، تصحيح: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الاسلامية، ١٣٧٠ هـ

٩٦. المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني،

تصحيح: علي أكبر الغفاري، نشر: مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم المقدسة، ط٢.

٩٧. المدرسة القرآنية لآية الله الصدر، مركز الأبحاث، قم.

٩٨. المستصفى من علم الاصول، ابو حامد الغزالي، ومعه كتاب فواتح الرحموت، دار الفكر للطباعة والنشر.

٩٩. مسند أحمد، الامام أحمد بن حنبل، طبع ونشر: دار صادر، بيروت.

١٠٠. مصباح الاصول، تقرير بحث آية الله العظمى الخوئي، السيد محمد سرور الواعظ الحسيني البهسودي، منشورات مكتبة الداوري، قم، ط ٥، ١٤١٧هـ

١٠١. المصحف المفسر، فريد وجدي، طبعة دار الشعب.

١٠٢. المعاد الجسماني للشيخ مرتضى بويان، قم.

١٠٣. المعالم الجديدة للاصول، آية الله الشهيد الصدر، مطبعة النعمان، النجف ١٣٨٥هـ

١٠٤. معاني الأخبار، أبو جعفر محمد بن محمد بن علي الصدوق، تصحيح: علي أكبر الغفاري، انتشارات جامعة المدرسين بقم، ١٣٦١ هـ ش.

١٠٥. المعتبر في شرح المختصر، نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن المحقق

الحلي، تصحيح: عدة من الأفاضل، نشر: مؤسسة سيد الشهداء، ١٣٦٤ هـ ش.

١٠٦. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني، نشر كتاب، ط٢، ١٤٠٤ هـ ق.

١٠٧. من لا يحضره الفقيه، ابو جعفر الصدوق، تصحيح: علي اكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، ط٢.

١٠٨. مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢.

١٠٩. المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط٢٦،

١١٠. المنطق، محمد رضا المظفر، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم.

١١١. الموافقات، ابواسحاق الشاطبي المطبعة الرحمانية، مصر١٩٦٥.

١١٢. ميزان الحكمة، محمد الري شهري، نشر: دار الحديث، قم، ط١، ١٤٠٣ هـ ق.

١١٣. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، منشورات جامعة المدرسين في الحوزة بقم.

١١٤. النص الخالد للسيد الدارابي، مجمع البحوث في مشهد.

١١٥. النظم الاسلامية، صبحي الصالح، بيروت، ١٩٦٥م.

١١٦. نهج البلاغة، الشريف الرضي، شرح محمد عبده، دار المعرفة بيروت.

١١٧. الوافية، الفاضل محمد التوني، تحقيق: السيد محمد حسين الرضوي، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ط ١، ١٤١٢هـ.

١١٨. وسائل الشيعة، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، عني بتصحيحه: عبدالرحيم الرباني الشيرازي، دار احياء التراث العربي، لبنان.

١١٩. هداية المسترشدين، الشيخ محمد تقي الرازي، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين بحوزة قم.

ـ وغيرها

الفهرس

القسم الأول: بحوث في علوم القرآن

مقدمة المركز ٥

الفصل الأول: تمهيد في علوم القرآن ١٣

تعريف علوم القرآن ١٣

لمحة تاريخية عن سير هذا العلم ١٥

أسماء القرآن ١٧

وما يمكن أن يعدّ من أسماء القرآن هو مايلي ٢١

فضل القرآن ٢٦

١ ـ فضل التمسك به ٢٦

٢ ـ هو إمام ورحمة ٢٩

٣ ـ هو أحسن الحديث ٣٠

٤ ـ هو جديد دائماً ٣٠

٥ ـ هو شفاءٌ من أكبر الداء ٣١

٦ ـ هو غنىً لا غنىً دونه ٣٢

٧ ـ ما فيه من العلوم والأخبار ٣٢

الفصل الثاني: تاريخ القرآن ٣٥

نزوله على النبيّ ﷺ مرّتين ٣٥

التدرّج في التنزيل ٣٧

أسباب النزول ٣٩

الفائدة في معرفته ٤٢

تعدّد الأسباب والمنزل واحد وبالعكس ٤٣

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ٤٥

الفصل الثالث في المكّيّ والمدنيّ ٤٦

معنى المكّيّ والمدنّي ٤٧

الاتجاهات في تفسير المكّيّ والمدنيّ ٤٧

الترجيح بين الاتّجاهات الثلاثة ٤٩

طريقة معرفته من خلال الخصائص ٥٠

موقفنا من هذه الخصائص..... ٥٢

شبهة حول المكّي والمدنيّ..... ٥٣

الشبهات حولهما ٥٥

أ) أسلوب المكّيّ يمتاز بالشدّة والعنف والسباب..... ٥٦

ب) هذا الأسلوب يمتاز بقصر السور والآيات ٦٠

ج) لم يتناول في مادّته التشريع والأحكام..... ٦١

د) لم يتناول الأدلّة والبراهين ٦٣

الفروق الحقيقية وتفسيرها ٦٥

التفسير يبقي الصحيح للفرق بين المكّي والمدنيّ..... ٦٧

بعض الملاحظات التكميلية..... ٧٠

الفصل الرابع: حكمة وجود المتشابه في القرآن الكريم..... ٧٥

الآراء في هذا المجال..... ٧٦

١ ـ الامتحان والتربية على الاستسلام والخضوع ٧٦

٢ ـ الدفع نحو التعمق والتوسع الفكري ٧٨

٣ ـ تقريب الأُمور العميقة إلى الإفهام..... ٨١

٤ ـ إعطاء الكل والتركيز على البعض..... ٨٤

٥ ـ تحقيق بعض جوانب الإعجاز ٨٦

٦ ـ القرآن دستور يحوي بعض الاجمال ولا يمكن التفصيل فيه ٨٧

٧ ـ التعبير العام الذي لا ينفر المذاهب عنه ٨٧

ملاحظات حول الوجوه السابقة ٨٨

أهم كتب المتشابه ٩٤

حديث عن بعض هذه الكتب..... ٩٥

عدّة شبهات ٩٦

نماذج من البحث في المتشابه..... ١٠٠

النموذج الأول: مسألة الرؤية والتشبيه والتجسيم ١٠٠

أقوال بعض المفسرين الشيعة..... ١٠٣

النموذج الثاني: القضاء والقدر ١٢٠

النموذج الثالث: هل المعاد جسماني أو روحاني؟ ١٣٥

الفصل الخامس: القرآن ذكر الهي سالم من التحريف ١٤١

القرآن الكريم كما تصوّره روايات أُصول الكافي ١٤٦

أولاً: القرآن الكريم والعقيدة والمفاهيم المنبثقة عنها ١٤٧

ثانياً: القرآن الكريم وتربية المشاعر ١٥٠

ثالثاً: القرآن والسلوك ١٥٢

وخلاصة الأمر ١٥٣

الشيخ الكليني والتحريف ١٥٤

علماء الشيعة على مر القرون يرفضون التحريف ١٥٦

الفصل السادس: النسخ في القرآن ١٥٩

شبهة في إمكانه ١٥٩

أقسام النسخ ١٦٢

نماذج منها ادعي نسخه ١٦٣

النموذج الأول: آية المتعة ١٦٣

النموذج الثاني: آية المناجاة ١٦٤

النموذج الثالث: آية الاكراه ١٦٥

القاعدة الأصولية في النسخ ١٦٦

الفصل السابع: حجية الظواهر القرآنيه ١٦٧

مصادر التشكيك في حجية الظواهر القرآنية ١٦٨

القسم الثاني: الوحي والإعجاز وشبهات المستشرقين

ما هي حركة الاستشراق؟ ١٧٤

موقف المستشرقين من الإسلام و نزعاتهم ١٧٥

النزعة الأولى: تطويع المسلمين للاستعمار وتمكينه منهم ١٧٦

النزعة الثانية: المستشرقون ونزعتهم الصليبية ١٨٠

أخطاء المستشرقين في البحوث الإسلامية ١٨٣

أسبابها ـ نتائجها ١٨٣

أ) أخطاء المستشرقين ١٨٣

ب) أسباب أخطاء المستشرقين ١٨٤

ج ـ نتائج أخطاء المستشرقين ١٨٥

١ ـ أمّا فيما يتعلّق بالجانب الفكري والثقافي ١٨٥

٢ ـ وأمّا فيما يتعلق بالجانب الاجتماعي والسياسي ١٨٦

تحامل المستشرقين على القرآن والسنة خاصة ١٨٨

شبهات المستشرقين حول الوحي والقرآن ١٨٩

ما هو الوحي ١٨٩

الشبهة حول الوحي ١٩١

القرآن وحي نفسيّ لمحمّد ﷺ ١٩١

مناقشة الشبهة ١٩٣

١) الدلائل التاريخية تناقض نظريّة الوحي النفسي ١٩٣

٢) المحتوى الداخلي للظاهرة القرآنية يناقض نظرية الوحي النفسي ١٩٥

٣) موقف النبي من الظاهرة القرآنية شاهد على رفض نظرية الوحي النفسي ١٩٧

أشكال الشعور الواعي ١٩٨

القسم الثالث: حول التفسير والمفسرين

الفصل الأول: التفسير واهتمام المسلمين به ٢٠٧

اهتمام المسلمين ٢٠٧

التفسير حسب القرون ٢١٢
أوائل المفسرين..... ٢١٢
في عصر الصحابة..... ٢١٢
في عصر التابعين ٢١٢
مدرسة مكة ٢١٢
مدرسة المدينة..... ٢١٣
مدرسة العراق ٢١٣
مناهج المفسرين..... ٢١٧
ملاحظات تعريفية لبعض التفاسير المختارة ٢١٩
الفصل الثاني: نحو تفسير علمي للقرآن..... ٢٢٩
أهداف التفسير و التفسير العلمي ٢٢٩
المراد من التفسير العلمي..... ٢٣٠
أنواع التفسير اللاعلمي ٢٣١
١ ـ التفسير الذي تدخله الايديولوجية ٢٣١

٢ ـ الزائد على القرآن وليس منه..... ٢٣٢
٣ ـ الناقص عن القرآن الذي لا يستوعب مادّته بالشرح ولا يجلّي أهدافه..... ٢٣٢
العناصر والاتّجاهات الشاذّة في التفسير والأخطاء المنهجيّة فيه..... ٢٣٦
نماذج من تفسير غير القرآن على أنه قرآن ٢٣٧
في المفسِّر..... ٢٦٠
نماذج من التفسير ٢٦٧
النموذج الأوّل..... ٢٦٧
النموذج الثاني..... ٢٦٧
النموذج الثالث ٢٦٨
النموذج الرابع ٢٦٩
النموذج الخامس..... ٢٧٠
النموذج السادس..... ٢٧١

القسم الرابع: نماذج من التفسير الموضوعي

ما هو التفسير الموضوعي؟..... ٢٧٥
تمهيد..... ٢٧٨

المسيرة الحضارية في الماضي والمستقبل ٢٧٨

النموذج الأول: الفطرة فن الله وإبداعه الخالد..... ٢٨١

أصل الفطرة في الثقافة القرآنية..... ٢٨١

رسالة الأنبياء..... ٢٨٣

الوليد بن المغيرة والجاذبية السحرية للقرآن الكريم ٢٨٥

نماذج من البيان الفني في القرآن الكريم ٢٨٧

١ـ بيان فني في رسم الظواهر الطبيعية وجماليات الخلقة ٢٨٧

٢ـ البيان القرآني الفني في رسم وتصوير أحداث يوم القيامة..... ٢٨٨

٣ـ حوار أهل الجنة والنار ٢٨٨

٤ـ وصف الجنة ونعمها..... ٢٨٩

٥ـ وصف جهنم وعذابها ٢٨٩

٦ـ البيان القرآني الفني في ذكر القسم..... ٢٨٩

٧ـ البيان القرآني الفني في ذكر الوقائع التاريخية والقصص القرآنية..... ٢٩٠

٨ـ سائر الأمثال والحكم ٢٩١

١٠ـ البيان الرائع في تشريع الأحكام..... ٢٩٢
النموذج الثاني: سيدنا إبراهيم عليه السلام ٢٩٥
أهم المبادئ للنظرية الإسلامية حول الحياة الحضارية الإنسانية ٢٩٦
إبراهيم عليه السلام نموذج الرجل الحضاري القائد..... ٣٠٠
من الخصائص التي يذكرها القرآن لإبراهيم عليه السلام ٣٠٢
النموذج الثالث: سيدنا موسى عليه السلام منقذ المستضعفين ٣١٣
النموذج الرابع: مستقبل المجتمع الإنساني..... ٣١٧
القرآن والمستقبل ٣٢٠
أساليب القرآن في تأكيد هذه الصورة المستقبلية ٣٢٣
وسائل تحقيق الصورة القرآنية عن المستقبل الإنساني..... ٣٢٩
النموذج الخامس: الحوار منطق الإنسان..... ٣٣١
أولاً: تحرير محل الحوار أو امتلاك البصيرة في الحوار ٣٣٢
ثانياً: الموضوعية..... ٣٣٢
ثالثاً: الانسجام بين مؤهلات أطراف الحوار والموضوع نفسه ٣٣٣

رابعاً: الانطلاق من المبادئ المتَّفق عليها ٣٣٤

خامساً: المنطقية ٣٣٥

سادساً: الابتعاد عن جو التهويل أو ما يسمى بتأثير العقل الجمعي..... ٣٣٦

سابعاً: أن يكون الحوار مما يترك أثراً عملياً أو فكرياً ٣٣٦

ثامناً: الاتّجاه في الحوار للوصول إلى المساحات المشتركة وتوسيع هذه المساحات..... ٣٣٧

تاسعاً: احترام الرأي والطرف الآخر والدقة حتى في التعبير ٣٣٧

عاشراً: إتباع أحسن أسلوب..... ٣٣٧

النموذج السادس: حقوق الإنسان في الاسلام ٣٣٩

الحقوق المتشابكة ٣٤٠

حق الدين..... ٣٤٧

حق الأنبياء..... ٣٤٧

حق الرسول صلى الله عليه وآله ٣٤٨

حق القرآن..... ٣٤٨

حق الأئمة من أهل البيت عليهم السلام ٣٤٩

حق الصحابة المخلصين ٣٥٠
الحقوق الفردية والاجتماعية كما يصوّرها القرآن ٣٥٠
حق الفرد على المجتمع ٣٥٠
حق المجتمع على الفرد ٣٥٢
حق المجتمع على الإمام ٣٥٣
حق الإمام على المجتمع ٣٥٤
حق الفرد المسلم على الفرد المسلم ٣٥٤
الحقوق العائلية ٣٥٧
حقوق الأرحام ٣٥٧
حقوق الوالدين ٣٥٨
حقوق الزوجين ٣٥٨
حقوق الأولاد ٣٥٨
حقوق الطبيعة ٣٥٩
حقوق الزمان والمكان والتاريخ ٣٦١

حقوق النفس على الإنسان..... ٣٦٢

النموذج السابع: العلاقات الدولية..... ٣٦٥

تمهيد..... ٣٦٥

الإسلام والدولة العالمية..... ٣٦٨

الانقسام هو الاستثناء..... ٣٧٢

عناصر مهمة في العلاقات مع الآخرين ٣٧٣

مع الدستور الإسلامي الايراني..... ٣٨٩

الاستثناء الثاني..... ٣٩٠

فهرس بعض المصادر المعتمدة ٣٩٣